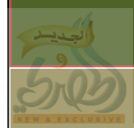
تَجديدُ العَملِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى

د. سفيان الجنابي



العراق- الأنبار ٢٠١٤م

تَجديـدُ العَملِ فِي الدَّعـوةِ إلى اللهِ تَعالى

تـأليــف

الدكتور سفيان الجنابي

العراق – الأنبار

٢٠١٤







بِسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(المائدة: ٥٤)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا﴾

حديث صحيح رواه أبو داود وغيره







الإشـــــارة

كتبَ عُمرُ بن عبد العزيز (رحمهُ الله تعالى) إلى أخٍ له قائلاً:

(يا أخي.. إنَّ أجلكَ قد دَنا،

فكُن وَصيّ نفسِك،

ولا تجعَل الرجالَ أوصياءَك.)

ذكره ابن الجوزي في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز


www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة



الإهـــداء

إلى الذين توقدت قلوبهم غيرةً،

لنصرة دين الله تعالى..

ولم تزل وجوههم المتوضئة تتقلب في السماء،

ترنو إلى السبيل الذي تنال به رضا مولاها..

أهدي لكم هذا الكتاب حباً وكرامةً.

سفيان







تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فما زالت المصائب تحل متتابعة في أرض المسلمين، وذلك منذ أن ابتعدوا عن دينهم الذي أعزهم الله به، فأصبح الجرح الجديد يقع على جراحات قديمة، فتهيج.. فما تدري أي منها هو الأشد إيلاما، فحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا به.

وقد قيل أن سقوط تفاحة من أعلى شجرة إلى الأرض قد حفز ذهن الإنسان للبحث وإعمال الفكر، ليستنبط ما عرف بقانون (الجاذبية الأرضية)، فحريٌ بنا أن تحفز الآلاف المؤلفة من قذائف أهل الكفر والباطل – الذكية وغيرها – عقولنا لنجدد النظر في قوانين (الجاذبية السماوية)، لنعمق فهمنا لها وعملنا بها.. وتلكم هي قوانين سير قافلة الدعاة إلى الله عز وجل؛ في ذلك الموكب النوراني الذي يتقدمه رهط الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والذي لا زالت تلتحق به نفوس أبت التثاقل إلى الأرض، وجذبها الشوق إلى السماء، فجدّتْ في المسير ترمي عن كاهلها ثقل العوائق، وتتجاوز كل عقبة كؤود، لا يضرها من خالفها أو خذلها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين..



وكان لهذه القافلة أصول وقوانين وآداب وأذواق في هذا الدرب، هداهم إليها خالقهم الرحيم، برحمات منه تترى عليهم، ببعثة النبي بعد النبي، والرسول بعد الرسول.. حتى إذا جاءت الرسالة الخاتمة ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أكمل الله لهم دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً. فما التحق المصطفى بربه حتى تركهم على المحجة البيضاء، والدرب الواضح المستقيم. ثم أيدهم الله تعالى بالجهبذ تلو الجهبذ، من فحول العلماء المجاهدين، والأئمة العارفين، يحيون ما درس، ويجددون ما تقادم، فيعود سمته وضاءً كما أنزل أول مرة.. وهكذا ورث اللاحق عن السابق هذه القوانين والأصول، فاستقامت الوجهة، وتوحدت القلوب، وتعاظمت الأنوار.

والظن أن أمتنا قد مرت خلال السنوات الأخيرة بمنعطف تأريخي كبير يرتبط بالتحولات العالمية الكبرى التي جعلت أعداء الحق والدين يتمادون أيّما تمادٍ في غيهم ومكرهم.. فكان لزاما على أبناء الإسلام أن يجددوا العهد الأول، ويعودوا إلى دعوتهم الحنيفية السمحة، التي حملوا أمانة تبليغها بالسند العالي عن سيد الخلق أجمعين، فتستمر قافلة الداعين إلى الله تعالى على بصيرة تشع بأنوار الرحمة المهداة..

وإني وإن لم أكن من رجال هذه القافلة المباركة، فإني أسأل الله تعالى (بمنّه وفضله) أن يلحقني بهم. وقد يكون تطاولاً مني أن أتكلم في مثل هذا الشأن.. ولكنه جهد المقل، جاشت به نفس عظم تقصيرها، وكثرت ذنوبها، وعز عليها ما ألمَّ بالمسلمين، فأرخت حبل التبكيت عنها قليلاً، بعد أن

عرفت أنه لا أحد ينجو بعمله، فاتكأت على رحمة ربها التي وسعت كل شيء، متضرعة إليه أن يلهمها الإخلاص، وأن يسددها في القول والعمل، فأقدمت على ما تهيبت الخوض فيه وقتاً ليس بالقصير. فما كان من صواب فمن الله عز وجل، وما كان من خطأ فمن نفسي الأمارة بالسوء؛ وعلى الله قصد السبيل.

وتم الفراغ من كتابته

ليلة الجمعة ٢٧ جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ

الموافق ٢٨/٣/٢٠١٤ م

سـفيان الجـنابـي

العراق – الأنبار





المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فقد رُويَ أن الإمام أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى كان يقلّب القول في بعض المسائل عاماً كاملاً في نفسهِ، قبل أن يعرض قوله ذاك على أصحابه، لا ليلزمهم به، بل ليتدارسونه معا!.. وأين لنا في زماننا هذا من ينهجون نهج أبي حنيفة وأضرابهِ؟.. فنحن في زمن أصبح فيه الفقيه الحق أندر من الجوهر النفيس.. فغاية أكثر من نرى اليوم هم أشباه علماء، إن حفظوا لم يفقهوا، وإن فقهوا لم يعملوا، وإن عملوا لم يخلصوا..

وإياك أن تجفل من كلامي هذا فتصد عنه ظاناً بأني ممن يتطاولون على العلماء والكبراء، معبرين عن مرض خفي في دواخلهم، أو باحثين عن شهرة ما أن تلمع حتى تخفت. فأنا بإذن الله تعالى أبعد ما أكون عن أمثال هؤلاء، غير أن رعونة الأطباء أفزعتني أشد مما أفزعني عظيم المرض الذي ألمَّ بهذه الأمة.. وإني لموقن بأن الخير باقٍ في الأمة حتى قيام الساعة، وإن الزمان لا يخلو من عالم عارف مسدَّد.

وهذا الكتاب الذي بين يديك إنما أصله كتابان أصغر منه حجما، الأول كان عنوانه (الداعيةُ الدعوةُ) وقد كتبته عام ٢٠٠٣م، وأما الثاني فعنوانه (فقهُ المقاومةِ ومقاومةُ الفقهِ) وكتبته عام ٢٠٠٥م، ولم أنشر أي منهما منذ



ذلك الحين.. غير أني عرضتهما آنذاك على بعض أهل العلم والفضل طالباً رأيهم فيها تصويبا واستدراكا، فأثنى أكثرهم على ما ورد فيهما، وطلب مني البعض التريث سنتين أو ثلاثاً قبل نشرهما لحين انجلاء الغمة التي ألمت بالبلد حينها أو لحين أن تتضح صورة الأحداث.. ولأن مصيبة البلاد تفاقمت بل وعمّت غيرها من البلدان، فإني قد نسيت أو تناسيت موضوع نشر الكتابين، حتى تغير الأمر قبل بضعة شهور..

ففي منتصف عام ٢٠١٣م إلتقيت الشيخ خليل إبراهيم نده الكبيسي رحمه الله تعالى (حيث أن الشيخ قد استُشهد مطلع عام ٢٠١٤م أي قبل أسابيع قليلة من كتابة هذه السطور، نسأل الله تعالى أن يرفع مقامه عنده في الشهداء والصالحين).. ودار بيننا حوار طويل في حديقة جامع الرمادي القديم، ثم أن الشيخ أهدى لي بعضا من كتب الشيخ الدكتور فريد الأنصاري والتي كانت تدور حول مجالس القرآن وبلاغات الرسالة القرآنية.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقرأ فيها شيئاً لعلامة المغرب الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى، وسرعان ما حصلت على أكثر مؤلفاته الأخرى عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).. ولعلي لا أبالغ إن قلت أن كتابات الشيخ الأنصاري قد هزتني هزاً عنيفاً، وخصوصاً كتابه (الفطرية: بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام)[1].. فعدت

[1] فريد الأنصاري، الفطرية: بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، نشر دار السلام، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٩.

بالذاكرة حوالي عقداً من الزمن لأدرك أن هناك موافقات كبيرة بين ما كتبته سابقا وبين كتابات الشيخ الأنصاري..

وفي لقاء لاحق جمعني بالشيخ خليل الكبيسي رحمه الله تعالى حدثته عن تلك الموافقات، ففرح بها وشجعني على مزيد من الكتابة والنشر.. ثم أني استخرت الله تعالى، واستشرت بعضا آخر من أهل الفضل، في نشر كتابيَ (الداعيةُ الدعوةُ) و (فقهُ المقاومة ومقاومةُ الفقه)، فانشرح صدري لذلك. ولأن السنوات التي مرت بعد تأليف هذين الكتابين كانت ثقيلة ومحملة بعظائم الأمور، فإن فضل الله تعالى على عباده كان أكبر وأعظم.. فنضجت أفكار ورؤىً كثيرة لم تكن ناضجة تماما في وقت التأليف قبل حوالى عشر سنوات، فكان لا بد من مراجعة شاملة وتنقيح، وإضافة هنا، وحذف هناك، وإعادة تبويب، ليخرج كتابنا هذا (تجديدُ العملِ في الدعوةِ إلى اللهِ تعالى) بصورته النهائية وهو يضم فحوى الكتابين السابقين، وفيه مزيد.

وهكذا عزمت على نشر الكتاب، طاوياً بذلك صفحة طويلة من التردد الذي كان سببه ما رأيتُ وسمِعتُ من أفعال وأقوال مخالفة لما أرى، من القريب قبل الغريب، ومن الصديق قبل العدو، ومن علماء، وجهلة، على حدٍ سواء، فكنت أتَّهِمُ رأيي المرة تلو المرة، وأستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ومن اتباع الهوى والإعجاب بالرأي..



وقد كانت الأحداث المتوالية كُلها تعزز رأيي وقناعتي التي كانت قوية في داخلي منذ أول الأمر، بينما كانت هذه الاحداث ذاتها تُذهب فتاوى المفتين وخطب الخطباء وتحليلات المحللين أدراج الرياح، ومع ذلك لا زالت المعاندة والمكابرة وحب الظهور تقصُم البطون والظهور.. بل أن ذاك المكابر، بدل الاعتراف بخطئهِ والاعتذار عنه، تراه مسرعاً بالمضي في عنادهِ، ليخلط الأوراق من جديد.. يحاول أن يظهر للناس أن الألطاف الربانية التي خففت شيئاً من وطاة جهلهِ وسوء نتيجة ما قدم له، ولم تُسلِم الأمة بالكامل لعواقب تصرفاتهِ، يُظهر أن ذلك أنما هو عبقريات ذهنهِ التي لم يستطع أن يراها أحد قبله!..

لذا فقد قررت أخيراً أن أكتب وأنشر ما يجيش به خاطري، من غير إلتفات كبير إلى موافق أو مخالف، ولعل كتابتي تكون كمن يفكر وحيداً بصوتٍ عالٍ وبحرية تامة، دون حساب لمن ينكر عليه ما يفكر فيه.. فكان عنوان هذا الكتاب (تجديدُ العملِ في الدعوةِ إلى اللهِ تعالى) دالاً على هدف الكتاب الرئيس ورسالته، وهي وصول الدعوة الإسلامية اليوم إلى مرحلة تقتضي فيها التجديد في الأساليب والمنهجيات، وبما يناسب حال الزمان وأهله، وبما يتفق مع أصول الدعوة الثابتة جذورها في الأرض، والشامخة فروعها في السماء..

وبذلك يكون الكتاب موجهاً في المقام الأول إلى كل من أقام من نفسه في مقام الدعوة إلى الله تعالى، بغض النظر عن المدرسة الإجتهادية التي ينتمي





إليها أو يعمل من خلالها، من المدرسة الفقهية (الكلاسيكية) إلى المدرسة الحركية التنظيمية، ومن المدرسة العلمية السلفية إلى المدرسة التربوية الصوفية، ومن الذين اشتغلوا بالسياسة إلى الذين اعتزلوها، ومن الذين جزموا بأن ساعة الجهاد والقتال قد حانت إلى الذين اختلفوا معهم في ذلك.. فكل من رفع شعاراً للإسلام في زماننا هذا مشمول برسالة هذا الكتاب، سواءً أطلق على نفسه تسمية حزب أو جماعة أو حركة أو جمعية أو طريقة أو مدرسة، أو غير ذلك، أو لم يسمي نفسه بأي من هذه المسميات غير أنه كان له اجتهاد في ساحة العمل الإسلامي يتميز به عمن سواه..

وكلامي مع هؤلاء جميعا إنما هو كلام الأخ المحب في الله.. وقولي بوجوب التجديد لا يزري مطلقا بما هو موجود في الساحة أصلاً، ولا ينتقص من أحد، ولا يتطاول على الأكابر من الأئمة والعلماء الذين اجتهدوا في نشر الدين الحنيف والدعوة إلى الله تعالى على اختلاف مدارسهم.. ذاك لأن أولئك الأكابر اجتهدوا في ضوء زمانهم ومرحلتهم، ولم يدّع أحد من العصمة في ذلك، فالعصمة في معتقدنا هي للأنبياء فحسب، والمحفوظ من حفظه الله تعالى.

ولأني أحسب نفسي إبناً بارّاً للدعوة الإسلامية، ولأكابر أئمتها، فأنا أفهم أن سيري على دربهم الذي ساروا عليه إنما يكون بتمحيض حسن الإتّباع لمن وجب على البشرية جمعاء أن تسير على خطاه، ذلك هو نبينا وعظيمنا محمد صلى الله عليه وسلم.. وإنما نجا من نجا، ووُفق من وُفق، بحسن الإتّباع



هذا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي بين لنا كيف أن الله تعالى يبعث في هذه الأمة من يجدد لها أمر دينها كلما اقتضى الزمان ذلك[٢].. والمجدد اللاحق لا بد أن يخالف في ظاهر الأمر بعضا من الذي قال به المجدد السابق، ولكنهما في الحقيقة إنما يستقيان من منبع عذب واحد، هو منبع الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ولكن العبارة اختلفت، والإشارة تمايزت، وكل منها إنما يناسب الواقع والزمان الذي جاءت فيه وله.. وتلك هي عظمة هذا المنهج الرباني القويم.

والدعوة الإسلامية فيها مجال واسع للإجتهاد وللفكر البشري، الذي ينطلق من أصول الدعوة وثوابت الدين ليجرد الأساليب والمنهجيات التي تناسب الواقع المعاش.. وينبغي التمييز بدقة بين الثابت والمتغير في كل ذلك. ويخطئ من يظن الجمود على الأساليب التي ألِفها هو وفاء لإمامه أو المجتهد الذي يتبعه، وخصوصا عندما تتغير الأحوال ويتبدل الزمان.. ولو كان ذلك الإمام أو المجتهد حياً لغيّر هو من اجتهاده لما يراه من جلب مصلحة مستجدة أو دفع مفسدة كانت خافية.

ورب قائل يقول مالك قد جردت قلمك على العاملين في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وتركت غيرهم ممن تبنوا الأفكار والمناهج الأخرى التي قد تخالف

---

[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا).. حديث صحيح رواه أبو داود وغيره.

الدين قليلاً أو كثيراً؟!.. والإجابة عن هذا التساؤل هي ببساطة أنني أخاطب من أظن أنه أقرب إلى فهم هذا الكلام وأرجى لتحقيق مناطه، وإنما يرجى لذلك الصلاح بصلاح هذا أولاً.. وإني لأرجو من إخواني أن يكونوا كسيدنا عمر بن الخطاب عندما كان يقول: (رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي).. وأما من لم يفقه بعد كلمة فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (نحن قوم أعزنا الله تعالى بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله) فذلك في ظاهر الأمر لا زال بعيداً جداً عن فهم كلامنا هنا، ولعل الله تعالى يصلح حالنا وحاله، فيلحقنا به أو يلحقه بنا على قدم الإتّباع لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأود في البداية أن أنبه القارئ إلى أنه لما كان صاحب الدعوة والرسالة هو الرحمة المهداة للعالمين صلوات ربي وسلامه عليه، وجب على من أراد أن يجدد الله تعالى به شيئاً من أمر دين الأمة في أي زمان، وفي زماننا هذا بالأخص، وجب أن يكون له نصيب وافر من هذه الرحمة، فيستقيم أمره على النهج الرباني الحنيف، وتتصف حقيقته بالسماحة الموروثة عن سيد الدعاة وإمام الهداة المهديين.

ومحتوى هذا الكتاب في المقام الأول إنما هو قول عراقي في القضية العراقية، لأن واقع العراق هو الواقع الذي أزعم أني أفهمه وأتحدث عنه.. ورغم أن هناك الكثير من العناصر المشتركة التي يمكن على أساسها تعميم القول إلى بلدان وبقاع أخرى من الأرض، إلا أن ذلك أنما يأتي بالتبعية أولاً، ثم أن



أهل كل بلد هم أدرى بشعاب بلدهم ثانياً. فالقضية العراقية بعد الإحتلال الأمريكي له عام ٢٠٠٣م هي مثالنا الواضح في هذا الكتاب لنبين من خلاله القصور البين في التنظيمات والجماعات الإسلامية المعاصرة عموما على اختلاف مسمياتها، والاستدراك المطلوب في هذا لشأن..

فصراحة المكتوب هنا هي الوجه الأول لعراقيته التي جعلتها وصفاً له. وأنت يا من قُدِّر لك أن تقرأ قولي هذا، ضع في ذهنك هذا الاعتبار لتفهم كلامي بالتي هي أهيا. وإن كنتَ ممن يبحثون عن المجاملات، فاطلبها في غير هذا الكتاب. وإذا ما وجدت بعض المقاطع فيه قد غلب عليها الطابع الأدبي بعكس الطابع العلمي التحليلي الذي يفترض أن يتسم بها هكذا كتاب، فاعلم أن ألم المصاب قد فاق قدرة العقل والعلم، فلم يجد المبثوث بداً من الاستعانة بسوانح الأدب وزفرات القلب.

وأما الوجه الآخر المهم لعراقية قولي هذا فهو علو إسناده، فهو لم يأتِ من عراقي قضى سنوات عمره الأخيرة خارج بلده مترفهاً ولا حتى لاجئاً.. وليس من عراقي أجهد نفسه بحسابات التجارة فوضع قدماً في العراق والاخرى في مكانٍ آخر.. ولا من عراقي تفضل عليه المتفضلون من أصحاب الأموال بفتاتهم، فنقلوه من حال إلى آخر ليجعلوا من ذلك جميلاً في عنقهِ بمثابة الطوق لعقلهِ.. كما أنه لم يصدر عن عراقي تقرّب إلى الظلمة فاسوَدَّ قلبه من قربهم.. كلا وألف كلا.





إن هذا القول هو قول عراقي تحمل كل مغامرات الحكام، وظلم الأزلام، ونفاق الذيول؛ وصبر على الحروب والحصار والجوع، وتعفف عن كل ما مِن شأنهِ الإسفاف؛ واعتزل الظالمين وأذنابهم؛ وبنى نفسه وكوّنَ شخصيته بفضل الله تعالى وحده، دونما مَنٍّ من أحد، سوى أخوة في الله صادقين أعانوه على الدرب، وقووا عزيمته على المسير، وفتحوا عينيه على أفق الإسلام الرحب وسعة طريق التوكل..

فأنت يا أخي العراقي الذي قضيت شطراً عمرك تُقَبِّل أيادي الظلمة وتتطلع إلى ما فيها (حتى وإن كنت متأولاً)، أنّى لبغلتك العرجاء أن تسابق فرسي الحر الأصيل؟..

وأنت يا أخي العراقي الذي قضيت سِني عمرك خارج العراق، مبتعداً عن الظلم الذي فيه، حتى وإن كنت خرجت فِراراً بدينك وعملت لقضية العراق والإسلام من موقعك هناك، فحدّ الضرورة يُختلَف في تقديره، وأنّى لمترخص أن يبلغ السند العالي لأهل العزائم؟..

أما أنت يا أخي الذي أثقلهُ جميل أصحاب الأموال عليه، فأصبح لا يجرؤ على قولٍ يخالف مذهبهم كي لا يقال أنهُ أساء الأدب مع من أحسن إليهِ، فالأمر فيك أبيَن، وأنى لعنقٍ أثقلتهُ أفضال العباد أن يشرئبَ مطاولاً عنق من لم يرزقه الله شيئاً إلا وأخلاه من كل منةٍ لأحد غيره فيه؟..



وأنت يا أخي العراقي الآخر، وأنتِ يا أختي العراقية الأخرى، كلكم يستطيع أن يقول ما يريد، ولكني لن أقبل بعد اليوم لأحد من الناس أن يصادر صوتي ولا أن يتكلم بأسمي.. ولن أسمح لساذج أن يزايد عليَّ بعد اليوم، ولا أن يرتكب أخطاءً أتحمل أنا لوحدي نتائجها..

وأضيفُ لعراقية هذا القول وجهاً ثالثاً قوامه تلك الطبيعة القيادية الخلاّقة للشخصية العراقية، التي كان من ثمارها كثير من القيادات الدعوية والحضارية في شتى بقاع الأرض وعلى مر الأزمان. فيا عجباً لزمانٍ تطاولت فيه أعناق شذاذ الآفاق حتى قدّموا أنفسهم لقيادة أهل العراق!..

فهذا قولي أنا العراقي، في قضيتة أرضي (أرض العراق) أُحدِّثُ بهِ نفسي، وأبثه بين أخوتي، راجياً رضى الله تعالى وحده..

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

وليتَ الذي بيني و بينك عامرٌ ... وبَيني وبَين العالمين خرابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ ... وكلُّ الذي فوقَ التراب ترابُ

وإضافة إلى هذه المقدمة، فالكتاب يشمل ستة عشر فصلاً، وخاتمة. ويليه ملحق يمثل الجانب العملي من كتاب (الفطرية: بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام) للشيخ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى، أدرجته لأهميته فيما نحن في صدده في هذا الكتاب كما سيتضح (إن



شاء الله) لاحقاً. وهذا الملحق أثبته كما وجدته (مع بعض الإختصار في هوامشه) على موقع (الفطرية) الذي يحوي مؤلفات وتراث الشيخ الأنصاري رحمه الله تعالى، ولم أجد ما يقيد نشره، لذلك نشرته كملحق مع كتابي هذا راجياً أن يكون ذلك في ميزان حسنات مؤلفه رحمه الله تعالى.

وأما فصول كتابنا هذا فهي كما يأتي:

الفصل الأول: جمالية الدعوة وحيويتها

وإنما هذا الفصل يمثل تجلياً للفضاء الواسع والأفق الرحب الذي تكون فيه انطلاقة العقل وجولان الروح في موضوع هذا الكتاب.

الفصل الثاني: القضية العراقية في زمن (الفوضى الخلّاقة)

الفصل الثالث: أبجديات الفهم في القضية العراقية

الفصل الرابع: فقه المصائب والفتن في أرض العراق

وتتضمن هذه الفصول الثلاثة (الثاني والثالث والرابع) رصداً تفصيلياً لأهم مجريات القضية العراقية بعد الاحتلال الأمريكي له مما يتعلق بأهداف ورسالة هذا الكتاب.

الفصل الخامس: المرجعية الحق





وفي هذا الفصل نعرض ما نعتقده من وجهة النظر الشرعية والأصولية لموضوع المرجعية عند أهل السنة. ونؤكد فيه على خطأ وخطورة القياس على الأمر لدى بعض الفرق الإسلامية من خارج منهج أهل السنة والجماعة.

الفصل السادس: الحركة الإسلامية بين تساهل الحمائم وتشدد الصقور

وفيه نركز على تحولات مهمة عانتها أجزاء واسعة من الحركة الإسلامية في العراق بعد الاحتلال، محاولين رصد الدوافع الكامنة وراءها، لتكون مثالاً عملياً واضحاً لما يمكن أن يسببه النقص في البناء الروحي والفكري للأفراد على عمل الجماعات والمؤسسات. كما نناقش فيه خطورة استمرار المبالغة بالأسلوب التنظيمي الحزبي في بناء الحركات الإسلامية عموماً كون أن هذا النمط من العمل جذوره ومنطلقاته غير إسلامية.

الفصل السابع: من مقتضيات التربية الدعوية

وبعد عرض جوانب واقعية عملية لبعض جوانب الأزمة التي تمر بها الحركات الإسلامية المعاصرة باعتبار الحركة الإسلامية في العراق بعد الاحتلال أنموذجاً، نبدأ في هذا الفصل مرحلة من التعميم المنضبط بغية الوصول إلى صياغات نظرية حقيقية وبناءة لمقتضيات التجديد الدعوي المنشود في نهاية الكتاب. وفي هذا الفصل نبين الأبعاد العميقة المختلفة للتربية الدعوية المطلوبة.

الفصل الثامن: أزمة استقالة العقل



الفصل التاسع: توسيع آفاق العقل المنضبط

الفصل العاشر: تأصيل الفهم المقاصدي

وفي هذه الفصول الثلاثة (الثامن والتاسع والعاشر) نتناول بشيء من التفصيل الأزمة الفكرية التي يعاني منها عموم المسلمين في وقتنا الراهن وبضمنهم من انتهضوا لمهمة الدعوة والعمل الإسلامي. ونبين أن حل هذه الأزمة يتجاوز مجرد القراءات والمطالعات إلى ضرورة إعادة ترتيب وتركيب هيكلية العقل ومنهجيته وفق الموازين السماوية الحقة التي تؤهل الإنسان لممارسة دوره في استعمار الأرض والخلافة فيها.

الفصل الحادي عشر: في التربية الروحية

وموضوع التربية الروحية أو علم التزكية والسلوك يعد ملاك أمر التجديد الدعوي كله.. لذلك كان لا بد من تصحيح النظرة الإنفعالية المتسرعة التي أحاطت به من قبل البعض. فكان هذا الفصل.

الفصل الثاني عشر: ملاحظات في فقه العمل السياسي

وفي هذا الفصل نتعرض لأصول الفقه السياسي، وبيان اختلاف ذلك عن مسألة تبني برنامج سياسي تفصيلي معين. ونقرر أن مسألة الخوض في العمل السياسي والوصول إلى كراسي الحكم، لا ينبغي أن يكون لها أولوية في المرحلة المقبلة من العمل الدعوي الإسلامي.

الفصل الثالث عشر: في الأصالة والاجتهاد الدعوي

إن ما نعتقده قد ساد عموم الحركات الإسلامية المعاصرة من الجمود والتقليد في الفعل الدعوي في السنوات الأخيرة، لا بد من تصحيحه بتفعيل روح الابداع الدعوي المنضبط والمؤصل، وإعادة بناء الشخصية القيادية للداعية المسلم.. وهذا هو أهم ما يتناوله هذا الفصل.

الفصل الرابع عشر: المستدرَك على الحركات الإسلامية المعاصرة

وهذا الفصل مخصص لعرض القضايا التي يمكن استدراكها على عموم عمل الجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة، وبشكل مركّز. وهو الأساس الذي يبتنى عليه مسار التجديد الدعوي الذي ندعو إليه في الفصول اللاحقة، باعتبار أن وصف العلاج يقتضي معرفة الداء أولاً.

الفصل الخامس عشر: مسار التجديد الدعوي القادم

وفيه نقرر الخطوط العامة للمسار التجديدي الذي نرجوه في الدعوة إلى دين الله تعالى، والذي يقوم على منهجيتين متكاملتين في تلقي رسالات القرآن الكريم وبلاغاته، وفي الارتباط القلبي الروحي بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبما يضمن حسن التأسي به والعمل بسنته.

الفصل السادس عشر: إذكاء التنوع في العمل



وهذا فصل هو بمثابة رسم النتيجة الأبعد لتصورنا حول العمل الإسلامي بعد تطبيق مسار التجديد الدعوي الذي ندعو إليه، والذي تم وصفه في الفصل السابق. وقد أشرنا في ذلك إلى استنتاجات تخص قضيتنا العراقية، وما شابهها من قضايا في العالم الإسلامي.

وهكذا تكون انطلاقتنا في هذا الكتاب من رسم الأفق الرحب لطريق سيرنا في أداء أمانة التبليغ والخلافة في الأرض، لنمرَّ بعرض لجوانب مهمة من المستجدات والتحولات العالمية، باعتبار قضية العراق بعد الإحتلال الأمريكي له عام ٢٠٠٣م أنموذجا، فنرصد من خلال ذلك القصور البيّن في عمل وأداء معظم الجماعات والحركات الإسلامية الموجودة في الساحة، هذا القصور المشاهَد على مستوى الفرد وعلى مستوى المجموع، وفي جانب الفكر كما في جانب الروح، وفي فضاء التنظير كما في حيز التطبيق والسلوك، ليتم لنا بهذا استدراكنا المؤصَّل على عموم الجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة..

ومن ذلك سنصل إلى نتيجة لا مفر منها مفادها أننا اليوم كمسلمين قد وصلنا إلى منعطف خطير، لا بد لنا فيه من إعادة شحذ الهمم، وترك التلكؤ والتباطؤ، ومجانبة التردد والتخاذل، لنقدم على بصيرة، على مرحلة جديدة في الدعوة إلى الله تعالى، مصداقاً لقوله عز وجل: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا





إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ. وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (فصلت: ٣٣-٣٦).. كما لا بد لنا أيضاً من أن نوقن بأن بعثة التجديد قد حان أوانها، بنا أو بغيرنا، والموفَّق من وفّقه الله تعالى لطاعته، واستعمله في مرضاته..

وفي نهاية الكتاب، سنضع الخطوط العريضة والقواعد العامة، لمسار التجديد الدعوي القادم بإذنه تعالى، والذي نظنه سيبتنى على منهجيتين متكاملتين. الأولى هي منهجية الإقبال على القرآن الكريم لتلقي رسالاته وبلاغاته على السمت الأول، والثانية هي تفعيل الإرتباط الروحي والقلبي، وإحياء حقيقة التأسي، بمن أنزل عليه القرآن، والذي كان خلقه القرآن، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. كما سنوضح كيف أن مسار التجديد في الدعوة إلى الله تعالى في المرحلة المقبلة لا بد له من لازمين أساسيين هما تجاوز الصيغ التنظيمية التحزبية، وتجنب العمل السياسي والصراع على الكراسي..

وفي آخر هذه المقدمة، وبعد هذا الاستعراض السريع لفصول الكتاب ومحتوياته، ولأننا سلكنا أكثر من طريق ودخلنا في أكثر من موضوع، لتوضيح الرسالة الرئيسية لهذا الكتاب، والهدف من ورائه، وذلك فيما يخص ضرورة ووصف مسار التجديد المطلوب في العمل الإسلامي المعاصر (بتأكيد اعتباره دعوة إلى الله تعالى)، فإننا نرجو من القارئ الكريم أن لا





يتعجل في إصدار حكم على الكتاب قبل أن يقرأ جميع فصوله.. سائلين الله جل وعلا أن لا يكلنا إلى غيره طرفة عين، وأن يأخذ بأيدينا جميعاً لما يحب ويرضى.



الفصل الأول:

جمالية الدعوة وحيويتها

إن من تمام نعمة الله تعالى على الإنسان أن جعل من عوامل الجمال، من تناظر وتناسق وتكامل بين أجزاء هذا الكون الفسيح -الذي هو كتاب الله المنظور-، ما يحفز ويبقظ عوامل للهداية مغروسة في نفس الإنسان، تذكره بعظمة الخالق ووحدانيته، واستحقاقه للعبودية الخالصة دوناً عما سواه.

وفوق ذلك تفضل الحق جل جلاله مرة أخرى على عباده، بأن بعث فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخاتمة، الكاملة المكلمة، التي كانت تتويجاً لكل بعثات الأنبياء من قبله، وتقريراً لكل القواعد والأصول التي تكفل سعادة بني الإنسان من بعده. فأنزل الله تعالى القرآن الكريم —كتابه المقروء- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكان لتناسقه وتكامله الداخلي من جهة، والخارجي مع الكتاب المنظور من جهة أخرى، أعظم الدلالة على صدق من جاء به، وعلى أنه نابع من نفس المشكاة التي أخرجت هذا الكون ومن فيه، إلى الوجود..

وكانت سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بسيرته وصفاته وأقواله وأفعاله وتقريراته، أعظم مبين وشارح للتطبيق العملي لهذا القرآن، وكان صلوات ربي وسلامه عليه قرآنا يمشي على الأرض. ولذلك فلا عجب أن كانت هذه



السنة، يظهر فيها ذات القدر من التناسق والتكامل، وعوامل الرصانة والجمال الأخرى، الداخلية والخارجية، عندما يتناولها الدارس لها من خلال فهم منهجي شمولي صحيح.. لا بل أن هذه الشمولية، وهذا التناسق والتكامل والاتزان، كانت أبرز صفات المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بحق بقولها: (كان خُلقُهُ القرآن)[٣]، فكان ذلك انعكاساً آخر، وتجلياً عظيماً لذات الدلائل التي أرادها الله تعالى منارات لهداية خَلقِه إليه..

وبناءً على ما تقدم، فقد أدرك أولو الألباب، أن أي منهج لفهم الشريعة الإسلامية السمحاء أو تطبيقها، إذا لم يصب ذلك القدر نفسه، من الشمول والتناسق والتكامل، بالنظر إلى ذاته في جزئياته وكلياته من ناحية، وبالنظر إلى الواقع الذي يحيط به أو يطبق فيه من الناحية الأخرى.. وأدى الأخذ به إلى الوصول إلى تناقض، نظري أو عملي، صغير أو كبير، لا يمكن إزالته، كان ذلك مؤشراً على وجود قصور في ذلك المنهج وآلياته في فهم هذه الشريعة العظيمة!..

ولذا فإننا في هذا البحث لا ننظر إلى مضامين الأشياء فحسب، بل ننظر أيضا إلى بنية وهيكلية هذه الأشياء، وهذه المضامين، بما يحافظ على قدر

[٣] رواه الإمام مسلم في صحيحه.



راقٍ من التناسق والتكامل، الداخلي والخارجي، لها، وبما يدفع أي تناقض على كل مستويات الفكر والروح والتطبيق.

وعملنا هذا موجه نحو إدراك نمط متميز ومتقدم من العمل الدعوي، يستلهم فيه التكامل والتناسق اللذان أشرنا إليهما، ليس على مستوى الخطاب الدعوي فقط، بل على مستوى البنية الدعوية الجماعية، الفكرية والتربوية، وعلى مستوى الفرد المنضوي تحت لواء هذه الدعوة، وتكوينه وبنيته العقلية والروحية والحركية، ومن ثم على مستوى التناظر بين المستويات السابقة جميعاً، وأخيرا على مستوى تناظر كل ما سبق، مع واقع الدعوة، ومتغيراته وآفاقه..

وسيكون حجر الأساس في ذلك، هو نمط فريد من الدعاة، حازوا من صفات التكامل والشمول، في شخصياتهم وتكوينهم، ما دفعنا لأن نسمي كل واحد منهم، على سبيل التفاؤل والحض على الخير، بـ(الداعية الدعوة)، حتى لكأن الدعوة يمكن لها أن تبدأ منه، واليه تنتهي. فهو مؤهل للفعل الدعوي الخلاق، عندما يكون وحده في الساحة، مثلما هو كذلك عندما يكون جندياً منتظماً في سلك صف دعوي واسع.

ولنا في ذلك مثل قديم متجدد، وصف فيه الحق تعالى خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم، بقوله: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل:١٢٠)؛ قال صاحب الظلال:



(واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيه من خير وطاعة وبركة، ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به في الخير، وورد في التفسير المأثور هذا وذاك، وهما قريبان..)[٤].

وسنرى أن إيجاد أعداد كافية من نماذج (الداعية الدعوة) هذه، سيمكن الدعوة من العمل وفقاً لأساليب ناجعة وخطط دقيقة لطيفة، غاية في المرونة، وذات أثر عميق؛ بما يمكنها من الاستجابة لأنواع مختلفة من التحديات، والعمل في الظروف الصعبة التي تسببها شدة هجمة الأعداء عليها، ومحاصرتهم لها، بما يقلل التضحيات ويسد الثغرات. ذلك أن الانطلاق في الخطط الدعوية والبناء الدعوي، على مستوى المجموع، لا يمكن له إلا أن يقوم على بناء متكامل رصين على مستوى الفرد-الداعية، وإلا كنا كمن يبني قصراً من الرمال..

وإننا بذلك لا نحاول إلغاء التخصصية في العمل والمعرفة، بل نحن أشد المدافعين عنها. ولكننا نؤكد على أن التخصص يجب أن لا ينسينا ضرورة وجود قدر مشترك بين الأفراد، من التوافق والتناغم في بنية العقل ومضمونيته، وتألق القلب وصفائه، بما يحقق التكاملية والتناسق، على مستوى الفرد، وعلى مستوى ارتباطه بالجماعة.. وإننا في الحقيقة نشير إلى قصور النظرة القائمة على إيجاد التكاملية على المستوى الخارجي فقط، أو

[٤] سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤ / ٢٢٠١

على مستوى مجموعة قيادية معينة فحسب. ونؤكد على أن طبيعة التحديات تدفعنا لأن نسعى إلى إيجاد أكبر قدر ممكن من التكامل والتناسق على كل مستويات الفعل الدعوي، الفردي والجماعي، الداخلي والخارجي.

ورب معترض سيقول بأن تحقيق القدر الذي نطرحه من التكاملية والتناسق على مستوى كافة الدعاة، هو أمر عزيز جداً. ونحن نعترف بصعوبة ذلك، ولكن هدفنا (في الحقيقة) هو أن تتحقق هذه الصفات بمستواها الراقي في نسبة عددية مقبولة من المسلمين الدعاة، وتتحقق بمستويات مختلفة مقبولة في كل أفراد الدعوة الإسلامية، أو معظمهم.

كما يجدر بنا هنا أن نشير إلى أننا لا نسعى وراء ترف فكري، أو حلم في عالم المثال، ولكن الحقيقة التي لا بد لنا من مواجهتها هي: أن الدعوة الإسلامية والدعاة المسلمين في عصرنا الراهن، رغم عظيم ما قدموه من بذل وتضحية، وجميل ما حصدوه من ثمار ونتائج عموما، فان أخطاء منهجية كبيرة وقعت هنا أو هناك، استغلها أعداء الإسلام، إن لم يكونوا استدرجوا بعض المسلمين للوقوع فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، مما قاد إلى أزمات كبرى وفتن، أخرت وصول الدعوة الإسلامية إلى كامل أهدافها.. الأمر الذي استدعى قيام كثير من علماء الدعوة ومفكريها بمراجعة تقويمية شاملة، لتجنب تكرار أخطاء الماضي. وهذا الجهد المتواضع ينصب في ذات المسار، ويقوم على اعتقاد مفاده، أن أهم ما ينبغي مراجعته هو التكوين العقلي

والروحي والسلوكي لشخصية الداعية المسلم. ولهذا كان الداعية هو الهدف، ومنه المنطلق..

وقد نص بعض أهل الدعوة الإسلامية المعاصرة على أن التصرفات الدعوية تتوزع على (سياسات) ثلاث[٥]:

١- السياسة الخارجية المحددة لطبائع علاقات الدعوة (أي بمفهومها الحركي كجماعة منظمة) بالحكومات والأحزاب والجماعات الأخرى.

٢- السياسة الداخلية البانية لشكل التنظيم، المقررة لشروط العضوية والتأمير، وحقوق وواجبات الدعاة.

٣- السياسة التربوية التي تختار طرق تعليم الدعاة وتثقيفهم، وكيفية تهذيبهم أخلاقياً وإكسابهم الصفات الإيمانية.

وبذلك يمكن الاستنتاج بأنه (من المفروض أن تتم توعية الدعاة في هذه السياسات الثلاث كلها، لنحوز نموذج الداعية المؤمن، الفقيه، المربي، المتقن، المنسق، العادل، المحتاط، اليقظ لاستغلال الفرص، المستتر عن رمية الأعداء)[٦].

---

[٥] محمد احمد الراشد ، المسار ، ص ٥

[٦] المصدر السابق نفسه

ونحن في هذا الكتاب نتفق عموما مع هذا الطرح ومع الهدف منه، رغم أننا نراه لم يزل مكبلاً بقيود التصور الحركي التنظيمي الذي استقر عليه واقع الدعوة الإسلامية في أغلب أجزائها خلال القرن الميلادي المنصرم. ونؤكد أيضاً أن الأساس في كل ذلك إنما هو السياسة التربوية، والتي ستكون محور الجهد المنصب هنا. وسيتضح بشكل جلي كيف يؤدي تفعيل هذه السياسة (إن جاز التعبير)، إلى إغناء وتفعيل أنواع الخطط وأساليب التنفيذ للسياستين الداخلية والخارجية للدعوة الإسلامية، حيث أن الإشارات التي سترد، والأمثلة التي ستضرب، لكفيلة، بإذن الله تعالى، لتحفيز ذهن القارئ، لرؤية أفق أوسع في الفعل الدعوي على مستوى التخطيط والتنفيذ..

إن السنن الإلهية التي أجراها الخالق تعالى في هذا الكون البديع، في شتى جوانبه ونواحيه، فأضفت عليه جمالاً خلاباً فيه بهاء وعظمة، لتدفع المتأمل إلى الإذعان لحكمة الباري وعظمته؛ وتنحو بالعاقل للاعتبار بهذا النظام الرائع، والعمل وفقاً لقوانينه، معتمداً على من أوجد هذه النواميس.. غير أن المسلمين، في عصور انحطاطهم، قد أهملوا هذا النظر، وتركوا الأخذ بهذه السنن الكونية، ليركضوا وراء سرابٍ وفهم خاطئ للخوارق، ويعللوا أنفسهم به، فسبقتهم الأمم الأخرى في ميادين شتى.. ورغم أننا سنعرج على جانب من هذا الموضوع لاحقاً، فإننا نشير هنا إلى الميدان الذي نحن بصدده فقط، وهو جانب التخطيط والتنظيم الدعوي الحركي المعاصر، بمختلف صوره وأبعاده..

فلو أنا نظرنا إلى الأساليب التي يعتمدها أعداء الإسلام في التخطيط لعملهم وتنظيمه من ناحية، وفي محاربتهم للأمة الإسلامية من ناحية أخرى متصلة، لوجدنا أن صفات مثل التنوع والحركية والمرونة والقدرة على موائمة المتغيرات المختلفة، هي من أبرز ما يميز تلك الأساليب. وفي ذات الوقت، نجد أن بعض المسلمين، لا زالت صفات الجمود والتقليد وقلة الإبداع، تلف خططهم وبناهم التنظيمية، لان الأصول اختلطت عندهم بالفروع، والثوابت امتزجت لديهم بالمتغيرات.. فمالت عقولهم إلى ما هو أسهل لها وما لا يحتاج إلى التوسع في إعمال العقل وإجهاد النفس وتوسيع الاطلاع وشحذ الذهن.. فاقتصرت على قوالب وقواعد جامدة (مجربة)، لا تبيح لنفسها الخروج عنها، وقصّرت في الأخذ بالسنن الإلهية في مجال التدافع..

وبناءً على ذلك، فقد أفتى رجل جريء من أهل الدعوة الإسلامية المعاصرة بـ(أن التنظيم يجب أن لا تحده حدود دائمة ثابتة أبعد من حدود الشرع، فانه ملك الدعوة في كل أزمانها وفي كل مواطنها، ولا يستساغ أن يقف عند النهاية التي وصل إليها جيل الدعاة الذي أسس ورسم نظرياته بناء على مفاهيمه وتجاربه ومدى فقهه ووعيه ساعة التأسيس، ولا أن يقف عند الحدود التي اقتضتها ظروف بلد معين، بل علينا أن ننظر له على انه (كائن



حي) تتطور خططه وأعرافه وقوانينه، وتتكيف أشكاله وأنواع علاقاته، وفقاً لمصالح الدعوة المتطورة، وفقاً للبيئة التي يعيش فيها)[٧].

ولذا وبعد استقراء التحديات، الحالية والمستقبلية، المحيطة بالأمة الإسلامية، لا مناص من أن نشمر عن ساعد الجد والاجتهاد والإبداع في الفعل والبناء الدعوي، حتى تمتزج حافات العلم بآفاق الفن، فلا نتهيب من (التفنن في شكل البناء الهيكلي للتنظيم، بحيث يتم إنجازه دقيق الأبعاد، متيناً قوياً، قابلاً للإضافة والتطوير، تحكم أصله الرئيس وفروعه التخصصية، وحدة تجانسية وتناسق في المبدأ النظري الذي تقوم عليه، سهل الممرات غير معقد)[٨]؛ بل نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ضمن الفضاء الدعوي الرحب المنضبط بقواعد الشرع، فيكون الاقتباس المبدع من مجالات الحياة أخرى، مثل علوم الإدارة وتنظيم الجيوش والنظريات الهندسية والإدارية وعلوم الحيوان والنبات ..

وان من يراقب أعداء الإسلام في حربهم الشرسة عليه اليوم، تحت شعارات (محاربة الإرهاب وتجفيف منابعه، والضربات الوقائية والإستباقية)، لا بد له أن يكون حذراً ولا يأمن أعداءه، حتى ولو هادنوه أو أعطوه بعض الحرية في العمل في وقت ما ومكان ما.. لأن الأصل فيهم هو استمرار حربهم على

---

[٧] محمد احمد الراشد، المسار، ص ١٥٣

[٨] الراشد ، المسار ، ص ٣٠٨





الإسلام وأهله، كما أخبرنا الحق تعالى بقوله: (يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:٢١٧) .

وقبل سنوات صاح أحدهم منذراً، ولم يكن هو أول من فعل ذلك: (إني ألمح في الأفق بوادر بل نذراً خطيرة. ففي (غرف العمليات) في عواصم الغرب الكبرى، تعد الخطط المدروسة والتي تغذيها جامعات وجماعات ومراكز بحوث أكاديمية علمية، وقد أنفق عليها عشرات بل مئات الملايين بسخاء. تُعد هذه الخطط الاستراتيجية كما يقولون لحرب ضروس أهدافها ضرب هذا العملاق الذي تحرك بعد طول ركود أو حبس، وهو الإسلام الذي ظهر بقوة، وأثر بسرعة في الحياة الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية للمسلمين..

الخطة الآن تهيأ بل هيأت بالفعل لضربه وسحقه، تحت عناوين مضللة أو مصطلحات هلامية غير محددة. وذلك مثل عناوين (الإرهاب) و(التطرف) و(الأصولية)، وليس المقصود هنا هو ضرب التطرف ولا الإرهاب، فهم الذين مهدوا لهما السبل، وهم الذين قاوموا الفكر الإسلامي الذي يؤمن بالحوار والاعتدال، ولم يفسحوا له المجال...





والفلسفة التي تقوم عليها هذه الأدوات أو هذه المؤسسات هو ما أسماه بعضهم بصراحة: سياسة (تجفيف المنابع) يقصدون منابع التدين الإيجابي المتحرك المحرِّك. فكل ما يدعو إلى تعميق الإيمان برسالة الإسلام –بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة– وكل ما يدعو المسلم إلى الاعتزاز به والغيرة عليه، والموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه، وكل ما يدل على أصالة المسلم واستقلال شخصيته، وتميزه فرداً، وتميز أمته بين الأمم، بوصفها (أمة وسطاً)، وكل ما يوحي بأستاذية الأمة وشهادتها على الناس... كل ذلك وأمثاله خطر يجب أن يقاوم، ووباء يجب أن يحاصر)[٩].

ومن المعروف في مجال هندسة السيطرة ونظم المعلومات والإدارة، أن المنظومات التي تقوم هيكليتها على أساس المركزية الشديدة، وبالرغم من سهولة إدارتها النسبية، فإنها تكون قابلة للاختراق أو التوقف عن العمل، بشكل كبير، خصوصا عندما تصاب نقطة المركز فيها أو يحيّد عملها. يضاف إلى ذلك أن هذا الشكل من التنظيم تكون قابليته للتطور والنمو والتأقلم محدودة، بل ومقيدة عند حصول تغيرات كبيرة في الظرف المحيط.

وهذه القضية معروفة أيضا على صعيد الفعل الإجتماعي بل وعلى صعيد العمل الدعوي الإسلامي نفسه، (ومن هنا كان خطأ الحركات الإسلامية،

---

[٩] د. يوسف القرضاوي، الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص١٧٩–١٨٢، باختصار.





التي تربط مصيرها بمصير قائد واحد مهما كان فذاً بارعاً، فانه إن مات أو قتل أو حجب عن العمل لسبب ما، فإن العمل سيضمر ويضعف لا محالة)[10]. وإننا لا نبالغ إذا ما وسعنا هذا وقلنا بذات الخطأ إن هي ربطت نفسها بمجموعة قيادية واحدة في مستوى معين، يمكن إستهدافها -ولو نظرياً- كشخص واحد..

وبالجانب المقابل، فان المنظومات المبنية على الأساس اللامركزي (الموزع أو التوزيعي)، وبالرغم من الصعوبة النسبية لبنائها وإدارتها، فإنها تحقق قدرات عالية على مداومة العمل، حتى في حالة توقف أو تحييد أجزاء منها؛ كما أن لها قابلية عالية على التطور والتوائم مع المتغيرات الخارجية مهما كانت قاسية.. وما بين هذا وذاك، توجد حالات وسطية كثيرة، تمتزج فيها المركزية واللامركزية بنسب مختلفة، فتتحقق مزايا مشتركة من كلا الجانبين. وتبقى القاعدة الأساسية في هذا هي أن القدرة على تحمل الضربات الخارجية، وتقليل أخطار الاختراق عند حدوثه، تزداد في المنظومة كلما ازدادت نسبة اللامركزية في أجزائها.

غير أن زيادة اللامركزية في نظام ما قد تؤدي إلى سرعة تفككه وحدوث الانشقاقات فيه. كما أن عملية إدارة مثل هكذا نظام، والمحافظة على تناسق أجزائه المختلفة لن تكون عملية سهلة.. فكيف يمكن تجاوز ذلك للحصول

---

[10] الراشد ، المسار ، ص ٣٣٣ .



على ميزات اللامركزية في المنظومة الدعوية؟ إن السبيل الوحيد إلى ذلك هو زيادة تأهيل وتفعيل دور أجزاء المنظومة، وهم الدعاة كأفراد أو مجاميع.. ولذلك فإن مصمم منظومات السيطرة أو أنظمة المعلومات الموزعة مثلاً، يقوم بإعطاء الأجزاء الوسطى أو الطرفية في المنظومة قدرات (ذكائية) أعلى، وصلاحيات أكبر في معالجة المعلومات واتخاذ القرارات..

ولو أننا القينا نظرة إلى بعض نظريات الإدارة الحديثة، لوجدنا أن ذلك يتوافق معها؛ حيث أنها تقوم على تحسين الأداء وتقليل الجهد الكلي اللازم لإنجاز المهام، من خلال التأهيل والتدريب الأعلى للعاملين، وإعطاء صلاحيات أكبر للمستويات الأدنى، بما يقلل من انشغال القيادات الأعلى بمهام روتينية تستهلك أكثر وقتها، وتمنعها عن أداء مهام أرقى وأولى.

والأمر لا يختلف لدينا في العمل الدعوي الإسلامي. فإن تحسين الأداء وتقليل أثار الهجمات المحتملة، من خلال تفعيل اللامركزية جزئياً أو كلياً في عمل الدعوة، لا يمكن أن يتم إلا من خلال تأهيل وتفعيل للدعاة يؤهلهم لنيل حرية أكبر وأفق أوسع في العمل الدعوي، وبما يحول دون تكديس اتخاذ القرارات المختلفة الأهمية على بعض القيادات وإشغالها بذلك، وأشغال الآخرين بالانتظار غير المبرر.

إن من نتائج إدخال اللامركزية في العمل الدعوي الإسلامي، تقليل حجم الإتصالات التنظيمية، بين أجزاء العمل المتباعدة، وبين المستويات القيادية

المختلفة؛ لأن الكثير من القرارات يمكن لها أن تتخذ من قبل الدعاة أنفسهم أو من قبل المجاميع الدعوية المحلية ذاتها. وهذا ما يكون له أهمية حاسمة في ظروف المحن خاصة، والتي كثيراً ما يتعرض لها العمل الإسلامي. وكل ذلك لا يتحقق إلا من خلال تطوير المناهج الفكرية والعلمية والثقافية، وأساليب التربية الروحية، لعموم الدعاة من ناحية؛ وتركيز ذلك لأجل أعداد أعمدة دعوية على مستويات مختلفة، عن طريق اختيار نخب من الدعاة المؤهلين، من ناحية أخرى.

إن لمظاهر الجمود الفكري، والضعف العلمي والثقافي، والخواء الروحي، أثرها الهدام حتى في أسلوب العمل التنظيمي المركزي. فإننا قد نرى أحيانا أن الأوامر الشفوية السريعة، عند انتقالها بين مستويات التنظيم الدعوي المختلفة، يرافقها تغيير في محتواها، زيادة أو نقصاناً. وقد لا يأتي هذا التغيير عن قصد أحد، إنما هو لاختلاف مستويات الفهم فيما بينهم. فيكون حالهم أحياناً مثل نموذج تجربة المترجمين حول الطاولة، الذين يجيد كل واحد منهم الترجمة بين لغتين فقط، إجادة تامة؛ فلما أُعطيت جملة بلغة معينة إلى المترجم الأول الذي ترجمها إلى لغة ثانية، ثم إعطاها للمترجم الثاني الذي ترجمها إلى لغة ثالثة، وهكذا دارت الجملة من لغة إلى أخرى بين المترجمين – الذين لا يطلع أحدهم على ما يفعل الآخر –، فلما وصلت إلى المترجم الأخير الذي أعاد ترجمتها إلى اللغة الأصلية التي كتبت بها، كانت الجملة مختلفة تماماً عن أصلها الذي بدأت به. ولا شك أن هذا نموذج متطرف،



ولكنه يشير إلى ما يمكن أن يسببه اختلاف مستويات الفهم، في التنظيمات الدعوية المعاصرة..

وعندما مرت بعض أجزاء العمل الدعوي الحركي المعاصر بظروف جعل منها تتخذ الطابع السري، كان للخلل الموجود في التربية الروحية والفكرية والثقافية، الشمولية المتوازنة، دوراً قاتلاً يزيد فتكاً عن الأعداء.. وهكذا كانت السلبيات التي أصابت بعض تجارب الأجهزة السرية، ما هي إلا نتيجة للقصور الذي حصل في تربية أفرادها، فاختلت مفاهيم، وقست قلوب[١١].

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن التربية الدعوية في صدر الإسلام، على يد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى يد أصحابه رضوان الله عليهم من بعده، قد أثمرت الكثير من النماذج التي يصح أن نسمي كل واحد منها بالعمود الدعوي أو (الداعية الدعوة)؛ والذين كانت لهم القدرة الكبيرة، وبشكل مثير للإعجاب، على نوع صعب جداً من العمل الإسلامي، الدعوي والسياسي والعسكري، اللامركزي، خصوصاً أيام الفتوحات، حيث ظروف الإتصالات الصعبة بالقيادات العليا.. فالعودة إلى ذلك المنهج الأصيل.

---

[١١] انظر على سبيل المثال، الراشد، المسار، ص٢١٢.



الفصل الثاني:

القضية العراقية في زمن (الفوضى الخلّاقة)[١٢]

كثر كلام الغربيين منذ سنوات منتقدين العقل العربي المسلم معتبرين أن إدراكه للكثير مما حوله، وبالتالي تعاطيه مع الآخر يبتنى على أساس فكرة موهومة ساذجة تقوم على سوء الظن التام بالآخر (الغربي) ورفضه، وأسموا ذلك بـ(نظرية المؤامرة)، واتهموه بالتصرف وفقاً لهذه النظرية.. ولا نختلف معهم بأن الرفض الكامل للآخر ولما عنده، والنظر إلى الحياة بتطرف لا يترك في الصورة سوى اللونين الأسود والأبيض، كل هذا هو شيء غير صحيح، كما أنه مخالف لفطرة الله تعالى في هذا الخلق الذي جعل فيه أطيافاً لونية كثيرة، ندرك بعضها ونجهل الأكثر منها.

أن اظهار الصورة التي حباها الخالق بألوان وتدرجات لا تكاد تحصى، على أنها صورة بالأسود والأبيض فقط هو تشويه لحقائق الحياة وقتل لروح الجمال.. ومع ذلك، فإن هذه الصورة المشوهة تخفي الكثير من التفاصيل المحيّرة عن ناظرها، فتعطي بساطتها أنطباعاً بانها الأكثر تعبيراً، وبالتالي يقع

[١٢] مصطلح (الفوضى الخلاقة) شائع الاستخدام في الأدبيات السياسية المعاصرة للدلالة على مرحلة من خطط المكر العالمي التي تدخل الناس والدول في حال من الفوضى والاضطراب تتمكن قوى الشر من خلالها من تحصيل ثمار مكرها بينما الآخرون منشغلون بالفوضى المصطنعة. ورغم تحفظنا على هذا المصطلح فإنا استعملناه لشيوعه ووضوح دلالته.

العقل الساذج في أسرها، والنظر إلى العالم الخلاب من خلالها؛ فيَضِلُ قوم ويُضَل آخرون..

وقد سمعنا من بعض إخواننا الذين عملوا في مجال النشاط الإسلامي في الغرب وعاشوا هناك سنين عديدة انتقاداً لمن عاشوا كل أو جل تلك السنين في العراق بأنهم لا يزالون يفكرون وفقاً لنظرية المؤامرة تلك. وإذا كان المقصود هو انتقاد الرفض التام للآخر (الغربي) وإلغاء تدرجات السلم اللوني برمتها، كما يقع في ذلك بعض من الناس مع الأسف، فهذا الانتقاد له محله، وقد بينا الرأي فيه قبل قليل.. ولكن شيئاً ما بين السطور يقول لي أن المقصود من الانتقاد قد يكون هو نسف التفكير وفق (نظرية المؤامرة) من الأساس، باعتبار أن ذلك هو مرحلة مراهقة مرَّ بها العقل المسلم (والعراقي خصوصاً في ظل الأنظمة السابقة)، وينبغي أن يغادرها إلى ما هو أكثر وعياً ونضجاً.. وكأن هذا هو خلاصة العبقرية التي اكتسبها أولئك بعد سنين طوال عاشوها في المجتمع الغربي.

وأقول لهؤلاء الأخوة أنه ومع اتفاقنا على أن النشاط العقلي ينبغي أن يكون في تقدم أو تطور مستمر، فأن نظرية المؤامرة – أو منطلقاتها الأساسية في أقل تقدير – ينبغي أن لا تغيب لحظة واحدة عن عقولنا. وذلك لسبب بسيط هو ليس أن ذلك التغييب يلغي ألوفاً مؤلفة من الدروس التي يمكن استنباطها من المصائب والمحن التي أوقعنا فيها ذلك (الآخر) في الحاضر





والماضي فحسب، بل أن ذلك يتنافى تماماً مع فهمنا القرآني لهذه الحياة التي هي في جوهرها ابتلاء يقوم على أساس الصراع بين الخير والشر..

وأخبرهم أيضاً – مع كل الاحترام – بأن لا ينقلوا لنا تصوراتهم التي أنبتت في عقولهم أثناء معيشتهم في الغرب إلى واقعنا المغاير من غير تصرف وتعديل في تلك التصورات، لأن هامش الحرية الذي أعطي أو يمكن أن يعطي لهم هناك، لا تقبل تلك الدول ذاتها والتي عاشوا فيها، أن تعطيه أياهم أنفسهم هنا..! أما لماذا هذه الأزدواجية في المعايير، فليسألوا هم تلك الدول التي خدموها وخدموا مجتمعاتها سنين طوال، وليخبروني بالأجابة بعد ذلك..

وهكذا يبدو لي أن خروج المسلم من بلده وعيشه في مجتمعات أكثر رقياً وتقدماً مدنياً، مثلما يكسبه تجارب وسعة أفق مفترضة في النظر إلى الحياة ورؤية تعقيداتها وتدرجاتها اللونية، يمكن في الوقت ذاته ان يفقده فرصاً أخرى لتفتح العقل والقلب يجدها المرابط في بلده، من عزيمة لا تلين، وقدرة على التضحية لا تجارى، وعلو في السند لا يبارى، وسكينة في القلب تخرق بمنظار البصيرة أشد الحجب سماكة..

كان هذا كلامي لبعض إخواننا الذين لا نشك في صدق نياتهم، وليس مع أبناء آوى (أو بناته) الذين جاؤوا على ظهور دبابات المحتل ليبشرونا بجنة الاحتلال التي كانت مفقودة فوجدوها لنا.. فهذا الصنف الأخير لا يمكن للسكينة أن تزور قلبه، ولا لنور البصيرة أن يشرق فيها. وبين الصنفين صنف





آخر وفد إلى بلادنا في الأيام التي أصبح فيها أهلها يهربون منها.. صنف تعرف منه أشياء وتنكر منه أخرى..

فآهٍ عليك يا بلدي، وآهٍ عليك ومنك يا ابن بلدي!.. لم يجتمع من عناصر التميز والتناقض معاً في أحد مثلما أجتمع فيكما أنتما، فأنتما الداء والدواء في آن واحد..

ولا أدري هل هو ميراث حضارة تغوص في عمق الزمن آلافاً من السنين؟

أم هو أكسير الحياة دفن في تراب أرض الرافدين من قدم؟

أم هو تأثير زلال ماء دجلة والفرات؟

أم هو ذلك المناخ المتغير والمتقلب مع إحداثيي الزمان والمكان في العراق؟

أم هو عمل دماء سالت على هذه الأرض وأمتزجت بتربتها حتى استحال تمييز دم الأولياء من دم الأشقياء من أديم الأرض، إن كان للأرض أديم قبل تلك الدماء؟..

أم هل جاء ذلك من آهات ألمٍ ضاقت بها سجون الظالمين على مر العصور فانطلقت في الفضاء منفجرة تعمل عملها في النفوس من طرفٍ خفي؟

أم أن ذلك هو فعل حسرات طفل تكالب عليه الجوع والمرض حتى أفقداه القدرة على البكاء، وتحت قدميه مدفونة كل كنوز الأرض، فغرغرت روحه تعرج إلى بارئها تشكو له ظلم العباد، قريبهم والبعيد.. وأمّهُ المسكينة لم تزل



تظن أنه نائم فهي تترنم له مذ ذاك: (... دِلِلّولْ يالوَلَدْ يا ابني دِلِلّولْ... عَدوَّكْ حَزينْ وساكِن الـچولْ...)[١٣]، وهي وحدها التي ما أتشحت يوماً بغير السواد، وما حوى حزنها يوماً سقف؟!!

لا أدري هل هو كل ذلك؟ أم هو بعض منه؟ أم لا شيء من ذاك على الإطلاق كان السبب وراء جعل شخصية العراقي متميزة بصفات لايدانيه فيها أحد غيره، نخوته، حميته، شجاعته، غيرته، عاطفته، كرمه، شيمته، إغاثته للملهوف، تضحيته لمن يحب، وفاؤه.. كلها علامات مسجلة باسم العراقي، وغيره عليه فيها عالة. وأغرب ما في ذلك أن هذه الصفات العراقية أماً وأباً لا تعترف بالمذاهب ولا بالطوائف ولا بالأعراق، فهي تكاد تسري بذات القدر في دماء كل عراقي سواء كان عربياً أو كردياً أو سُنياً أو شيعياً أو غير ذلك، طالما كان منتسباً لأرض العراق.

غير أن هذه الصفات العراقيات قد يعتريها مثل ما يعتري نور الشمس حين يحجبه جرم القمر الصغير المظلم، الذي ليس له من الانبعاث الداخلي ما يكفي ليمنعه من مجازفات لا طائل من ورائها.. ومهما حاول ذلك الجرم، فإنه لن يحجب نور الشمس إلا لأمد محدود، لا يكاد يتم أمره، حتى يبدأ نقصانه. وهو إن حجب النور عن مكان، بقي ذلك النور ساطعا في أماكن

---

[١٣] ترنيمة للأولاد من التراث الشعبي العراقي.



اخرى.. فما يكون ظلام ذلك الكسوف إلا الشاذ الذي يؤكد اطراد قاعدة النور.

وهكذا كان لظلم السنوات العجاف، ولسفك دماء المستضعفين بسبب ودون سبب، وللعب القرود على حبال الفرقة وإثارة النعرات، وإسناد أسياد تلك القرود ومدربيها لذلك النهج الحقير، كان لكل ذلك أثره الواضح على شخصية العراقي اليوم. ولو كان الذي تعرض له عراقينا مورِسَ على غيره نصفه أو حتى ربعه، لأمسى ذلك الآخر كافراً، بعد أن كان عند الصباح مؤمنا..

فألجأنا الصهيوني الماكر إلى التعامل بتقسيمه المفتعل للساحة العراقية إلى كتل رئيسية ثلاث هي - على حد زعمهم - الشيعة والأكراد والسُنة، رغم غباء هذا التقسيم وخروجه عن كل منطق سوى منطق العجرفة (التلمودو-إنجيلية) المعاصرة.. وهذا ما مكن الأدعياء من الإنطلاق إلى كذبة غبية وخبيثة أخرى هي الحديث عن أغلبيات وأقليات في العراق ما أنزل الله بها من سلطان، لينساق على ذلك أصحاب الأهواء، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، لاهثين إلى غايتهم المنشودة ومكانهم الملائم، الذي لا يتشرف به أحد سواهم.

وبالتأكيد فإن الذي أطلق هذا التقسيم وجعل منه الأساس لترتيب أوراق (الفوضى الخلّاقة) في العراق (الجديد) لا يخفى عليه خطأ المنطلق منه ولا



حماقة النتيجة.. فلا التقسيم يقوم على أسس قومية عرقية، ولا هو تقسيم مذهبي ديني.. وهكذا فان خلط الأوراق في التقسيم التلمودو-إنجيلي المعاصر واضح عواره، وكان لابد من رؤوس تستشرف الفتنة تقوم له، ولا بد من خراف طال زمان علفها لتنحر تأجيجاً للجاهلية النائمة..

ولا بد لي أن أشير هنا إلى سلبية طالما أرقتني وهي شبه استسلام العاملين في الواجهات الإسلامية المختلفة في داخل العراق وخارجه لفرية الأغلبيات والأقليات تلك، والتي أرهق الأمريكان واليهود أنفسهم في الترويج لها، وهي مغالطة بينة لكل أصول المنطق وقواعد التأريخ والجغرافية ومبادئ الإحصاء وعلم الاجتماع.. إلى أن جاء اللطف الرباني، من حيث لم يحتسب الذين أرادوا الانتخابات في العراق عام ٢٠٠٥م، ولا الذين قاطعوها أو حاربوها، لتثبت الحقيقة كنور الشمس، ويرغَمُ أنف كل معاند فارغ أهوج، من خلال نتائج تلك الانتخابات وملابساتها.

وعلى الرغم من أن الكذوب قد قطع شوطاً لا بأس به في فريته تلك، فلم يزل ذلك الأرعن البعيد تضيق به الدنيا كلما حان موعد لإختبار كذبه، حتى وإن كان الإختبار مقنناً ومحسوباً بدقة مسبقاً.. فهو كالمجرم القاتل الذي يعود دوماً إلى مكان جريمته، بسبب الوساوس التي تتملك عقله بوجود أدلة خلّفها ورائه في مسرح الجريمة يمكن لها أن تفضحه!..



إن الوقوف الصارم بوجه المرجفين والمضللين له فائدة عظمى تعود على كل مكونات الشعب العراقي، وليس واحد منها فقط. فقد مضى الزمان الذي عاشت بسببه بعض الزعامات القومية أبهى أيامها تلوك كلام النضال القومي على موسيقى الدم المسال.. أما الزعامات الطائفية فقد أستهلكت خلال بضع سنوات فقط ما كان ينبغي أن تدخره لنفسها عقودا من الزمن، من خلال تقافزها المتسارع لقرع كل أجراس الخطر الحقيقي أو المفتعل، في لحظة (دراماتيكية) خرجت فيه هذه الزعامات عن مألوفها الذي طوقت به أعناق البسطاء والسذج من الناس بدعاويها، كذلك الذي يغير مألوف عاداته قبيل هلاكه.. وإن ذلك لهو محض الفضل الرباني في كشف أصحاب الدعاوى المزيفة، وفضحهم على رؤوس الأشهاد، رحمة بمن غُرّر بهم من عوام الناس، لتقوم حجة الله البالغة على الجميع.

وإن الناظر في الأفق، رغم السحاب والظلام، يرى بكل وضوح بريق لمعان معدن الذهب العراقي الخالص، الذي لم يستطيع كل تراب الأرض أن يغطيه، وإن ذلك اللمعان لينادي بالسابقين المفرّدين الذي وضعوا رؤوسهم على راحات أيديهم ليفوزوا باستخراجه، ضاربين عرض الحائط بكل عوارض الدنيا ابتغاء مرضات ربهم والفوز بنعيم الآخرة.

إن هذا لهو الدور الذي ترتجيه كل مكونات الشعب العراقي من المسلم الصادق، بعد أن كاد حبل كذب أهل الأهواء، الذين اغتنموا غفلة من الزمان، ليمسكوا بزمام قيادة أمم من الناس، أن ينقطع وتتقطع معه أوردة



وأوداج.. ويخطيء من يظن أن بأمكان حزب ما لوحده، أو جماعة ما لوحدها، أن تقوم بمثل هذا الدور التأريخي العظيم، بل لا بد من خطة شاملة بعيدة المدى، وهمم عوالٍ، وتضحيات جسام دون ذلك.

فيا قلبي على عاملين أهل فراسة وبصيرة، ما أشد تعبهم، وما أكثر الثغور، وما أخفاهم عن أعين الناس.. فلقد ورثوا واقعاً عراقياً صعباً اليوم، ليس على مستوى مجموع مكونات الشعب العراقي، بل على مستوى المكون الواحد نفسه أيضاً. فالناظر إلى حال أهل السُنة العرب في العراق اليوم، يجد أنه قد أصابهم مثل ما أصاب أخوانهم من المكونات الأخرى، بل لعله في بعض الجوانب أشد بكثير.

فلقد اعتاد من يحكم العراق على توجيه بطشه لكل من عاداه. وكانت كلاب الظالمين دوما تنهش لحم كل من تظن أنه يهدد أسيادها، دون أن تفرق بين هذا المذهب أو ذاك، وبين هذه القومية أو تلك. ولولا فضل من الله تعالى جعل عموم الجماعات الإسلامية السُنية في أغلب الأوقات تسلك مسلكاً هو أبعد ما يمكن عن استفزاز الظالمين، لكان من الصعب تجنب سفك دماءِ عظيمة ولكن الله تعالى سلمّ.

ولكن الجانب الأكثر دماراً في العقود التي سبقت الاحتلال الأمريكي له بالنسبة لأهل السُنة أصاب الفكر والعقول بمقدار أعظم مما أصيبت به الأبدان. ففي الوقت الذي أستمرت فيه طوائف أخرى بالحفاظ ولو بقدر

معقول على استقلالية مرجعياتها الدينية والفكرية عن نظام الحكم القائم، فقد أُغلِقَت أغلب المدارس الدينية السُنيةً، وتم تقييد نشاط العلماء والمشايخ وما تبقى من تلك المدارس بالترهيب تارة، وبالترغيب تارة أخرى، وتمت محاولة شعواء لخنق الفكر الإسلامي الأصيل والتضييق عليه. وحتى لما حاولت الدولة في حينها التماشي مع موجة الصحوة الإسلامية لتحقيق توازنات معينة، كان أشباه العلماء يشوهون أجمل ما في صورة الإسلام، في المدارس الدينية القليلة التي أعيد نشاطها، فضلاً عن الدراسات الإسلامية الجامعية الأولية والعليا التي أصبحت في جزء خطير منها مسرحاً لتدخلات الدولة وسياساتها..

وهكذا تَخَرّجَ لدينا أناس كثيرون يحملون شهادات الماجستير والدكتوراه في العلوم الإسلامية، وبعضهم من أشد الناس جهلاً بحقائق الإسلام الكبرى وكلياته ومقاصده، والجمال الرباني الراقي والمحكم الذي يسري في شرايينه. بل إني أجد في نفسي الجرأة لأزعم أن بعضاً ممن دخلوا إلى الدراسات الشرعية على مستوى البكالوريوس أو ما فوقها، بعد أن قضوا شطراً من أعمارهم في العمل الإسلامي الدعوي، خرجوا من هذه الدراسات وهم أقل فهماً لواجبهم الدعوي الشرعي، ولكيفية القيام به، ولكليات وأساسيات الصراع الدنيوي الدائم بين الخير والشر، مما كان حالهم عليه قبلها.. وما ذاك إلا دليل على التشويه المقصود الذي حصل للدراسات الإسلامية الشرعية (على مذهب أهل السنة والجماعة) الذي كان يهدف إلى تحييد علو الإسلام

وحرفه عن مسار وسطيته الربانية، ليكون ذا نكهة تناسب توجهات الحاكم وسياسات الدولة..

وبسبب التضييق على الدراسة على أيدي المشايخ، وربط ذلك بتوجهات أولئك المشايخ؛ فإن معظم الذين قرأوا على المشايخ - رغم قلتهم - تخرجوا وهم أما يحملون فهماً قاصراً مجتزأ للإسلام نتيجة تأثير الظرف المحيط، أو إنهم ما أن نالوا الإجازة العلمية الشرعية في فن ما أو مجموعة من الفنون، إلا وظنوا أنهم قد بلغوا أقاصي أعماق بحر العلم، وهم لما يزالوا قرب شاطئه، فتقاعسوا عن الزيادة، فتولد منهم مشاريع علماء (مع وقف التنفيذ) ليس إلا.. وهكذا لما وقع الخطب الجسيم وفوجئنا بدبابات المحتل تجوب شوارعنا عام ٢٠٠٣ م، بان عوار كل أعور، وعرج كل أعرج، ونشاز كل ذي نشاز..

وصدّق المتعالم نفسه الأمارة، لما نظر في المرآة فرأى وجهه وقد نمت فيه لحية، ورأى رأسه وإذا قد جلست فوقه عمامة، وسمع ممن حوله نداءً: ياشيخ!..، فأنطلق يفتي في مصير الأمة بأسرها ولأجيال عدة قادمة، وغاية عبقريته بعض مختصرات حفظها سابقا وكاد أن ينسى معظمها، لا تمكنه من الاجتهاد في قضية حيض أو نفاس إذا ما أستجدت صورة منها له.. فأنى له الكلام في عظائم أمور لم تعرف الأمة لها في سابق تأريخها مثيلاً؟.. لكنه أفتى بغير علم فضلَّ وأضل خلقاً كثيراً معه. وكأن حديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم في انتزاع العلم بقبض العلماء وتصدر الجهال يتحقق أمام أعيننا جهاراً نهاراً[١٤].

وصاح ذاك الآخر الذي استوحش جهله لما نظر في داخل نفسه وأكتشف حقيقة أنه كالشجرة العالية المنخور داخلها، وقد أنسته سنوات اللهاث وراء المال خارج العراق، صاح مكابراً رافضاً الأعتراف بحقيقة ذاته، بأنه وحده العالِم، ووحده الشيخ الفاضل، ووحده ابن الأكابر، وهو وحده سليل المجد، ووحده أحق أن يتّبَع، دون أن يذكّره أحد بأنه قد سبق له أن باع ما عنده بدولارات معدودة، في وقت كان شباب بلده يتحسرون على ذلك ليتخذوا منه معيناً يقربهم إلى الله تعالى، وليجعلوا من أنفسهم مشاريع بذل في صرح البناء الحضاري للإسلام.. ولكن واحسرتاه عليك يا شيخ – اقصد يا من ربما كنت شيخاً في يومٍ من الأيام – فإن عقد البيع الذي أبرمته أنت بنفسك وبملء أرادتك قد نفذ، وربك الأكرم قد فتح على من يشاء من شباب هذه الأمة من حيث لم يحتسب..

وتطرف ثالث كان بالأمس مفرطاً في تقبيل أيدي الظالمين، ملتمساً كل الترخصات وجميع التأويلات ومختلف الأعذار، ما شرع منها وما لم يشرع، ليبرر مسلكه المهين، ضارباً عرض الحائط بما ينبغي من عزة المسلم وفضل

---

[١٤] روى الإمام البخاري في صحيحه أنَّ رسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).



أهل العلم وما علمه يقيناً من سمت السلف الصالح، فباع هذا بضاعته بخسارة أكبر من بيع الذي سبقه.. ثم جاءنا اليوم مدعياً كل إباء وشمم الأولين والآخرين، ولما يعلم أن الله تعالى قد كشف لنا بيعه وشراءه، ورخص مسلكه، وهوان أمره، وعظيم فتنته..

فبأبي هو وأمي ذاك الذي يضع النقاط فوق الحروف، ويُجلس كل قفا في مقعده الذي يستحق، ويترك المجاملات الفارغات التي كادت أن تهلك البلاد والعباد.. ومن كان خُلُقه خُلق العبد الآبق المتمرد الذي لا يرى لأهل الفضل فضلاً، لا ينفع التعامل معه بغير عصى العبيد..

وكان لمن مردوا على النفاق من بعض أتباع الأحزاب العلمانية المختلفة دور غير مشرف في الإرجاف والتخذيل عن الحق، مما زاد في الطين بلة. وهنا أمر مهم يجب توضيحه، وهو كيف نفرق بين هذا الذي مرد على النفاق من بعض اتباع الأحزاب، وبين غيرهم ممن انضووا في تيارات حزبية مع أن لهم من الوطنية والشرف قدر عال وإن أختلفنا معهم في أمور من قضايا الفكر والتطبيق؟ ومن ثم كيف يكون أسلوب التعامل الأمثل مع الكل؟ وما الذي يفرق بين الصنفين وما الذي يجمعهما؟..

وقد أسعفتني الذاكرة بحوار جرى بين أحد الفضلاء وبيني حول هذا الأمر قبل حوالي عقدين من الزمن، وكان هذا الفاضل ممن لهم معرفة بخبر النفوس والمجتمعات، فقال لي: ما رأيك بفلان وفلان وفلان؟ وعدَّ نفراً من أتباع



الأحزاب العلمانية أعرفهم.. فقلت له: هم من ذوي الخلق الحسن ومن الخيرين. فقال: نعم ففلان الأول أبوه كذا وجده كذا، والثاني ينحدر من عائلة كان لها كذا موقف مشرف في يومٍ ما، وفلان الآخر من بيت عُرِف بكذا من المناقب، وعدد كثيراً مما عرف أو خفي من طيب منبت هؤلاء الذين سألني عنهم أول مرة.. ثم سألني عن مجموعة من الأسماء الأخرى من أتباع تلك الأحزاب ممن نعرف، فأجبت بأنهم ممن لا يحب المرء لقائهم ولا الاختلاط بهم. فقال لي: أصبت ثم عدد من مثالب هؤلاء وخبث منبتهم وسوء ما عرف عن عوائلهم وبيوتهم، مما عرفه الناس يقيناً عنهم. ثم أخبرني بالميزان الذي هو أشبه بالفصل في هذا الأمر، وهو أن من عرف بالشرف وحسن الخلق وطيب المنبت واحترام الذات من الناس إذا ما انتمى إلى حزب ما فهو يضيف إلى ذاك الحزب بقدر أكبر بكثير مما يمكن أن يضيفه الحزب إليه وإن علت منزلته فيه، لذلك فهو لا يتطرف في كل الأحوال ويبقى طيب منبته يحكم تصرفه في أغلب أحواله، حتى وإن اختلف معك. وأما من أمتلأت نفسه بعقد النقص الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي، فهو يعرف أنه لا يضيف شيئاً إلى أي حزب إلا بسوء طويته وفجاجة تصرفه، فتراه مستعداً لأن يضحي بأقرب المقربين إليه طمعاً في أن يتسلق المناصب إلى الأعلى..

وقد سمعت هذا الكلام القيم في بداية شبابي فكان درساً مهماً عرفته بالمشاورة ساهم كثيراً في النأي بي عن عالم المثاليات (الإيمانية) والعموميات



(الإسلامية) الذي كنت آنذاك أعيش فيه. وبالتأكيد فإن هذا الميزان لا يمكن أن يكون دقيقاً تماماً، ولكنه يصدق في الأعم الأغلب، بحسب استقرائي للمجتمع الذي حولي. ونحن اليوم بحاجة لأن نميز بين الصنفين من الناس، وأن نمد جسور الثقة والاحترام مع أهل المروءة والإخلاص منهم، وأن نعمل معاً لأنقاذ الأمة والبلاد من هذه الأزمة، كما يبغي بنا – بعد أن تزول حواجز القلوب – أن نصارحهم القول بأننا أمة رضي لنا ربنا جل شأنه دين الإسلام دينا ومنهجا، فليس من الحياء مع الله تعالى ولا من العقل أن نبحث لنا عن منهج آخر.

وأما الصنف الآخر المنافق فقد تقاسم أفراده الإرجاف بالإشاعات والسمسرة باسم المقاومة المسلحة لاستغلال بعض السذج لخلق نموذج (جهادي) مشوَّه ومُشوِّه في الوقت ذاته، مما وَلّدَ جواً إرهابياً مسلطاً على أهل السُنة بالدرجة الأساس. وقد ساعد في ذلك الصدمة الرهيبة للاحتلال الأمريكي التي لم يستطع الكثيرون الاستفاقة من هولها. وكان الهدف من هذا الجو المفتعل هو أن لايفيق أهل السُنة من صدمتهم، وأن يبقوا مندفعين وراء تنطع حسبوه شرعاً، وعمل مخلط ظنوه جهاداً، وبالتالي اعاقة مشروع الإنقاذ الحضاري الإسلامي، ومحاولة ضرب الجهاد الرباني الإسلامي بمقتل من خلال الاستخدام المشوه لمفردات الجهاد نفسها بوضعها خارج إطارها الشرعي السليم.. وهذا الصنف الأخير هو ممن فسدت طويته ودخيلته،



حتى أصبح التعاون معه ضرباً من السذاجة والغباء، وأمره موكول إلى الله تعالى.

ورغم ما يواجهه العاملون أهل الغيرة والبصيرة من غيرهم، فإن الرحمات الربانية تطوي لهم الأزمنة وتقرِّب لهم المسافات بفيض نور عقيدة التوحيد التي آمنوا بها. فهم ينطلقون من قاعدة رصينة محكمة لا تقبل الشك مفادها أنه مهما تعددت صور المعركة فأصلها واحد هو صراع الخير والشر، وهم أهل الخير وسادته، وغيرهم الغوي في خندق الشر، علِم المسكين أم لم يعلم. وبناءً عليه فإن منطلق التخطيط عندهم ومرتكزه الأساس ينبغي أن يكون هو **وحدة المعركة ضد الباطل** مهما تعددت صوره. فهم الذين عرفوا الحق فأحبوه، (فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ) (يونس: ٣٢)، وبذلك تبرز واحدة من كبريات نقاط ضعف الباطل مفادها أنه مهما حاول هذا الباطل من أن يغير شكله القبيح ويتستر بشتى الأقنعة فهو يبقى بالضرورة أغبى من أن يخدع العاملين المخلصين من ذوي البصائر.

كما تبرز هنا أيضاً نتيجة مهمة تبنى على قاعدة (وحدة المعركة ضد الباطل) قد تكون أصبحت خافية عن البعض بسبب المهاترات والضجيج المفتعل، تلكم هي أن أولئك العاملين المخلصين هم في جهاد وفي رباط مذ سلكوا الدرب، وليس هناك من هو أحق منهم بوصف النبي صلى الله عليه وسلم لذلك المجاهد الممتطي عنان فرسه يسابق الريح حيث نادى منادي

الجهاد[15].. فهم في جهاد في كل مواجهة لهم مع أهل الباطل أو أذنابهم أو من خُدع بهم، وأني لأظن أن الله تعالى مبلغهم منازل الشهداء كيفما كانت الميتة التي أختارها هو لهم، وما ذلك على الله بعزيز..

---

[15] روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير).



الفصل الثالث:

أبجديات الفهم في القضية العراقية

إن من طبيعة الإنسان عندما يزيد أهتمامه بتفاصيل الأمور وينغمس فيها أن يغيب عن ذهنه بعض الأساسيات، بل أحياناً تتشوه في ذهنه الصورة الكلية المجسمة للأمر بسبب انشغاله بتفاصيل النظر من إحدى الزوايا الضيقة إليه.. وهذا النوع من الظواهر هو واحد من أهم ما يرتكز عليه تضليل اعداءِ الاسلام في حربهم ضده. ولقد أثبت معظم المسلمين – وخصوصاً العرب منهم – على مدى قرن من الزمن، وبجدارة عالية قل نظيرها، أنهم أول وأفضل من ينطلي عليه هذا النوع من الخداع.. بل أن العقول تبلغ درجة من التخبط تنتقل فيها بسرعة بين أكثر الأطراف تناقضاً دون أن تمر بالحالة الوسط في حالة تأرجحية اعتاد العقل العربي المسلم في العقود الأخير عليها. وما ذاك إلا لفقدان الثوابت الواعية التي تحكم سلوك ذلك العقل المسكين..

وأنا أظن أن هناك منطلقات بديهية خمسة لازمة لبناء هذا الرأي العراقي، وهذه البديهيات هي:

١. لقد بلغ التفوق والمكر لدى قوى الشر العالمية خلال القرن الميلادي الماضي ذروته، وقد سبق ذلك نشاطا استخبارياً واختراقاً





خطيراً للبنى الإجتماعية والسياسية والنخبوية للدول العربية ودول (العالم الثالث) عموماً. وهو الأمر الذي مكن تلك القوى العالمية بالتالي من إحداث تفوق (إستراتيجي) كبير على مستوى التخطيط والتنفيذ، حتى أصبح كثير من الأطراف الفاعلة في تلك الدول ما هي إلا أحجار شطرنج تتحرك عن قرب أو بعد. وبذلك ومن الناحية النظرية في الأقل يمكننا أن نزعم أن كل تنظيم سياسي أو اجتماعي أو عسكري أو غيره في بلادنا هو قابل للاختراق بشكل أو بآخر من قبل الأجهزة المخابراتية الدولية، وبالتالي فهو قابل للانحراف عن مساره نتيجة لهذا الاختراق. والتنظيمات الإسلامية المختلفة غير مستثناة من هذه القاعدة.

٢. إن جل من حكم العراق وكذا عموم دول المنطقة وغيرها مما تسمى ببلدان (العالم الثالث) خلال المائة سنة الأخيرة (وخصوصا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية) هم أشخاص قد تم صناعتهم بالكامل أو تم تدجينهم بالآجل من قبل جهات وقوى عالمية متنفذة. وهم جميعا يستوون في أصل هذه المسألة، وإن اختلفوا في الدرجة والتفاصيل، وبغض النظر عن الشعار الذي كان يرفعه أي منهم سواء كان قوميا أو وطنيا أو دينيا أو اشتراكيا أو غير ذلك.





٣. يقوم الجزء الأهم من الحرب على الإسلام اليوم على إحياء التيارات الباطنية والفكرية المنحرفة أو المغالية وتقويتها. وبذلك حلت هذه التيارات المنحرفة محل الأفكار اللادينية التي تم استخدامها لذات الغرض قبل بضعة عقود من الزمن. والهدف النهائي من كل هذا هو ارباك القلب والعقل المسلم لتتعثر خطاه في دائرة الإيمان، ويُحرم السير في دائرة الإحسان، ولا يبقى له من الإسلام إلا الصورة.

٤. رغم اجماعهم على حرب الإسلام، فهناك حرب خفية مستمرة وصراع دائم، وتغير في المواقع داخل مؤسسات الشر العالمية التي تتولى صنع أذنابها من العملاء وتوجيههم لما فيه مصلحة أهدافها الشريرة. وهذا له انعكاساته الكبيرة التي قد تبلغ درجة المأساوية في بلداننا.

٥. والحقيقة العظمى التي ينبغي لها أن لا تغيب لحظة عنا هي أن الله تعالى من ورائهم محيط، وأنه لا يحدث في ملكه شيء إلا بإرادته جل شأنه، غير أنه ابتلانا بهذا (...وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد:٢٥)، وله في كل شيء حكمة بالغة علمها من علم وجهلها من جهل.



وحسب تقديري لا أظن أن بأستطاعة شخص ما، مهما كان، أن يفهم ما يدور في الساحة العراقية، وبالتالي في العالم كله، إذا لم ينطلق من هذه البديهيات. وهذا ما كفاني عناء جهد الخوض في محاولة إثبات أنها تصلح لأن تكون بديهيات، ذلك أن أي تحليل للقضية العراقية لا يقوم على أساسها ينتهي حتماً إلى نتائج متناقضة مع بعضها من ناحية، ومع الواقع العراقي من ناحية اخرى.

وسينتفض أقوام ليشككوا ببعض هذه البديهيات. وأنا أقدّر لهم ما يسببه مثل هذا الكلام الدقيق الصريح من أزمات عقلية ونفسية تضعهم أمام مرآة نفوسهم ليشاهدوا فيها سذاجة أناس قضوا شطر أعمارهم أو يزيد يحاولون أقناع أنفسهم بسراب موهوم، هذا إن لم يقضوها في الجري وراء ذلك السراب.

وقولنا في البديهية الأولى بإمكانية خرق التنظيمات المختلفة في بلادنا من قبل الأجهزة المخابراتية العالمية لا يعني بحال اتهامنا لتنظيم بعينه أنه مخترق، ولكن خلاصة الأمر هو أننا لا يمكننا الجزم لأي تنظيم بعدم كونه مختَرقا أصلاً أو بعدم إمكانية اختراقه مستقبلاً. وهذه مسألة غاية في الخطورة عندما تتعلق بالتنظيمات أو الهيئات الإسلامية كون الشأن فيها لا يتعلق بقضية دنيوية فحسب، ولكنه يتعلق بأمر الدين الذي ينبني عليه أمر الآخرة. ولأن الإنسان يعيش دنياه مرة واحدة، فستكون مجازفة عظمى أن يعمل المرء متبعاً توجيه هيئة ما أو جماعة ما محسناً ظنه بها ومتقرباً إلى الله تعالى بعمله، في



حين تكون حقيقة عمله خارجة عن الشرع أو مناقضة له، لأن قيادة الهيئة أو الجماعة (الإسلامية) التي يتبعها مخترقَة بمنافق عميل أو مستدرجَة بمحب للصدارة متسلق على الأكتاف.

بل ويمكن أن يكون الأمر أشد سوءاً عندما تستقريء قوى الشر العالمية ميول ورغبات الشباب العربي المسلم، وتمرده على كل ما يحيط به من تنظيمات وواجهات، فتوعز لمخابراتها لتحريك بعض عملائها المعدّين سلفاً لغرض استغلال بعض السذج في إنشاء وتأسيس حزب أو هيئة أو جماعة لاستقطاب أولئك الشباب تحت شعارات براقة.. فيبذل أولئك الشباب المغرر بهم عرقهم ودمائهم فيما يحسبونه نصرة للدين، بينما تكون حقيقة عملهم موجهة لضرب الإسلام بأيدي أبنائه.. وإن الكلام في مثل هذه الأمور يمكن له أن يطول كثيرا، لكن الحر تكفيه الإشارة.

ورب محب لزعيم من الزعماء يعميه حبه عن رؤية صدق البديهية الثانية مثلاً فتمنعه العاطفة من قبول منطق أن زعيمه المعشوق قد تم أنتقاؤه وأختباره وصناعته، طبقاً عن طبق، وتوجيههُ بالأيماء، وإدارته بالأوامر، وتثبيته في منصبه إلى حين.. تَمَّ كل ذلك برعاية مؤسسات أهل الباطل الكافرة المتخصصة في تصنيع النمور الورقية واجلاسها على عروشها الكارتونية، على رقاب ودماء السذج من أبناء الشعوب العربية والإسلامية. فسنقول لمثله: لو أتهمنا أحداً غيره من الزعماء العرب بما وصفنا به بطلك المزعوم لما اعترضتَ على ذلك بتاتاً، بل لأضفتَ فوق قولنا أقوالاً.. لنكمل بعدها قولنا له: يا





مسكين، إنهم خريجو مجموعة المدارس النموذجية ذاتها، وهم جميعاً أبطال مسرحية (الغارة على العالم الإسلامي)، لكن لكل منهم دوره المعلوم. فمنهم من يظهر بدور الراعي، والآخر بدور الذئب، وغيرهما بدور الكبش، وهكذا دواليك، وإن كان بعض الشر أهون من بعض..

وأي عاقل يمكن له أن يظن أن المحتل الكافر يترك بلاد العرب بعد أن استحوذ عليها بعد الحرب العالمية الأولى، لا لشيء سوى إكراماً لسواد عيون العرب، ليديروا أمورهم بأنفسهم، دون أن يقيم محله من عبيده من يقوم بالمهمة نيابة عن أسياده؟.. وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فما بالك بالعراق، وخيرات العراق، ونفط العراق، وأهل العراق، وتأريخ العراق، وجغرافية العراق؟.. أَوَ يترك الكافر كنزاً كهذا خوفاً من بضعة ضباط قاموا بإنقلاب وأعلنوا ثورةً ومعهما ثلة من الجنود؟!..

حقاً لقد جرت في بلادنا مسرحيات هزلية-دموية قَلَّ نظيرها.. ومع ذلك فإن معظم الجمهور الساذج لم يدرك لحد الآن أنه يجلس على مقاعد صالة المسرح يصفق، هذا إن لم يكن هو معتلياً خشبته.. وللأسف فإن هذه المسرحيات حققت أكبر قدر من الأرباح في تأريخ شباك بيع التذاكر، ويكفي أن نورد منها أنها وضعت خنجراً في ظهر الصحوة الإسلامية الراشدة وضربت الشعور القومي العربي الأصيل المحارب للصهيونية والرافض لظلم المحتل.





ولعله يجدر بي أن أصرح بقضية مخجلة نوعاً ما ومؤلمة في الوقت ذاته. تلكم هي أنه ربما يكون من حسن حظ البشرية – في بعض الجوانب على الأقل – أن الذين قادوها في العقود الخيرة هم الغربيون، وليس نحن، لأننا لو قدناها لقضينا عليها أو لأخرنا مسيرة تقدمها عشرات من السنين في الأقل!..

أليس هذا مضحكاً؟ بل أليس هو مبكياً؟

فنحن إذا كنا غير مؤهلين لقيادة أنفسنا، كيف لنا أن نقود غيرنا؟ فإذا كان أحدنا لا يرى أبعد مما بين قدميه، فإن الذين صنعوا الحضارة الغربية ما بنوا حضارتهم إلا بالتخطيط والتنفيذ العلمي المدروس. لذا كان لابد لأمثال هؤلاء الدهاة أن يأخذوا بجدية كاملة مسألة المنازع الحضاري الآني والمستقبلي. وليس هناك منازع كهذا لهم في المستقبل المنظور أخطر من الإسلام (وليس المسلمين من أمثالنا)..

وأكاد أسمع أخاً لي يقول معترضاً أن ما بناه الغربيون هو مجرد مَدَنيّة (؟!) وليس حضارة. وأنا أقول له: سمها ما شئت، وإذا كنتَ تسميها مَدَنيّة أنتقاصاً فاصنع لي أنت وقومك مَدَنيّة قدر معشارها دون الاعتماد على الغربيين، ثم أعترض..

وأكاد أرى عشرات المراكز البحثية الكبرى، وما يزيد عنها من الجامعات، وألوفاً من الباحثين يشمرون عن سواعد الجد ليقرأوا كل صغيرة وكبيرة عن



هذا الإسلام، ليأتي دهاقنة القوم، ليمتصوا خلاصة رحيق تلك الجهود الجبارة، لتثمر خططاً إستراتيجية لمحاربة هذا (العدو الموعود) بل للقضاء عليه قبل ظهوره.. فمن قراءة بسيطة لتأريخ الإسلام، يكتشف القاريء مدى التأثير السلبي للفتن الداخلية في الصف الإسلامي على أنتشار الإسلام العالمي وعلى نهضته.. ومن قراءة أخرى - ربما ليست بسهولة القراءة الأولى - يكتشف وجود بقايا فرق ضالة، وآثار فتنة نائمة..

ومن قراءة أخرى أعمق، يصل ذاك البعيد إلى أن إحياء ما أندثر من الفرق المنحرفة، وتقوية ما تبقى من أُخرَ ضالة، هما السبيل الأنجع لضرب الإسلام من الداخل.. وبالقراءة الجهنمية الأخيرة، يرشح ذلك الماردُ فرقةً أو فرقتين منها للعب الدور الأكبر في طعن الإسلام في ظهره.. وهذه ما قررته البديهية الثالثة. ولتنفيذ ذلك كان لا بد من أن تضطر قوى الشر العالمية أحيانا لتقديم بعض أشد عملائها إخلاصاً قرابين على مذبح مشروع الدجل الأكبر..

وتدرج بسيط هاديء في سلسلة تفكير منطقي كهذه، تكفي كل منا لأن يشطب بالقلم العريض على واجهات ورقية فارغة، بعضها مستدرج ساذج، وبعضها الآخر بلغ في الأنحراف مبلغاً حتى صار مجرد أتهامه بعمالة لعدو أمراً غير كاف بحقه، فهو يقدم خدمات مجانية لذلك العدو تفوق خدمات ألف من العملاء المدربين..



وأما بديهيتنا الرابعة، فهي ضرورية لمعالجة حالة مرضية شائعة في بلداننا منذ زمن، وأغفل علاجها الأطباء كثيراً، لذلك قمت بوصفها وتشخيصها، وقد أسميت هذه الحالة المرضية بحالة (العقل البسيط). وحالة العقل البسيط هذه هي أن يفهم شخص (أو مجموعة) ما قضيةً واقعيةً معينة من خلال نموذج مبسط ساذج، بطريقة تجعلهم لا يفكرون بتلك القضية إلا من خلال ذلك النموذج المشوَّه، الذي يرسخ في أذهانهم مع مرور الوقت؛ حتى إذا سُئلوا عن توصيف لتلك القضية أو عن مدى أنطباقها على جانب معين من جوانب الحياة، قارنوا ذلك بالنموذج المفترض في أذهانهم، دون أن ينتبهوا إلى قصوره، ثم ليخرجوا بعد ذلك بنتائج لا يضاهيها في عقبريتها شيء، ثم يقضون ما تبقى من أعمارهم يدافعون عنها..!

وليس هذا هو أسوأ ما في الأمر، بل إن الأسوأ هو أن القناعات التي تتولد عبر عملية التفكير الساذج تلك، وما ينتج عنها من سلوك، تكون من الكارثية أحياناً بدرجة أنه لا يستطيع أعظم عقول الباطل أن يضع مخططاً يمكن أن يقود إلى مثل تلك النتائج.. ومن هنا نعرف جانب الصدق (المجازي ربما) في مقولة القائل: (إننا لسنا بحاجة لأن نجعل أعداءنا يخططون للإيقاع بنا، لإننا نقوم بذلك من تلقاء أنفسنا تطوعاً!).. نعم لماذا نتعبهم؟!..

ومن أنماط سلوكيات العقل البسيط، على سبيل المثال، هو إننا عندما نتحدث عن شخص ما على أنه (عميل) لقوى الباطل أو أنه (موظف)





لديها، يفترض هذا العقل - من تلقاء نفسه - نموذجاً غبياً (للعمالة)، مفترضاً أنها تقتضي ولا بد أن يكون (العميل) كالآلة، لا يستطيع أن يتصرف بشيء ولا حتى أن يفكر أو ينفعل، دون أمر من سيده (مشغل الآلة)، وهذا هو أولاً فقط. أما ثانياً، فيفترض العقل البسيط أيضاً أن هذا السيد هو ثابت الشخصية والتوجه بحيث أنه لا يتغير بنفسه، ولا تتغير أفكاره ولا مخططاته مهما تغيرت الظروف من حوله، وأنه في قمة العقل والحكمة ولا يكاد أن يعتريه حَمَق. وأما ثالثاً، فيفترض أخو درب النضال هذا أن ذلك السيد (النبيل) لا يمكن له أبداً أن يجازي من خدمه إلا بالحسنى والرفاهية والأنعام والسلطة الدائمة (!) - فنبله الشديد لا يسمح له بغير ذلك التصرف -؛ وهكذا في أفتراضات ثانوية عجيبة أخرى، لا يكاد يستقيم لها منطق..

أما البديهية الخامسة فهي كبرى البديهيات، وهي التي تغرس الأمل في النفوس، وتزرع الطمأنينة في القلوب بأن مكر الذين كفروا في تباب، وأن العاقبة للمتقين طال الزمن أو قصُر، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ) (الأنبياء:١٠٥). وهي تذكرنا كيف أن الباطل يحمل بذور نهايته في أصل تكوينه. فمؤسسات الباطل الكافرة - سواء سميناها ماسونية أو يهودية، أو صهيونية أو صليبية أو تلمودية، أو غير ذلك - تحمل في داخلها بذور التناقض والتضارب، والصراع القذر، الخفي والمعلن، بين أقطابها وأجيالها؛ فهم كما وصفهم الحق





جل وعلا: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى..) (الحشر:١٤)، وبذلك فإن مراكز القوى فيها تتغير، وأحياناً تكون التغيرات أعنف مما هو معتاد، فيصبح عميل الأمس المدلل، مارق اليوم الكبير، وعدو الغد المؤمل..!

وهكذا أصبحت بديهياتنا الخمس كحلقة كاملة، تعصم (بإذن الله تعالى) العقل من الأنحراف، والقول من الجزاف، إذا ما تكلمنا في الشأن العراقي..

والآن وبعد بيان بديهيات الانطلاق في القضية العراقية، حان وقت الابداع وترك المألوف، والتمرد على كل احتياطات السلامة والأمان وتجاهل أصوات الانفجارت، ومعها كل قطع الشظايا المتناثرة والطلقات الحائرة.. حان وقت الخروج للاستلقاء والنوم – ولو لليلة واحدة فحسب – في مكان لا سقف فيه يحجب عنك السماء. ربما يكون هذا المكان في العراء، أو فوق سطوح المنازل، لا يهم.. المهم أن تختار مكاناً وليلة تكون فيها السماء صافية، لتتعلم – قبيل نومك – أخر الصيحات في أساليب التفكير الابداعي وأقدمها في الوقت ذاته، وذلك هو (أسلوب التفكير بتعداد نجوم الليل)..

وأهمية هذا الأسلوب لا تنحصر في فاعليته وعبقريته فقط، ولكن في ضرورة تعلمه أيضا. ذلك أنك إن لم تستطع أن تتعلمه بنفسك فسيكون هناك من يعلمك – شئت أم أبيت – أسلوباً آخر للتفكير الابداعي اسمه (أسلوب التفكير بتعداد نجوم الظهر)، ولك أن تختار الآن..





أما أنا فقد حسمت قراري، منذ نعومة أظفاري، واخترت الأسلوب الأول، بل وإني لأرجو أن يلجأ ذاك الآخر البعيد مضطراً، عما قريب، إلى الأسلوب الثاني. وسأخرج الى العراء، وأنظر في السماء، وتحت رأسي وسادة، وجنبي قُلة ماء.. واضطجع كيفما أشاء، رغم أنف كل أقمار التجسس الصناعية، وكل الدول التي أطلقتها. فليصوروا كيف أني أنا العراقي وحدي، ضربت بكل أساليب الترويع والتخويف التي جاؤوا بها إلى بلدي، عرض الحائط، وطول الزمن، وارتفاع النجوم، وحسبت من ذلك حجمهم الضئيل، وحجمي الجبار.. ثم إني سأسبح حراً في بحار الفكر، بحراً بحراً، وأترنم بكل بحور الشعر، مداً وجزراً، وسأغوص في الاعماق لكي أخرج أصيل اللآلئ منها، ولن أرضى أبداً بزجاجهم المزيف..

وحديث بحور الفكر قريب جداً من حديث بحور الشعر، فلكل منها موسيقاه وروحه. ومن لم يكن له حسٌ مرهف، لايستطيع التنقل بين بحور الفكر، ولايمكنه التمتع بجمالية كل منها. ولعل روح الجمال هذه، هي التي تعطي الحياة للفكر، كما تعطيها هي ذاتها للفن. فمن كان حظة من هذه الروح قليلاً، قضى حياته كلها في بحر واحد من بحور الفكر، ولم يذق طعم ماء بحور الشعر..

وأول بحرين من بحور الفكر نمر عليهما هنا هما بحر (الدافِع) وبحر (المؤثِّر)، وفي أعماقهما نبحث عن إجابة لسؤال مفادة: (ما الذي دفع أمريكا لاحتلال العراق؟ وماهي العوامل المؤثرة في سياساتها في العراق بعد هذا





الاحتلال؟).. والحقيقة أنهما سؤالان، كل واحد منهما جاء من بحر مختلف، لكن حديث النجوم يعلم المتأمل كيف يمتزج ماء بحار الفكر، وكيف يفترق، ليعطي تدرجاً لونياً غير متناهٍ بين كل بحر وجاره.. وكل بحور الفكر جيران.

وسترى في ظلمة الليل نجوماً، ليست كباقي النجوم، هي في الحقيقة لآليء بحار الفكر المتناثرة، ولو دققت النظر فيها، وأصغيت السمع لهمسها، لوجدت مجموعة منها تحاول الاجابة عن سؤالنا السابق، فركز ذهنك، وافتح قلبك، وتأمل ماترى وتسمع.. واذا أردت أن تكون متأملاً نجيباً، فانسب اللآليء التي ستحصل عليها إلى بحرها الذي جاءت منه، وميّز بين لآليء بحر (الدافع) ولآليء بحر (المؤثر)، وتعرف إلى اللآليء التي يمكن لها أن تتواجد في كلا البحرين.. أما جواب السؤال (أو السؤالين)، فالجدير بك معرفته قبل انتهائك من قراءة هذا الكتاب العراقي.

وبحر ثالث من بحار الفكر نتعرف عليه، هو البحر (البديل)، وفيه نبحث عن البدائل المحتملة لخطة أمريكا في العراق بعد احتلاله.. ولآليء بحرنا اللامعات هنا لكل منها حكاية مختلفة، وبينها رابط خفي!

وقبل أن أشغلك بالتقاط لؤلؤة من البحر (البديل)، أغوص معك سريعاً في بحر آخر لجي ماؤه، هو البحر (المتغيّر). ومنه سنرى لآليء تهمس لنا بأصوات متضاربة وهي تتسابق لتجيبنا عن سؤال مفاده: (هل غيرت أمريكا من خططها بعد احتلال العراق، لسبب أو لآخر؟).. وظلمة هذا البحر،



التي هي مثل سواد لون السماء في مساحتها ما بين بريق النجوم، يدفعنا لاشعورياً للانتقال إلى واحد من أجمل البحور وأصعبها في الوقت ذاته.. لذا فقد قل من يستطيع أن ينظم أبيات فكره على وزنه وموسيقاه. وبحرنا الرابع هذا اسمه البحر (المتنوِّع).

وفي بحر تفجرت ألوانه كهذا، يطلب المفكر–الفنان الإجابة على أصعب الأسئلة وأبعدها أثراً.. فيأخذ نفساً عميقاً، يتبعه ثانٍ وثالث، يقلّب بعدها بصره في أبراج السماء ليستشعر عظمة خالقها وخالق كل شيء، ثم تمتليء نفسه بعزة المؤمن الذي أحسن ظنه بربه، ووثق بما عند مولاه.. وعند ذاك فقط يكون مستعداً ليمعن نظره في لآليء بحره (المتنوع). وهذه اللآلئ، يدرك الخبير اختلاف نفاستها، في حين يبهر لمعانها غيره، فلا يستطيع التمييز بينها.. وفي مثلها يبحث الذواقة، طالب الفكر، عن إجابة لسؤال أرّق مضجعه، فحواه: (ماهو الأسلوب الأمثل للتعامل مع المحتل الأمريكي ومع من جاء بهم؟)..

ولأننا أردنا الإبداع في الأصل، فسأترك لك أطراف الموضوع كلها مفتوحة، لتكتشف بنفسك أسرار بحور الفكر الأخرى، لتنظم ماشئت من قصائد، وتؤلف ماشئت من أبحاث، ولتعرف أسرار مزج الألوان، وتداخل الأطياف، فالإبداع يا صديقي يحفَّز ولا يعلَّم، وكل من حدثك عن تعليم الإبداع فقد حّدثك عن تعليم شيء آخر، يمكن أن يكون أي شيء إلا الإبداع..!

ولذا فأنا أقتصر على ذكر نماذج معبرة من بحور الفكر ولا أقصد الإحاطة. وأضيف لما ذكرت إلى الآن خبر بحر آخر اسمه بحر (الشكّ)، لتكون على حذر وانتباه اذا نشرت لسفينة عقلك أشرعة الخيال. وفي بحر الشك، ترى اللآلئ في أماكن غير معتادة، وأوضاع غير مألوفة، فيثير كل منها زوابع من الشكوك في ذهنك، حتى أن واحدة منها تقفز صارخة في وجهك: (هل تعرف سبب إيغال الأمريكان ومن جاؤوا بهم في تجاهل حقوق أهل السنة في العراق وإهدارها؟)..

وهناك كلمة مهمة بشأن هذه البحور اسمعها مني وهي كما أنه ليس كل قصيدة نظمت على وزن بحر من بحور الشعر تستحق أن تُسمع، كذلك فما كل لؤلؤة لمعت في بحر من بحار الفكر هي جديرة بأَن تُقتنى.. وأنبه إخواني إلى قرب قدوم أمواج عاتية من البحر (الصريح)..

وفي البحر (الصريح) نتكلم معنونين بالأهزوجة الشعبية العراقية:

(يردِسْ حِيلْ الما شايِفْها والشايفْها يشِدْ عمامةْ)[١٦]

فكم هي جميلة وحكيمة تلك الأمثال التراثية، حتى ليبدو كأن شعوباً وأجيالاً مجتمعة شاركت في صياغتها.. بل أن بعضها يسمو فوق ذلك حتى يصبح (أهازيج) تتغنى بها الشعوب. ومنها هذه الأهزوجة-الحكمة العراقية التي هي لؤلؤة لامعة في بحرنا (الصريح)، وهي مفهومة لكل عراقي، وربما

[١٦] أهزوجة باللهجة العامية الدارجة يرددها العراقيون



يصعب فهمها على غيره.. وأهزوجتنا هذه تصف حال أصناف متعددة من الناس الذين ابتلينا بهم فوق بلوى الاحتلال وأزلامه. وهؤلاء تتدرج نيّاتهم من الطيبة الانفعالية الساذجة، الى المكر الدفين، مروراً بالأنانية القاتلة؛ ومع ذلك فأنه يجمعهم الاتجار بالدم العراقي، أو على الأقل المزايدة عليه..

فكم هو متناقض ذلك الساذج العربي، الذي يريد من غيره (ومن العراقي بالذات) أن يقاتل أو يجاهد، ويكاد أن يُكفِّر كل عراقي تحدث مرة بحديث العقل وأراد أن يجمع ما تمزق وتفرق من أشلائه، في حين أن الصهاينة يجاورنه منذ عقود من الزمن، وهو لم يكلف نفسه يوماً أن يرميهم ولو بحجر!.. بل أصبحوا اليوم يتجولون للسياحة في حارات مدينته، ويفتحون الشركات الاستثمارية، ليعمل هو فيها، دون أن يؤنبه ضميره ليبصق في وجوههم أو حتى في ظهورهم!..

بل أن الأمريكي الذي دنس تراب الفراتين، قد مر عبر أرض ذلك الساذج العربي، ومكث فيها دهراً ولا يزال، وفي مياهه سارت بوارجه، وفي سمائه طارت قاصفاته لتضرب العراقي.. وهو بعيد عن كل ذلك، وعن الجهاد، وعن النضال، وعن مجابهة الأعداء، وعن اغضاب الحكام.. فلما تأكد أن الأمر لا يمسه بشكل مباشر، وأن هناك مسافة (أمان) يظنها كافية بينه وبين الخطر الداهم، بدأ (يردسْ حِيلْ).. فلا نامت أعين الجبناء.



ولئن كانت الكراهية التي زرعتها أمريكا في قلوب العرب والمسلمين من خلال اعتداءاتها المتكررة عليهم وانحيازها الدائم لكيان إسرائيل، قد تعطي مبرراً للإنسان العربي البسيط لأن يقف ذلك الموقف المتناقض، فما الذي يبرر موقف بعض مدعي الفكر والثقافة العرب؟ بل ما الذي يبرر موقف بعض (الإسلاميين) هنا وهناك في البلاد العربية عندما بدأوا يجعجعون كأهل الاسواق محاولين التطاول باعناقهم ليظهروا بمظهر قادة الجهاد، والجهاد – لو أرادوه – هو أقرب اليهم بكثير من أرض العراق..؟!

ثم أنا لو تركنا ذلك الضجيج جانباً، وبحثنا عن طحين، ما وجدنا بالكاد شيئاً، فإنهم تهاونوا في تقديم أي دعم مادي أو معنوي حقيقي يعزز موقف أهل العراق، ويشعرهم بالأخوة الحقيقية. وكم هي كثيرة المبادرات والمشاريع التي لو تبناها إخواننا هؤلاء ووفروا الدعم اللازم لها، لخففوا من معاناة أهل العراق، ولأسهموا في بناء قاعدة حقيقية لجهاد إسلامي شامل، لا يمكن أن يزايد عليه أحد، بل ولكفوا أنفسهم وغيرهم كثير صداع..

ونفرٌ من العراقيين – مع الأسف – انضموا الى تلك الجوقة، فيهم من عاش سابق عمره ذليلاً يحسد كل رأس، فلما ظن أن الدنيا انقلبت رأسا على عقب، استشرف للفتنة، ليأخذ فرصته ويتسلق على دماء وتضحيات غيره، ليزيد من حجم وألم تلك التضحيات، ثم أخيرا لتسحق الفتنه ذاتها رأسه.. وفيهم من قضى سابق عمره يتثقف من جهاز التلفزيون، وأفلام السينما، من نجومها ونجماتها، فلم يصدق أن تعرض عليه إحدى الشاشات يوما أن





يظهر على الملأ فيها، ليتحدث وفق هواها – أو هوى من يوجهها – ثم ليأخذ فوق ذلك دراهم معدودات ثمنا له ولفكره النيرّ..

وإن تعجب، فعجبٌ حديثهم عن (المستنقع العراقي) الذي وقعت فيه أمريكا.. ومن في العراق يعلم حقيقة (المستنقع الأمريكي) الذي وقع العراقيون فيه، ويعلم أيضاً جانباً من حقيقة (المستنقع الصهيوني الدجالي[١٧]) الذي وقعت فيه أمريكا وأوقعت معها العالم.. فالعراق هو بلاد النهرين، العذب الفرات السائغ شرابه، لم يكن في يوم من الأيام مستنقعاً، ولن يكون.. ورجاله المرفوعة هاماتهم ما ناموا على الضيم.

---

[١٧] نسبة إلى الأعور الدجال الذي يخرج في آخر الزمان.





الفصل الرابع:

فقه المصائب والفتن في أرض العراق

كم هي محزنة نهاية الفقه في بلادنا اليوم، حتى صار من حفظ بعض فتوى السابقين دون أن يستوعب تماماً مناهجهم ومقاصدهم يسمى فقيهاً!.. وكم هو غريب حال من لا يستطيع أن يجتهد في قضية مستجدة من فروع الفقه، ولكنه لا يتروى ولو قليلاً في بيان رأي (الشرع!) في مسألة خطيرة، لا يكاد أن يكون لها سابق، تتعلق بها دماء عظيمة ومستقبل أجيال من أمثال ما جرى في العراق، وهو الذي لا يفهم إلا القليل من حقيقة الواقع العالمي والمحلي المتغير من حوله!.. فهو يعيش في عصر أجداده، وكل ما فهمه من الدنيا يدور بين أركان ذلك العصر (الذي لا يستطيع هو حتى أن يتصوره جيدا).. ومع ذلك فهو جهبذ الإفتاء في القضايا الكبرى (دون القضايا الصغرى) لعصرنا الراهن..!

وقريب من هذا حال آخر يكاد أن يكون جهاز إفتاء نقّال، يصدر فتاواه المريضة في كل الشؤون، صغيرها وكبيرها، وما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر، يميناً وشمالاً.. ومن خالفه فهو يعتبره في العادة فاسق أو مبتدع، ويصبح أحياناً كافراً، وإن أراد المداراة، إتهم مخالفه بمجرد الجهل!





وأغرب حديث لدى هذين الاثنين هو حديث عن مثل مقاصد الشريعة وقواعد الاستنباط، وكليات التشريع، وفقه الموازنات والأولويات، وتحصيل المصالح، ودفع المفاسد!.. فالأول يعرف شيئاً من هذه المصطلحات أو كلها، ولكنه لا يستطيع بسهولة أن يجد العلاقة بينها وبين ماحفظه من فتاوى أول شبابه.. وأما الثاني فهو يظن أن هذه المصطلحات مستوردة من الديانة البوذية لهدم الاسلام..!!

ولقد انقلبت الموازين لدى كثير من المسلمين اليوم، فلم يفرقوا بين ما هو ثابت وما هو متغير من قضايا الإسلام، فتجرأوا على الثوابت، وجمدوا عند المتغيرات، ووضعوا الفرع محل الأصل، واستبدلوا الجزئي بالكلي، فأصبحت عقولهم كذاكرة جهاز الحاسوب العاطلة، تتراكم فيها المعلومات، وتتوزع فيها البيانات، دون أن يستطيع أحد ترتيبها بالشكل الصحيح، لتتم الاستفادة منها..

وكم تمنيت أن أرى من يتصدى بمؤلَّفٍ رصين جامع مانع لقضايا الجهاد الإسلامي في عالم اليوم، عالم الصواريخ العابرة للقارات والتكنولوجيا الفائقة والأسلحة النووية، وفي ظل العولمة، والفجوة التقانية والإقتصادية بين دول العالم.. ويربط كل هذا بالمراحل التي مر بها الجهاد في التشريع الاسلامي، وفي السيرة النبوية.. ويبين وبوضوح ارتباط احكام الجهاد بمدى قوة المسلمين وواقعهم، واقوال الفقهاء في ذلك.. ومستلزمات الجهاد وأنواعه والاعداد له في زماننا.. ويؤصل لنا الفارق بين الثابت والمتغير في هذا الخطب الجسيم،



مدركا للمتغيرات الكبرى في عالم اليوم من الأسلحة الفتاكة والتكنولوجيا المتقدمة، إلى حركة الإقتصاد العالمي والنظم الدولية الفاعلة.. وحبذا لو كان المتصدي لهذا العمل عراقياً ملازماً لأرض العراق لكي لا تفوته خصوصيات المكان كما لم تفته خصوصيات الزمان.

رغم أني أرى أن من لم يعرف تفاصيل ذلك من قراءاته الإسلامية، ينبغي أن لا يفوته إدراك أصل المسألة في الأقل بغريزة العقل، فإن لم يستطع فبصحبة عالم ينصحه، فإن لم يكن له هذا فآخر مراتب العافية في الدنيا صمت يستر به حاله، وإلا فما كان الأولون يرون لمثله أفضل من موت عاجل على شهادة التوحيد، قبل أن يُفتَنَ أو يفتِن..!

إن مقاومة المحتل حق مشروع كما أن دفع الظلم ورد الظالم حق مشروع أيضا ولا خلاف في ذلك. ولكن الإشكال هو في تحديد الوسيلة أو الوسائل التي يتم اتباعها لأجله. ولكل وسيلة أو خيار سلمي أو مسلح سلبياته وإيجابياته. ومعرفة الخيار الشرعي الصحيح يستلزم معرفة شرعية عميقة من ناحية، وعلماً دقيقاً بالواقع ومآلاته من ناحية أخرى. ومما يزيد من تعقيد المسألة اضطراب الزمان وخصوصية المكان في بلد مثل العراق.

وأنا لا أعتقد بتاتاً بوجود عاقل يظن أن فعل المقاومة يمكن حصره باطلاق قذيفة صاروخية أو تفجير عبوة ناسفة. وهل بقي هناك أحد على وجه الارض اليوم لا يدرك أن هناك الكثير من الفعاليات السياسية والاقتصادية



والإعلامية والإجتماعية والتربوية والعلمية والثقافية، التي يمكن أن تقع ضمن توصيف المقاومة؟.. وهل نحن لازلنا بحاجة إلى أن نؤكد أن فعل المقاومة هو فعل حضاري شمولي، تتكامل عناصره المختلفة في جوانب عدة، ليس بالضرورة أن يكون الجانب العسكري المسلح هو صاحب الأولوية المطلقة فيها دائما؟!..

وفي الجانب المقابل فقد كان لبعض أجزاء الحركة الإسلامية في العراق دور سياسي واضح في العراق بعد الاحتلال. ويكننا أن نرصد من حيث العموم دوراً سياسيا (إسلامياً) فاعلاً وناشطاً ضمن مؤسسات الحكومة أو الدولة ودوراً آخر (إسلامياً) مقاطعاً لكافة مؤسسات الدولة في عراق ما بعد الإحتلال. وكلا الدورين يمثلاً فعلاً سياسياً وإن كانا مختلفين. ويمكن للراصد أيضا أن يعدد سلبيات وإيجابيات لكلا الفعلين السياسيين. فتصبح المسألة حقيقة هي ليست تمييز الخير من الشر، بل هي معرفة خير الخيرين ليؤخذ، وشر الشرين ليترك، كما قال الفقهاء.

ولكن وبعد حوالي عقد من الزمن يظهر أن نتيجة كلا الفعلين السياسيين للحركة الإسلامية في العراق لم تكن مثمرة، أو كانت ثمارهما مرة وغير ناضجة، رغم التضحيات والجهود الكبيرة. ولا ريب أن وجود فعلين متناقضين للحركة الإسلامية (أو باسمها) في مكان واحد وزمان واحد يمثل إشكالاً حقيقياً بحد ذاته. كما أن إيراد أسباب الفشل أو التعثر لكلا الفعلين يعزز ويثبت وجة النظر الأساسية لهذا الكتاب والتي تتمثل بضرورة





إحداث تجديد دعوي حقيقي، يتمثل بالعودة بالدعوة الإسلامية إلى سمتها السهل الصافي الأول (أو كما عبر عنها الشيخ فريد الأنصاري بمصطلح الفِطريّة- المشتَق من الفِطرة)، وتجاوز مرحلة الغلو التنظيمي والنمط الحزبي، واعتبار أن الحركية التنظيمية الإسلامية هي مرحلة تأريخية لها ما لها وعليها ما عليها، وأنها اجتهاد فكري بشري ضمن أطر التشريع أدى دوره ثم انتفت الحاجة له بانقضاء علته بسبب المتغيرات الكبيرة التي طرأت على الساحة العالمية مؤخراً، وكما سيظهر جلياً في فصول لاحقة من هذا الكتاب.

ورغم أن هناك أسباباً مختلفة تقف وراء تعثر وفشل خيار المشاركة السياسية للحركة الإسلامية في العراق جاء بعضها من كيد المحتل وأزلامه، وجاء الآخر من ألاعيب المنافسين في الساحة السياسية، فإن الجانب الأهم من أسباب الفشل هذه يمثل أخطاء منهجية كبرى تتعلق ببنية الحركة الإسلامية المعاصرة ذاتها. وحتى كيد المحتل وأزلامه وألاعيب المنافسين فالحركة الإسلامية تتحمل جانباً مهماً من المسؤولية فيها. فكيف يبيح مسلم يقف على ثغر الدعوة إلى الله لنفسه أو لجماعته أن تثق بأعداء الإسلام أو أن تأمن الأحزاب الدنيوية وكيدها لأجل لعاعة من الدنيا؟ وماذا كان يفعل عباقرتها في خارج العراق سنين طويلة وهم الذين علت أصواتهم أول الأمر ثم اتضح لاحقاً أن دماغ أحدهم أكثر فراغاً من فؤاد أم موسى؟





كما أن تبسيط المسألة بقصة ضعف التجربة السياسية للحركة الإسلامية في العراق لا ينفع كثيراً لأن هناك أسباباً أعمق من ذلك بكثير، يكفي أن نذكر منها الآتي:

- وجود تعارض واضح بين ثقافة قواعد الحركة الإسلامية وجماهيرها وبين العديد من الخيارات التي اتخذتها الحركة في العمل السياسي.
- ضعف الفهم للطبيعة الإجتماعية والنفسية العراقية وقلة الانتباه لضرورة النسبية في التعامل مع مناطق العراق المختلفة حسب خصوصياتها.
- غياب الخطة الواضحة للعمل، وبالتالي ضعف القدرة على التقويم، مما أدى إلى تسلق بعض الزعامات النفعية وتصدرها فقدّمت مصالحها الشخصية وشوهت صورة عموم الحركة الإسلامية أمام الجمهور. وهذا يعبر في جانب مهم منه عن الهزال الروحي الذي يعاني منه كثير من أفراد الحركة الإسلامية المعاصرة مما حرمهم الثبات أمام فتنة المنصب والمال كما حرم غيرهم الثبات عندما حمل السلاح وغرته فتنة القوة.
- وجود فجوات كبيرة واضحة في الفهم داخل صفوف الحركة الإسلامية ذاتها، على المستويين الافقي والعمودي.
- إعتماد الأساليب النمطية (الكلاسيكية) في عملها الجماهيري وجمود القوالب التنظيمية التي أحرجت وأرهقت نفسها بها رغم آنها لم تحقق لها النتائج المنشودة.





أما خيار الفعل السياسي الرافض والمقاطع باطلاق لكل مفاصل الحكومة والدولة بعد الاحتلال، فقد بدا موقفه للناس كأنه موقف انفعالي عاطفي أكثر مما هو موقف شرعي راسخ.. بل وبسبب الضريبة العالية التي يقتضيها مثل هكذا موقف، وبسبب مهاترات إعلامية هنا وهناك،كانت الشكوك دوماً تلف من حاولوا تبنيه وكانوا ناطقين باسمه.. والأهم من ذلك كله هو أنه لم يمتلك يوماً رسالة إيجابية واضحة.

وقد يقال لماذا لم تذكر الإيجابيات كما توسعت في السلبيات؟ فأقول أنني لم أنكر وجود الإيجابيات، ولكن عندما تقحم حركة إسلامية ما نفسها في مواقف سياسية معينة، ويترتب على ذلك أن تفقد تلك الحركة جماهيرها وتأثيرها في الناس كونها دعوة إلى سبيل الله تعالى أولاً وآخراً، ودون أن تحقق أهدافها في اللعبة السياسية التي دخلتها (سواء باتخاذ موقف المشارك أو المعارض أو المقاطع)، فإن ذلك سيكون خسارة دعوية كبرى لا ينفع معها تحقيق أهداف جزئية هنا أو مكاسب ثانوية هناك. بل ويمكننا الجزم باجماع أن واحداً من أهم أهداف الحملة الصهيونية-الصليبية الجديدة على العراق وباقي بلاد المسلمين، إن لم يكن أهمها جميعاً، هو ضرب الإسلام في نفوس أهله من خلال تشويه وتسقيط القدوات والواجهات التي تمثله تأريخاً أو حاضراً.. ولذلك كانت هفوة الحركة الإسلامية (الناطقة باسم الإسلام) في هذه اللحظة التأريخية الحرجة من تأريخ البشرية أمراً لا يمكن القبول به ولا السكوت عنه.. والحق أحق أن يُتّبع.





وبعد هذه الجولة السريعة في سلبيات وايجابيات خيارات الحركة الإسلامية المختلفة في العراق، وبما يمكن أن نسميه (فقه المقاومة)، ينبغي أن نعرف أن نيل الإجازة العلمية في هذا النمط من الفقه لا يكون لأحد إلا بعد أن يستوعب الجانب الآخر من القضية، وهو (مقاومة الفقه).. وبعكس ذلك فإن عرى الدعوة الإسلامية قد تنقض عروة عروة، إذا دخل في (فقه المقاومة) من لا يعرف (مقاومة الفقه)..

وفي هذا الصدد نقول أنه إذا كانت العلة في أن يكون الصدح بكلمة الحق، بوجه سلطان جائر، هو من أعظم الجهاد أجراً عند الله تعالى، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم[١٨]، هي مشقته البالغة على النفوس، لعظم الخطر الذي يتعرض له هذا المؤمن الصادح بالحق، مما قد يصيبه من بطش ذلك السلطان، فإن العلة ذاتها قائمة، بدرجة أو بأخرى، عندما يستلزم الأمر أن يطلق ذلك المؤمن العنان للسانه الفصيح الصادق، مبيناً حكم الشرع بوجه جمهور مائج، قلب له المزورون الحقائق، فأصبح يخوّن الأمين، ويأتمن الخائن، ويريد من الشرع أن يتبع هواه، لا أن يتبع هو الشرع كما أُمِر..

[١٨] ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ – وفي رواية حقٍّ- عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)، أخرجه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، وأحمد، وغيرهم. وقد حسّنه المحققون، وقال بعضهم بصحته.



وهكذا داعية الاسلام، الراسخ الفكر، النير القلب، الذي امتلأت رئتاه بنسيم الجنة وهو لما يزل يباشر أمور الدنيا، يطلب رضا ربه، حتى ولو بسخط من في الأرض جميعاً، وسينطلق الغوغاء والذين في قلوبهم مرض، يشتمون دينه وعرضه، وقد يجرؤ عليه رهط من المفسدين، فينال يقيناً الشهادة من ربه الكريم.

ومع ذلك، فإن هذا الجمهور المائج لابد أن يأتي يوم ويصحو، فبذور فطرته السليمة لا زالت حية تقاوم كل أنواع السموم التي بثها الأعداء في تربتها، التي ما نست طعم خصوبتها رغم كل الأملاح، ولا بد لذاك الدم القاني من أن يزهر وروداً تشع لتنير دروب الصادقين.. فيكون ذلك حقاً من أعظم الجهاد..

ولا ريب أن التلطف بالناس أو مخاطبتهم على قدر عقولهم، هما من صميم التربية النبوية الدعوية، وترك الإمام لبعض العمل الفاضل ونزوله الى المفضول مستحب، اذا كان في ذلك تأليف لقلوب المصلين، كما قال بذلك ابن تيمية رحمه الله، وغيره من علمائنا الافذاذ.. غير أن هذه المجاملة والمداراة لها حدودها، والذي يحكمها هو الضوابط الشرعية، ومدراها يقوم على مقدار المصلحة أو المفسدة المترتبة على الفعل أو الترك، مع مراعاة اعتبار الشرع في تعريف هذه المصالح أو المفاسد. ومالم نلتزم بهذه الحدود أو الضوابط، فسندخل في باب اتباع الهوى، الذي هو عين المحذور.. وسيؤدي ذلك إلى أن يتخلى الداعية المسلم عن دوره في توجيه وقيادة العباد إلى خيري الدنيا



والآخرة، ليمسي هو مقاداً الى نزوات وعواطف تلك الجماهير غير المنضبطة..

إننا يجب أن لا ننسى أبداً حقيقة أن من يقوم على ثغر الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان غالباً ما يتعامل مع جمهور فتكت به العديد من الأمراض لسنين عدة، دون علاج ناجع. فقد لعبت الأفكار الجاهلية والتغريبية دورها في النحت من الفطرة السليمة لجماهير الناس، ثم أتت السنوات العجاف بالقتل والجوع والفقر والإذلال المنظم، لتزيد الجروح عمقاً، والمرض انتشاراً..

وهذه الحقيقة تقودنا إلى لزوم التلطف بالمريض، وتحمل صرخات الألم اللاواعية التي يطلقها، والتصرفات المتطرفة التي يقوم بها نتيجة مرضه وألمه، وهذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن ذات الحقيقة تنبهنا إلى ضرورة أن لا نستجيب لكل رغبات ذاك المريض، وذلك أن بعض تلك الرغبات مريض أيضاً، والاستجابة لهذا البعض قد يؤخر العلاج طويلاً، ويجعل ثمنه باهظا، بل إن ذلك قد يؤدي إلى موت المريض والطبيب معاً..

والمشكلة الكبرى هنا هي ليست المرض بحد ذاته، ولكنها وجود كائنات طفيلية لا تعيش إلا في الوسط المريض، فغذاؤها الألم الذي يسببه ذلك المرض، وماؤها القيح الصديد النازف من ذلك الجسم المريض. ولذلك يكون دأبها الذي لا تنفك عنه هو ابقاء ذلك المرض وتقويته، بمحاربة كل علاج، وقتل كل طبيب، كما تعود الذين كفروا من بني إسرائيل قتل الأنبياء.



وأي طبيب معالج لا ينتبه إلى هذه الطفيليات ولا يتعامل معها بالطريقة التي تناسب كل نوع أو فصيلة منها، ويركز جهده على المرض الأصلي فقط، فإنه لاريب سيفشل بالعلاج، بل وسيدفع ثمن فشله هذا غالياً..

والنكتة هنا في المسألة هي أن ينتبه الطبيب إلى حقيقة أنه ليست كل الطفيليات التي يراها هي طفيليات بالأصل، بل أن كثيرا منها كان في أصله أجزاء من ذلك الجسم المريض، تحولت الى لعب دور الطفيلي الذي يعيش على المرض دون كامل ادراك منها، بل أنه سيجد فوق ذلك أن بعضها يظن نفسه طبيباً يعالج المرض، في ذات اللحظة التي يسكب فيها الزيت، ليزيد من نار الألم اشتعالاً.. وذلك من المضحك المبكي الذي قد يظنه البعض خيالاً خصباً، ولكن من اكتوى بنار القضية العراقية، وذاق حقاً ألمها، يتعامل مع هذه الأشياء وغيرها مع كل نفس من أنفاسه.

وليس من الصعب أبداً أن يُشخّصَ المراقب لأوضاع العراق تشرذماً لأهل السنة يبدو واضحاً نسبياً بالقياس إلى الحالة شبه الموحدة (ولو من ناحية الشكل الخارجي فقط) لغيرهم ممن لهم مرجعيات حزبية أو دينية أو قومية. لذلك كان رد الفعل الأولي لدى الكثير من الحركيين الإسلاميين وغيرهم، بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، هو أن تساءلوا فيما بينهم: (لماذا لا يكون لأهل السنة في العراق مرجعية دينية ينضوون تحت لوائها؟ لماذا لا نصنع أو ننشيء هذه المرجعية إذاً؟)..



وهكذا طرحت الحركات والجماعات الإسلامية في العراق مبادرات عدة في هذا الإتجاه، مختلفة الأبعاد، وعلى فترات زمنية متلاحقة، سرعان ما اضمحل بعضها، بينما طال عمر البعض الآخر منها زمناً، وكان التنافس الخفي أو المعلن بينها في اثبات أحقية كل منها بالتمثيل السني صبغة واضحة لها جميعاً. ورغم أني سأعود إلى الجانب النظري والتأصيلي لهذا الموضوع في فصل لاحق من هذا الكتاب (بمشيأته تعالى)، فإني سأرصد هنا بعض الملاحظات التفصيلية التي اتسمت بها بعض هذه المبادرات مما كان له تأثير لا يخفى في مسار القضية العراقية.

وقد استبشر الكثيرون في أول هذا الأمر خيراً.. حتى أن البعض من إخواننا كان يبالغ في حديثه مندفعاً (أو ربما مُربَكاً)، عندما تحدث ليس عن مرجعية واحدة بل عن مرجعيتين، إحداهما دينية والأخرى سياسية.. وهذه مجازفة واضحة، فلطالما كانت الحركة الإسلامية تثقف أبناءها وتحذر جماهيرها من (الخدعة) التي يمارسها العلمانيون بكلامهم عن فصل السياسة عن الدين، باعتبار أن ديننا هو دين شامل لكل جوانب الحياة وصالح لكل زمان ومكان..

ويكاد المرء يذهل من عدد المرات التي تكرر بها الحركة الاسلامية ارتكاب الخطأ ذاته، والوقوع في الكارثة ذاتها، عندما يبذل بعض أبنائها الغيورين جهدهم ودماءهم في بناء مشروع أو تشييد صرح، وما أن تصبح الثمرة جاهزة للقطاف، أو تكاد، يُقترَف الخطأ الجسيم، وتُسلَّمُ القيادة – عن





سوء تدبير، أو تواضع جاهل لا مبرر له ولا أجر يرتجى من ورائه – إلى من هو غير أهل لها..

ويستمر الخطأ والانحراف، ويكاد عمر الفاروق رضي الله عنه يخرج من قبره، ليصرخ بآذاننا، واحداً فواحداً: (أعوذ بالله من جلد الفاجر وعجز الثقة).. ويبرز بضعة نفر، لينفردوا بتوجيه أمر هذه المؤسسات (المرجعية!)، ويحيدوا كل من سواهم.. وتتملكني رغبة عارمة بأن أصرخ بأعلى صوتي، وعلى الملأ: (أعوذ بالله من جلد شبه العالم وعجز العالم الثقة).

ولئن افترضنا حسن النية في هؤلاء النفر، فلا يمكننا إلا أن نتساءل عن أمرين أساسيين هما: أولاً الكفاءة والمنزلة العلمية التي يتمتع بها أي منهم، وثانياً مدى قيامهم منفردين أو مجتمعين ببذل غاية الجهد المطلوب في تفرعات القضية العراقية، ليكونوا ممن يستحقون في أقل تقدير، الأجر الواحد في حالة الخطأ باعتبارهم مجتهدين..

والتهجم على الأشخاص أو الهيئات ليس من صفاتي الشخصية، وهو ممنوع عني بحكم تربيتي، ولكني هنا أوجه نقداً علمياً بناءً، أشعر بمسؤوليتي أمام الله تعالى إن لم أصرح به، بعد أن آلمني فشل التجارب (المرجعية) المتعددة.. فبينما كان الناس يأملون ببناء مرجعية علمية شرعية رصينة، كانوا يحصلون بالمقابل على حزب سياسي (إسلامي!) آخر يُضاف الى القائمة الطويلة للأحزاب السياسية العاملة في الساحة العراقية!..





وليت من أنتقده يسمع قولي هذا، ويكون الحق أحب إليَّ وإليه من الانتصار للنفس، فيعيد عرض مواقفه على موازين الشرع، ليكتشف كم أغفلَ سابقاً من موازين وقواعد، لئن اعتبرها مرجوحة برأيه، فغيره يراها راجحة، وفي تنوع مشارب العلماء ومناهجهم رفع لكبير حرج يقع صاحب المنهج المقيد فيه، ويوقع الآخرين معه.. فهل من متدارِك قبل فوات الأوان، يتذكر عظم الموقف بين يدي الخالق يوم القيامة؟..

وقد كانت بعض المشاريع (الإسلامية) في هذا المجال لا تستحق الذكر كتجربة ناجحة لا على صعيد العمل المسلح، ولا على صعيد العمل السياسي (الإسلامي)، ولا على صعيد العمل العلمي والتربوي. فلم يكن لها رسالة واضحة، فضلاً عن وضع برنامج عملي لتحقيق تلك الرسالة.

والأعم الغالب في من يحتل بلداً أنه لا يخرج منه حتى يضع فيه حكومة (أو حكومات) عميلة له تحمي مصالح المحتل الرئيسية، وتضرب بيد من حديد كل من يهدد تلك المصالح.. هذا مايشير إليه أبسط استقراء للوضع السياسي الدولي والصراعات الدائرة فيه الآن، وما هو متوقع منها في المستقبل.. وأمثلة الماضي القريب، والنمور الورقية التي انتشرت في البلاد العربية، بعد (طرد) المستعمر البريطاني والفرنسي منها، خير شاهد..

ولذلك فإن من يتبنى خيار (مقاومة المحتل) بأي صورة من صور المقاومة، لا بد أن ينتبه لتداعيات اللحظة التي يخرج فيها المحتل (ولو رسمياً أو ظاهرياً)



من البلد، ولا بد أن يحسب مآلات الأمر مع من يخلفه.. فهل يستمر بتبني خيار المقاومة بعد تلك اللحظة؟ وهل سيتبنى أساليب جديدة فيه أم سيستمر بالأساليب ذاتها؟ أم أنه سيغادر هذا الخيار إلى خيارات أخرى؟ وهل ستكون المسألة هي قتال كافر محارب أم خروج على حاكم ظالم أم شيئا غير ذلك؟ وماذا سيكون موقفه مع من يختلف معه جذرياً في ذلك من أهل البلد؟.. كل هذا وأسئلة أخرى معها لا مناص من تقرير الوجه الشرعي فيها بشكل واضح ممن ينصّب نفسه في مقام (المرجعية) في واقع مضطرب كواقع العراق.. وإلّا فليصمت!!

ولعل فشل معظم التجارب (المرجعية) لأهل السنة في العراق بعد الاحتلال يعود من الناحية التطبيقية العملية[١٩] للأسباب الآتية:

- تعطيل الشورى الحقيقية اللازمة لإتخاذ قرارات حاسمة ذات أثر حالي ومستقبلي واسع.
- إنسحاب أكثر العلماء ممن هم أهل للنظر والكلام في مثل عظائم الأمور هذه، لأسباب مختلفة.
- عدم اعتراف أغلب المتصدرين للعمل في هذه المؤسسات أو الهيئات بنقصهم العلمي وحاجتهم إلى مشورة الآخرين ممن هم أهل للمشورة. واتصاف الكثيرين منهم بحب الرياسة والظهور.

---

[١٩] ذكرنا بأننا سنتحدث عن الجانب النظري التأصيلي لهذا الموضوع لاحقاً.

- مداهنة شخصيات وجهات معروف زيغها وانحرافها.
- الوقوع تحت تأثير الإيحاء المباشر وغير المباشر التي تمارسه جهات سياسية وإقتصادية وإعلامية عليها.. وعدم الأنتباه إلى أن صناعة النمور الورقية، وتضخيم بالونات الأبطال، هي سياسة ماكرة قديمة، يمكن أن تطبق على الأشخاص أو المؤسسات، ونسيان قول ذلك الزاهد من سلفنا الصالح: (فلا يغلبنَّ جهلُ الناسِ بك علمَك بنفسِك)..
- تقصير أفراد تلك المؤسسات في تقديم النصح للمتصدرين في قيادتها، والسلبية الكبيرة في تعاملهم مع موضوع اتخاذ القرارات، وكأنهم رضوا لأنفسهم موقف المتفرج.

ولقد كان المظهر أو النتيجة الأخطر لمجانبة المنهج الشرعي السليم، هو إنجرار بعض هذه المؤسسات إلى مجاملة رغبات وعواطف الجماهير على حساب الموقف الذي تمليه قواعد الفهم الشرعي السليم. ومثل هذا لا يمكن تفسيره إلا بأحد أمرين أو كلاهما، وهما الجهل (أو النقص العلمي)، وحب الظهور الذي قصم الظهور..

وعلينا أن نقر بأمر لا نخجل من ذكره مجاملة لأحد، بأن الداعي إلى الله تعالى اليوم غالباً ما يتعامل مع جمهور ساذج الرغبات والانفعالات، أذهلته المفاجئات ووطأة الأحداث الجسام؛ وفشل الجميع في إعادته إلى وعيه بالسرعة اللازمة، فبدأ يظن أن كل شيء قد انتهى، وأن الإسلام لن تقوم له

قائمة بعد الآن، فبدأ (لاشعورياً) يجري خلف كل ناعق أجير وسراب مرير.. وكان لبعض من مردوا على النفاق دورهم في استغلال الموقف، ليذروا الرماد في العيون، ويخلطوا الأوراق ذارفين دموع التماسيح.. ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن حب الداعية المسلم لأهله وجمهوره وتواضعه لهم ورحمته بهم هي من المسلّمات التي لا يكون الداعية داعيةً إلا بها، غير أن ذلك لا يقتضي مطلقا مجاملة أحد على حساب الحق والشرع.

ولا يكاد المرء يصدق نفسه عندما يرى بعضاً ممن يتحدثون باسم الإسلام يراهنون بكل ما أوتوا من سلاطة لسان على معارك ضد الباطل لا توازن فيها لا بمقياس العقل ولا بمقياس الشرع، ولا توجد احتمالية لتحقيق نصر فيها، إلا بمعجزة لا يمكن لمسلم عاقل أن يبني تصرفه وفقا لها، ويزايدون على دماء المسلمين وآلامهم، متناغمين مع محللي سياسة أغبياء لم يجدوا لأنفسهم عملاً غير السفسطة بما يتناغم مع هوى الفضائيات، ليطلوا علينا من خلالها دقائق معدودة بوجوههم الكالحة وفكرهم السقيم، لقاء دراهم معدودات.. فإذا جاءت ساعة المواجهة التي حشدوا لها رأيتهم تركوا الساحة لأهلها، وتركوا كل أرض العراق!.. فهل يمكن للجهل وحب الظهور لوحدهما حقاً أن يوصلا الرجل إلى المتاجرة بدماء قومه وأهله؟!

والحقيقة أن كثيراً من أئمة وخطباء المساجد ما هم إلا جزء من الجمهور (أقصد جزء من العامة أو من العوام من حيث معرفتهم بشرع الله تعالى). والشهادات التي يحملها أكثرهم أهلتهم للخطابة أو لنيل الوظيفة أكثر من

حقيقة قيمتها العلمية، دون مزايدة على أحد. وقد كان لسطحية وعاطفية طرح هؤلاء للقضية العراقية دور كبير في إرباك الجمهور واستمرار غفلته وذهوله..

وتتحمل الحركة الإسلامية بمختلف أجزائها في العراق نصيباً وافراً من ضعف الارتقاء في مستوى تعامل الجمهور العراقي مع الخطب. فطوال ما يزيد عن عقد من الزمن الذي سبق الاحتلال، كان هناك مجال جيد للعمل الإسلامي الجماهيري، ولكن الحركة الإسلامية بقي خطابها يراوح في مكانه، وكأنهُ لم يخطر ببالها احتمالية (أو حتمية) اشتداد الفتنة. وهذا قصور أؤشره على قدرة الحركة الإسلامية في العراق على الاستقراء المستقبلي لما هو مطلوب منها.. ويتحمل الذين كانوا يقيمون في خارج العراق النصيب الأكبر منه. فلما وقع الخطب الجسيم كنا كمن درَّس طلابه مناهج الصف الخامس الإبتدائي، ولكن أسئلة الامتحان جاءت بمستوى مناهج الدراسة الجامعية، فتخيل كيف ستكون إجابات الطلاب؟!

وحتى بعد الاحتلال، كان يفترض بالحركة الإسلامية أن تنتبه إلى حقيقة الوضع في المساجد، وسطحية خطبائها، والنقص العلمي المعرفي الكبير الذي يعانيه أكثرهم.. وكان ينبغي أن يكون التحرك عليهم قوياً وسريعاً، لتزويدهم بالمعرفة الشرعية الرصينة وبما يناسب المرحلة، وبعيداً عن الطروحات الحزبية الضيقة، ليستطيعوا بعد ذلك أن يسهموا بفاعلية في تثقيف الجمهور، لا في إرباكه.. وأذكر أني كتبت في ذلك رسالة مطولة سلمتها إلى بعض القيادات

الظاهرة للحركة الإسلامية آنذاك، لكن لم ألمس تفاعلاً جدياً مع ما طرحتُ. وأعتقد أن هذا له ارتباط وثيق بأزمة داخلية عانتها الحركة الإسلامية في العراق بعد الإحتلال، لعلي أعود إلى شيء منها لاحقاً.

وكانت النتيجة الحتمية لإرتباك وقصور هذا الخطاب الدعوي الجماهيري، أن يحدث لدى أجزاء واسعة من الجماهير رد فعل سلبي تجاه كل ما هو (إسلامي)، خصوصا بعد أن بدأ الجمهور السني يحمّل بعض الواجهات الإسلامية المسؤولية (ولو جزئيا) عن تغييب دور أهل السنة أو عن اهدار حقوقهم. ولست هنا في صدد التحليل الكامل لهذه الحالة بقدر ما أريد أن أنبه إلى خطورة الربط اللاشعوري أو اللاواعي الذي يحدث في أذهان كثير من الناس بين الإسلام و(الإسلاميين) أو المسلمين.. وبالتالي تتحول (أخطاء) البعض إلى وصمة في جبين الإسلام (من وجهة النظر هذه فحسب وإلا فالإسلام دين الله وهو أسمى من ذلك)، وهذا الذي يُخشى على الناس منه كونه قد يصيب فطرتهم بمرض عضال يصعب علاجه. ولعل هذا هو من أهم الأسباب وراء تأليف هذا الكتاب، غيرة على دين الله أن يُتّهم، وعلى عباده أن يُفتنوا.. نسأل الله تعالى أن لا يكلنا إلى غيره طرفة عين. ولله در شباب من آل محمد، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يستمعون القول فيتبعون أحسنه..



الفصل الخامس:

المرجعيـة الحـق

وهنا سنتعرض إلى فصل ذو أهمية خاصة لما نحن بصدده في الشأن العراقي وقضية تجديد الدعوة، ألا وهي الدعوات التي لا زلنا ومنذ الاحتلال الأمريكي للعراق إلى اليوم نسمعها حول إيجاد ما يسمى بـ(مرجعية لأهل السنة في العراق)، والمبادرات التي تمت على أساس ذلك. ورغم أن الداعي الأساس إلى هذه (المرجعية) كانت الجماعات والحركات الإسلامية على اختلاف مشاربها، إلا أننا نلاحظ دوراً خفياً قامت به بعض القوى الداخلية والخارجية الأخرى في توجيه وصياغة جزء مهم من هذه المبادرات.

وقد قلنا فيما مضى أن الجميع قد أدرك بعد الاحتلال، أن من نقاط قوة التأثير السياسي لبعض المكونات العراقية الأخرى هو وجود مرجعيات حزبية أو دينية أو قومية لهم ذات وجود فاعل في الساحة.. وأنه على هذا الأساس كان السعي لإيجاد مرجعية دينية لأهل السنة في العراق..

وأنا أدرك تماما الآن، أن هذا التصور، أي تشكيل مرجعية دينية لأهل السنة في العراق بالشكل الذي فكر ولا يزال الكثيرون يفكرون به هو خطأ فادح ينبغي الرجوع عنه. ذلك أن قضيتنا هي ليست مجرد قضية سياسية أو قضية دنيوية بحتة، ولا هي مجرد معركة مع خصم نريد أن



نكسبها بأي طريقة والسلام.. كلا وألف كلا، إنها مسألة دين الله الذي ارتضاه لعباده أولاً وآخراً. ونصرة هذا الدين واعلاء كلمته كما هي غاية شرعية كبرى، فإن أسباب ووسائل هذه النصرة إنما هي مقيدة بضوابط الشرع، حيث أن الغاية لا تبرر الوسيلة مطلقاً. ويخطيء من يظن أن نصرة الشرع الحنيف يمكن أن تكون بغير هذا الشرع نفسه على سبيل التكليف للعباد. وأما كون أن الله تعالى قادر مثلاً على أن ينصر دينه بالرجل الفاجر[٢٠]، فإن ذلك إنما يكون من باب القدرة الإلهية والمكر الإلهي والتصريف الرباني.

وماذا ينفعنا لو ملكنا الأرض كلها من هذه الساعة إلى يوم القيامة وأضعنا ديننا أو خسرنا آخرتنا؟ وهل تُطلب أمور الدنيا ببذل الدين؟ وهل نطلب الدنيا عبادة بغير الشرع الشريف؟ وكيف تكون شهادتنا على الأمم بغير إلتزام خطى النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟..

ومن المؤكد أنه لا يحق لأحد يدعي الإسلام أن يتسبب عامداً في تشويه صورة الدين في أذهان البسطاء من الناس من خلال إغرائهم بأن مشاكل أهل السنة (أو جزءاً كبيراً منها) ستحل باستحداث أو إيجاد هيئة مرجعية دينية لهم، لم يكن لها وجود من قبل. أما فهم مكمن الخطأ الذي أبادر بالتنبيه إليه، فإنه يأتي من اعتبار أمور عدة، أهمها الآتي:

---

[٢٠] ثبت في الصحيحين قوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ اللهَ ليؤيدُ هذا الدين بالرجلِ الفاجر).



١-إن الفهم الإسلامي الصحيح يقوم على عدم الاعتراف بوجود طبقة كهنوتية، لها قدسية فوق مستوى بقية البشر، وتمارس دور الوساطة بينهم وبين خالقهم.. وهذه النقطة بالذات قد كانت سبباً في انحرافات أصحاب الديانات السماوية السابقة، كما وصفهم الحق جل وعلا بأنهم (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣١). كما أن هذه النقطة بالذات هي فرق جوهري بين منهاج أهل السنة وغيرهم من الفرَق. وإن عقيدتنا تقوم على عدم الإيمان بوجود عصمة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا يعني أنه مهما بلغ شأن إنسان آخر في العلم والورع والتقوى، فأنه لن ينجو مطلقاً من احتمال الزلل والوقوع في الخطأ.

٢-إننا نؤمن تماماً بشمولية الإسلام للزمان والمكان والأحوال، وهذا يقتضي إطلاق العنان للعقل البشري المبدع والمنضبط بضوابط الشرع، للإستنباط والتجديد المستمر، فيما هو دون الثوابت الإسلامية، ووفقاً لقواعد التشريع وأصوله ومقاصده، وتحقيقا لمصالح العباد في الحياة وفي المعاد. وبما أن القضايا الاجتهادية تختلف الأفهام عادة في تقديرها، فإنه يصعب إلزام الأمة وعموم الناس باجتهاد معين قد يكون مرجوحاً، وغيره أولى منه. وبالتالي فإن المجازفة في إطلاق تسمية المرجعية على شخص معين أو فئة معينة من الناس، هي مخاطرة لا يسوغ التهاون بها،





ما لم تجتمع كافة شرائطها (وهي يقيناً لا تجتمع)، لأنها قد تحرم الأمة من اتباع اجتهاد أصوب، بل قد تجرها إلى منحدر حضاري خطير..

٣- لم يشهد عموم التاريخ الإسلامي، بعد عهد النبوة، وجود مثل هكذا مرجعية، ذات طابع ديني للمسلمين. بل أنه حتى لما وجدت المرجعية السياسية القوية، في بعض أوقات الخلافة الراشدة، وبعدها، كانت الأمة تتقبل التنوع الفقهي والإجتهادي، ولم يشهد التاريخ الإسلامي برمته إلزام الأمة بمنهج فقهي اجتهادي معين. وبالمقابل فقد عانت الأمة كثيراً في فترات إنحطاطها، من محاولة بعض العقليات الجامدة فرض نفسها كمرجعيات شرعية لبقية الأمة، فزادت الطين بلة، وجعلت الأمة تدفع ثمناً باهظاً لأرائها المتخلفة.

٤- لا يوجد في القاموس الإسلامي موضوع فصل السياسة عن الدين بشكل كامل (وهذا أمر يختلف عن اجتناب الخوض المباشر في الفعاليات السياسية في ظرف معين درءاً لفتنة أو دفعاً لمفسدة)، فالسياسة والاقتصاد والاجتماع، وكل مناهج الحياة، ينبغي أن تخضع لضوابط الشرع. وبالتالي فإن تشكيل مرجعية دينية يقتضي أن تقوم هذه المرجعية بإعطاء الرأي الشرعي في كل قضايا الأمة، بما فيها قضايا السياسة الرئيسية، وعند ذلك سيخاف على تلك المرجعية من ألاعيب السياسة ومكر دهاقنتها في زمن الفتنة هذا.



٥- إن الإفتاء في قضايا الأمة المصيرية، كإعلان الجهاد والنفير، أو عقد تحالفات، أو إبرام اتفاقيات بعيدة المدى، هي أمور تتطلب فوق العلم الشرعي (المقصود اصطلاحاً)، إدراكاً عميقاً للواقع العالمي المتداخل، وتحولاته المستقبلية المتشعبة. ومثل هذا العلم بالواقع، والقدرة على تمييز طبيعة وتداخل الأحكام الشرعية المنطبقة عليه لا يجوز مطلقاً ولا ينبغي لغير مجموعة من العلماء الربانيين الراسخين، الذين سمت أرواحهم وزكت نفوسهم، وعركت أذهانهم مصارعة الباطل بشتى صوره وأشكاله، وامتزجت دماؤهم قبل عقولهم في خضم العمل الدعوي الدؤوب طويل النفس، فتحقق فيهم مقام الوراثة النبوية بنور من الله تعالى وبرهان.. وكل من سواهم فهو عالة على هذا الأمر، وأقصى شأنه فيه هو أن يكون مستشاراً لأولئك الربانيين.

٦- إن من مستلزمات حفظ هذا الدين هو بقاء طائفة منصورة ثابتة على الحق حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها[٢١]، وأن يكون هناك ميزان غير نسبي (أي مطلق) يمكن رد مختلف الأمور إليه وقياس رجحانها فيه من عدمه. وهذا الميزان هو الكتاب والسنة. فإذا ما وُضِع شيء آخر بدلاً عنهما، ضاع الميزان، وانتهى أمر القوم إلى بوار.. وبذلك بقي أهل السنة والجماعة يمثلون (أو يحتوون) الطائفة المنصورة، وتجلت بهم فاعلية

[٢١] وقد ورد في ذلك روايات عديدة، منها ما أخرجه الإمام مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ).



الإسلام على مر السنين.. وكل صرح للإسلام مشيد فهم صُنّاعه.. ولم يستطع أحد أن يحرّف عقائد أهل السنة وأصولهم على مر التأريخ.. في حين تقلّب غيرهم في أمواج متلاطمة من الانحرافات العقائدية والفكرية على مر السنين.

٧- إن القياس على وجود مرجعيات لفرق أو طوائف أخرى لا يستقيم مطلقاً لأسباب كثيرة ليس هنا مقام تفصيلها. وإننا مع احترامنا لشخوص تلك المرجعيات ومن يتبعها، فإن اختلافنا معهم لا ينكره أحد من الطرفين. وهو اختلاف معتبر له جذوره العقائدية والفكرية والتأريخية والبنيوية. لذلك فنحن إن قلنا بخصوصيتنا في أمر من أمور الخلاف لا يعني انتقاصاً من أحد بقدر تمسكنا واعتزازنا بما نعتقده من أصول، مثلما يعتز الآخرون بما يعتقدونه. ويلاحظ هنا تأثير العمق الزمني والتأريخي في أي إطار مرجعي من هذا القبيل. كما يلاحظ أن الحقيقة على أرض الواقع غالباً ما تختلف المظاهر الخارجية وعن التصورات المفترضة للأمور.

٨- وحتى لو قبلنا بتشكيل هكذا مؤسسة، فإن مجرد تجميع بضعة من العلماء، وعدد أكبر من أنصاف العلماء، وجمهرة من طلبة العلم الشرعي، لا يعني بحال تشكيل مرجعية علمية شرعية لأهل السنة. إذ لا بد من إحكام الروابط والعلاقات والنظام الداخلي الذي يحكم تحرك الرأي الشرعي في مراحله المختلفة وفي كل القضايا المعروضة، في





المسارات الصحيحة داخل المؤسسة، ليتم تمحيصه وتقليب أوجهه المختلفة، وبما يضمن خروجه بالصورة الأمثل على الملأ.. ومثل هذا يتطلب نمطاً شورويا متقدماً في الافتاء، وتصنيف مراتب العلماء، وقدراتهم وتخصصاتهم، ودور كل منهم.. فإذا ما تركنا حقيقة المستوى العلمي ودرجة السمو الروحي للأشخاص، فإننا لا نستطيع تجاهل مدى الصعوبة البالغة في إيجاد نمط منسّق عالٍ من هذا النوع.

ومما يجب ملاحظته في طرحنا هذا (وفي عموم الكتاب) هو أننا نولي الإهتمام بالدعوة الإسلامية من حيث هي واجب شرعي، وأمانة تلقيناها من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم، **وبذلك فإننا نتكلم عن المرجعية السنّية باعتبارها مرجعية الإقتداء بهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم في طريق السير إلى مرضاة الله تعالى، وليس باعتبارات سياسية متعلقة بصراعات دنيوية.. وعليه فإن من يزعم لنفسه أو لجماعته صفة المرجعية، فهو يدّعي مقام الوراثة المحمدية الكاملة. وهذه دعوى عريضة لا بد أن يكون له فيها من الله تعالى برهان.** ولا ينفع هنا مجرد الجدل العقلي أو النقاش العلمي في اثبات أمر خطير كهذا!

إننا نعتقد أن المرجعية الحق لأهل الحق هي التي اختارها الحق جل وعلا واصطفاها لهذا الغرض، كما أخبر هو عنها في محكم التنزيل بأمثال قوله: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ





مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:٣٢). وكما دلّنا عليها نبيه الأمين واعتبرها (الطائفة المنصورة) أو (الطائفة الظاهرة على الحق) في روايات متعددة، مما جعل بعض أهل العلم يعتبرون أن الحديث النبوي بهذا الشأن قد بلغ مرتبة التواتر. [ففي الصحيحين من حديث الْمُغِيرَةِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ). كما أخرجاه من حديث معاوية رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ). قَالَ عُمَيْرٌ: فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ: قَالَ مُعَاذٌ: وَهُمْ بِالشَّأْمِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ: وَهُمْ بِالشَّأْمِ..

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ). كما أخرج مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: (لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ). وأخرج مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)..





وأخرج أبو داود، والإمام أحمد، من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام). وأخرج الإمام أحمد، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَزَالُ لِهَذَا الْأَمْرِ- أَوْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ- عِصَابَةٌ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا يَضُرُّهُمْ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ)..

وجاء في مسند الإمام أحمد وِجادةً عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: (بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ). وله شاهد مما أخرجه الطبراني من حديث مُرَّة بن كعب البهزي رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لَا تَزَالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي عَلَى الحَقِّ ظاهِرِين على مَن نَاوَأَهُمْ، وَهُمْ كالإِنَاءِ بينَ الأَكَلَةِ حتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ وهُمْ كَذَلِكَ). قلنا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: (بأَكْنَافِ بيتِ المقْدِسِ).. كما أخرج أبو يعلى، والطبراني في الأوسط، وابن عدي في الكامل، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزَالُ عِصابَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ عَلَى أبوابِ دِمَشْقَ





ومَا حَوْلَهُ، وعلَى أبوابِ بيتِ المِقْدِسِ ومَا حَوْلَهُ، لَا يَضُرُّهُم خِذْلانُ مَن خذَلهم، ظَاهِرِين علَى الحَقِّ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)..

وهذا الحديث من الأحاديث المستفيضة المشهورة، بل يمكن أن يكون متواترًا فقد رواه ما يقرب من عشرين صحابيًّا، رضي الله عنهم، وفيه بشارة لهذه الأمة المحمدية ببقاء واستمرار وجود طائفة من هذه الأمة على الحق إلى أن يأتي أمر الله، لا يضرهم خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل. والمتأمل في هذه الأحاديث يجد أن بعضها حدد هذه الطائفة ببيت المقدس، وبعضها بالشام، وبعضها أطلق ولم يحدد، ولا خلاف بينها بإذن الله، حيث يمكن توجيه تحديد الطائفة بالشام وبيت المقدس على ما يكون قبل قيام الساعة، حيث تدل النصوص الكثيرة على أن معظم الأحاديث المتعلقة بالمهدي وعيسى ونحوهما من أحداث الساعة إنما تكون بالشام، فيكون قوله: (ببيت المقدس)، أي حال إتيان الأمر.

قال الحافظ ابن حجر، في فتح الباري، فيما نقله عن الطبري: (المراد بالذين يكونون ببيت المقدس الذين يحصرهم الدجال إذا خرج، فينزل عيسى إليهم فيقتل الدجال، ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى..).

وأما الأحاديث التي دلت على وجود الطائفة المنصورة ولم يرد فيها التحديد فتحمل على إطلاقها، والله أعلم، ويؤخذ منها وجود هذه الطائفة ولا يلزم



أن تكون محددة بمكان، قال الإمام النووي، في شرحه على صحيح مسلم: (وأما هذه الطائفة فقال البخاري: هم أهل العلم.. وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم.. وقال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث). وقال – النووي– أيضًا: (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض..)][٢٢].

ورغم أن أقوال العلماء قد اختلفت عباراتها في تحديد هذه الطائفة، فإن مثل قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في الكلام عنها: (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرف مَن هم) فيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه أهل الحديث بالمقياس الذي يعرفه الإمام أحمد، أي باعتبار أن أهل الحديث هم المؤتمنون على نقل إرث النبي صلى الله عليه وسلم إلى باقي الأمة. ومن الواضح أنه ليس كل من اشتغل قليلاً أو كثيراً بالحديث النبوي الشريف يُعد من أهل الحديث بمقياس ورؤية الإمام أحمد..

[٢٢] نقلاً بتصرف عما أورده د. محمد بن عبد الله القناص (عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم) بتأريخ ١٤٢٥/١١/٢٤هـ، في "ملتقى أهل الحديث"، على شبكة المعلومات الدولية.

إذا فالأمر يدور على مقام ولاية حقيقية لله تعالى ووراثة نبوية محققة. وبذلك ينكشف لنا سر برهان أهل هذه الطائفة المنصورة (أو على الأقل من هم نواتها وتاجها) بأنهم الأولياء لله الذين تكون صفة أحدهم كما أخبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[٢٣].. قال ابن تيمية رحمه الله تعالى، عن هذا الحديث: "هو أشرف حديث روي في صفة الأولياء"، وقال الشوكاني: "هذا الحديث قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع، جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها وتدبرها كما ينبغي".

فالمنصور الظاهر على الحق الذي لا يضره من خالفه أو خذله هو من كان يسمع بالله ويبصر بالله ويمشي بالله ويبطش بالله، وهو مكرّم معزز عند الله تعالى.. ومن كانت هذه صفته، فهو صاحب البرهان الدامغ بالولاية الحقة. وعباد من هذا الطراز هم مصابيح الهدى التي يُرجع إليها إذا ادلهمت الخطوب واشتدت رياح الفتن. وهذه هي المرجعية التي ينبغي لكل مسلم يرجو الله واليوم الآخر أن يبحث عنها، وخصوصاً من أقام نفسه في مقام

---

[٢٣] رواه البخاري

الدعوة إلى الله تعالى. وأما الكلام في صغائر المسائل الفقهية فيحسنه الكثيرون.

وسيسأل سائل كيف أستدل على هؤلاء العباد الخلّص؟ وكيف أميزهم عن غيرهم في زمن كثر فيه الأدعياء؟..

وإنه لخطب عظيم، ولكنه يسير على من يسره الله تعالى له. وقد قال الشيخ ابن عطاء الله السكندري في حِكَمِهِ: (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه).. فالله تعالى هو الهادي، قال تعالى: (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) (الأحزاب:٤). ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يهدي إلى صراط مستقيم، قال تعالى مخاطباً نبيه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى:٥٢). وقد أخبرنا الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن رب العزة جل وعلا أنه قال: (يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)[٢٤]، فلم يبق لنا إلا نطلب الهداية من الله في هذا الأمر وفي غيره..

وليطرح كل منا نفسه بباب مولاه، محسناً الظن بربه، مفرغاً قلبه من كل شيء إلا من حب الله تعالى وحب رسوله، تاركاً النظر إلى علمه أو ماله أو

---

[٢٤] جزء من حديث قدسي عظيم رواه مسلم في صحيحه. وكَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ رحمه الله إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.



عمله، متبرءاً من حوله وقوته، وليظهر فاقته ونقصه وجهله، ويطلب الهداية والدلالة من العليم الحكيم بأدب وتجرد.. ولا يمل من الوقوف بذلك الباب.. وحاشا للكريم أن يرد أحداً يقف ببابه. وقد قالوا: (ومَن أدمَنَ قَرعَ الباب ، يوشك أن يُفتح له)[٢٥].. وقال ابن القيِّم في كتاب الفوائد: [لا تَسْأَم الوقوف على الباب ولو طُرِدتَ، ولا تَقطع الاعتذار ولو رُدِدْتَ، فإن فُتِح الباب للمَقبولين دونك، فاهْجم هجومَ الكذَّابين، وادْخُل دخول الطفيليَّة، وابْسُط كفَّ (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) (يوسف: ٨٨)].. والله تعالى يقول: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:٦٩).

فإذا وقفت بباب مولاك الكريم فادعو بالمأثور، أو تخير من الدعاء ما يناسب حالك ويتحرك له قلبك.. ولعلك تدعو بالدعاء المنقول عن الإمام أحمد رحمه الله: (يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين)[٢٦]. واعلم أنك تطلب جوهراً نفيساً من الملك الغني عن كل ما

---

[٢٥] ممن أوردوا هذا القول، ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم.

[٢٦] قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع فتاواه، لمَّا سُئِل عن الدعاء بذلك: [وقد قال الإمام أحمد رضي الله عنه لرجل ودّعَه: (قل: يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين)..وقد أنكر طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر، وأبي الوفاء ابن عقيل، أن يكون من أسمائه –تعالى- الدليل؛ لأنهم ظنوا أن الدليل هو الدلالة التي يستدل بها، والصواب ما عليه الجمهور؛ لأن الدليل في الأصل هو المعروف للمدلول، ولو كان الدليل ما يستدل به، فالعبد يستدل به أيضاً فهو دليل من الوجهين جميعاً].





سواه، فحسِّن ونظِّف إناءك الذي تطلب العطاء فيه تأدباً في المسألة.. وما ذلك الإناء إلا قلبك.

وطالما أننا فتحنا الباب في حديث القلوب الذي أصبح عزيزاً في هذا الزمان، فسأتكلم عن موضوع متصل تغافل عنه الأكثرون رغم عظيم أهميته. وهذا الموضوع يتعلق بخصوصية العترة النبوية المباركة. وللأسف فإن هذا الموضوع قد تم تجاهله كثيرا في الأزمنة الأخيرة ربما كرد فعل خاطيء تجاه بعض من تاجر بدماء أهل بيت رسول الله صلوات ربي وسلامه عليهم ابتغاء عرض من الدنيا زائل. ولكن الحق أحق أن يتبع، ونسأل الله تعالى أن نكون أحق الناس بالنبي محمد وآله سلام الله عليهم، فمحبتهم ركن الدين المتين.

ولكي لا يظن أحد بنا الظنون، ولا ينقلنا إلى أراء قيلت في ظروف تأريخية معينة، فلنذهب إلى حديث الصادق المصدوق في هذا الشأن، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به)، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: (وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي). فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من





حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[٢٧].

وفي سنن الترمذي عن زيد أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[٢٨].

والحديث باللفظ الذي ذكره الترمذي وبألفاظ مشابهة صححه العديد من علماء أهل السنة ومنهم الشيخ الألباني. وقد وردت في كتب السنة روايات عديدة قريبة من هذا اللفظ عدّها بعضهم حديثا واحدا متواتر الإسناد والمعنى، مختلف اللفظ بما مؤداه واحد، وقيل بأنه حكم بتواتره الحفاظ المزي وابن كثير والذهبي. كما قال طائفة من أهل السنة، ممن صححوا الحديث بلفظ الترمذي، أن الحديث يدل على أن مجموع العترة الذين هم بنو هاشم لا يتفقون على ضلالة.

وكلامنا عن خصوصية ما لأهل البيت عليهم السلام لا يقدح مطلقاً بمنزلة الصحابة ولا باعتقادنا عدالتهم. كما أن الحديث لا حجة فيه لمن طلب

---

[٢٧] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

[٢٨] وقد رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري، والترمذي في سننه، عن أبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم رضي الله عنهما، وقال عقبه: "هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه". والطبراني في "الصغير" عن أبي سعيد أيضا..وصححه الألباني في صحيح الجامع.



الرياسات بادعاء محبة أهل البيت وهو أشد المخالفين لأدبهم ومنهجهم. وليس هذا مجال الرد على مَن حاولوا لَيَّ أعناق النصوص والأحاديث، لهوى في أنفسهم، من الفرق التي خالفت منهج الإعتدال والإنصاف، إذ كتابنا هذا ليس موجهاً لأحد منهم بالأصل، ولكننا نخشى أن تتسبب رعونات أولئك بتقصير أحد منا في إدراك المكانة العظيمة السامية لأهل البيت سلام الله عليهم، والتي تفوق كثيراً ما يعتقده حتى من ادّعى حبهم.

كان هذا ما يتعلق بالروايات التي ذكر فيها (كتاب الله وعترتي أهل بيتي)، وأما حديث (كتاب الله وسنّتي)، فقد روى الإمام مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنّة رسوله)[٢٩] وقد حسن سنده الألباني. وهذا الحديث الذي أورده الإمام مالك في الموطأ بلاغاً، قد وصله بعض أهل العلم من طرق أخرى، ومنهم من صحح أو قبل بعضها، بل منهم من اعتبره مستغنياً بشهرته عن الإسناد، كابن عبد البر في "التمهيد".

وقد تكلم بعض أهل العلم في هذين الحديثين الأخيرين (حديث الترمذي وحديث الإمام مالك) غير ما ذكرنا، لكن الراجح عندي —والله تعالى أعلم– هو صحة الحديثين بمجموع طرقهما، وإن كان حديث (كتاب الله وعترتي أهل بيتي) أثبت وأقوى من حديث (كتاب الله وسنّتي). وعليه

[٢٩] رواه مالك مرسلا في الموطأ، والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس.



فالحري بالمسلم بشأن هذين الحديثين هو الجمع بينهما، كما سمعته من بعض أهل العلم، إذ الجمع بينهما ممكن وسائغ.

قال الألباني[٣٠]: والحاصل أن ذكر أهل البيت في مقابل القرآن في هذا الحديث كذكر سنة الخلفاء الراشدين مع سنته صلى الله عليه وسلم في قوله: (فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين ...)[٣١]. قال الشيخ القاريء (١٩٩/١): (فإنهم لم يعملوا إلا بسنّتي، فالإضافة إليهم، إما لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها) – انتهى-.

وهذا ما يعطينا إشارة بالغة الأهمية إلى ما كنا بصدده عن المرجعية الشرعية الحق لأهل السنة والجماعة والدلالة إليها في كل زمان، وهو ترشيح (بعض) من أهل البيت ليكونوا دوماً من الوراث المحمديين الذين هم تاج هذه الطائفة المنصورة. قال ابن حجر[٣٢]: (وفي أحاديث الحث على التمسك

---

[٣٠] الألباني: السلسلة الصحيحة ٤ / ٣٥٥

[٣١] أخرج أبو داود والترمذي وإبن ماجة وأحمد وإبن حبان والحاكم عن العرباض بن سارية قال: ثم وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ). وهو حديث تلقاه الأئمة بالقبول وصححوه، كالبزار في مسنده، نقله عنه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله وأقره، وكذا أبو نعيم الأصبهاني، والضياء المقدسي، وجمع يطول ذكرهم، ذكرهم الشيخ الألباني -رحمه الله- في الصحيحة.

[٣٢] ابن حجر: الصواعق المحرقة (٤٢٢/٢)





بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة، كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض).

إذا فخصوصية أهل البيت (أو من تأهل منهم في الأقل على لفظ الإمام ابن حجر) هي أكبر بكثير من الرياسات الدنيوية ومن التدافع عليها، إنها الإمامة الدينية والوراثة النبوية، الدالة على الحق بالحق.. فهم سفن النجاة ومنارات الهدى عندما تشتد الملمات وتدلهم الخطوب. وعلى هذا نفهم إجابة سيدنا علي سلام الله عليه ورضوانه عنه لما سُئل عن اختصاص رسول الله لهم بشيء، فعن أبي جحيفة رضي الله عنه، قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه **إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن**، وما في هذه الصحيفة). قلت: وما في الصحيفة؟ قال: (العقل وفكاك الأسير وأن لا يُقتل مسلم بكافر)[٣٣].

فقد نفى سيدنا علي رضي الله عنه أن يكون رسول الله قد خص أحداً من أهل بيته بشيء من الشرع العام الظاهر الذي ينبغي أن يعلمه ويلتزم به كل مسلم. وأما قضية الفهم الدقيق في معضلات المسائل الشرعية والنوازل التي تلم بالأمة وخصوصا في ظروف اشتداد الفتن، فهذه قضية أخرى زائدة يخص بها من يشاء من عباده تفضلاً وكرماً. ولأهل البيت ونسل النبوة في

[٣٣] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسيَر).



هذا القدح المعلى، وإن لم يكن الأمر محصوراً بهم لوحدهم. ولذلك شهد تأريخنا أكابر الصحابة والتابعين وبقية السلف الذين إن فاتهم أن يكونوا من أهل بيت النبوة نسباً، فما فاتهم أن يكون حسن الاتباع لهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبباً لهم لعز الدنيا والآخرة. قال الله تعالى في محكم التنزيل: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ..) (الأحزاب:٦). وقد جاء في الأثر في مناقب سيدنا سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه: (سلمان منا أهل البيت)[٣٤].

[٣٤] عن أبي البختري قال: قالوا لِعَليٍّ –رضي الله عنه-: أخبرنا عن سلمان، قال: (أدركَ العلمَ الأولَ، والعلمَ الآخر، بحرٌ لا ينزح قَعْرُه، هو منا أهل البيت)، أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف"، وابن سعد، وأبو نعيم في "الحلية"، وابن عساكر. وقال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة أن حديث (سلمان منا أهل البيت) لا يصح مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويصح موقوفا عن علي رضي الله عنه.

الفصل السادس:

الحركة الإسلامية بين تساهل الحمائم وتشدد الصقور

كثيراً ما كنت أتأمل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (المائدة:٥٤)، كلما مررت عليه.. وكان وصفه تعالى لهؤلاء القوم بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم، يبقى مثار تساؤل خجل في داخل نفسي، فأقول إذا كان هؤلاء القوم بكل هذه الصفات من محبة الله تعالى لهم وحبهم له، وتواضعهم أمام اخوانهم، وعزة الإيمان التي رفعهم الله بها، وجهادهم في سبيله تعالى.. قوم بكل هذه الصفات، فما الحاجة لأن ينص الله تعالى في وصفهم بأنهم لا يخافون ملامة اللائمين؟.. هل لإنسان بهذا المستوى من العلاقة بالله تعالى، وبهذا المستوى من السمو العقيدي الخُلقي، وبهذا المستوى من البذل في سبيل الله.. إنسان مثل هذا هل هو بحاجة حقا لأن يوصف بأنه لا يخاف في الله ملامة؟ ألا يعد هذا مجرد تحصيل حاصل بالنسبة لذاك الانسان؟ وإذا كان الإمر كذلك، فما الداعي لأن ينص الباري على ذلك في كتابه نصاً؟..



أسئلة من هذا القبيل طالما راودتني، كنت أحار فيها، فلا أجد ملجأ من الخروج من دوامتها إلا بكثير استغفار، ومزيد استعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم.. واستمر الأمر هكذا، وكان لا بد لي من تجربة واقعية قوية، تكون فيها لملامة الأتباع، وملامة جماهير الناس، الدور الكبير في التأثير على قرارات من وضعوا أنفسهم (أو وضعهم غيرهم) في مقام القيادة والتوجيه، لتتفتح نوافذ عقلي على ما أغلق عليها، وعصي عليها فهمه في السابق.. وكانت هذه التجربة هي قضيتنا العراقية بعد الاحتلال الأمريكي.. وأية تجربة هي؟! من لم يفهم دروسها فلا فهِمَ ولا علِمَ.

لقد عانى المسلمون على مرّ تأريخهم، فيما عانوه، من مشكلة التسلط الفردي أو الأسري، وذلك ما يصطلح عليه الآن بـ(الدكتاتورية). وكرد فعل على ذلك، تحرك كثير من مفكري وعلماء الإسلام المعاصرين، نحو نقد هذا التسلط، والتنظير لأفكار ونماذج القيادة الجماعية، والعمل المؤسساتي. وتبعاً لذلك، أصبحت أكثر التجمعات والحركات الإسلامية اليوم تمارس صيغاً انتخابية أو (ديمقراطية)، تقارب فيها إلى حد ما الفكر الإسلامي الشوروي.

ورد الفعل المذكور آنفاً هو حالة صحيحة بحد ذاته من حيث الأصل، ولكن من الممكن أن يحدث تطرف فيه وخصوصا على مستوى الممارسة والتطبيق، وهذا ما حصل فعلاً. بل وأصبح بعض المنظرين ينكرون أهمية دور الفرد القائد أو المفكر أو المربي في حركة التاريخ، معتبرين أن حركة الحضارة



والتأريخ تنتجها فاعلية المجاميع، لا عبقريات الأفراد. وهذا كلام صحيح ولكن جزئياً فقط..

ففاعلية المجموع لا بد من أن تتوّجها عبقرية الافراد، ليؤتي الفعل أُكُلَهُ. لا بل أنه وفي منعطفات التأريخ المهمة، يكون للعبقريات الفردية دورها العظيم في حسم الصراع لصالح مجموعة فاعلة معينة على حساب مجموعة أو مجاميع فاعلة أخرى. ولو أشرنا إلى دور بعض الأنبياء والمرسلين في هذا السياق لكفانا مثلاً.

إن التأكيد على الفعل الجماعي المتكامل ونمط العمل المؤسساتي، لا يستلزم بالضرورة انكار دور الفرد القائد. ونماذج الدول الحديثة المتقدمة في عالم اليوم، تقنن دور القائد (الرئيس) بتحديد دائرة معينة لفعله بما ينسجم مع صلاحيات المؤسسات القيادية الأخرى، كالبرلمانات والمجالس المختلفة، ولكنها لا تلغي الدور القيادي لهذا الفرد القائد. وفوق ذلك فإن الصلاحيات القيادية لهذا الفرد غالباً ما يتم زيادتها (وفقاً لإجراء قانوني معين) في ظروف الأزمات والمنعطفات التي تمر بها هذه الدول. وأسلوب الدول المتقدمة هذا، من حيث المنطلق والنتيجة، أسلوب يسترعي الانتباه والتفاعل معه، لشيء بسيط في الأساس، ذلك كونه ينسجم مع الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية..



وإذا ما أردنا مثلاً آخر للإستدلال بما نقول، فلنتخيل موقف الدولة الإسلامية الفتية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وارتداد أعراب الجزيرة، كيف كان يمكن أن يكون، بل لمستقبل الاسلام برمته كيف كان يمكن له أن يتأثر، لولا أن وفق الله تعالى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه (الفرد القائد المشاوِر) لذلك الموقف القيادي العظيم، الذي أقنع بقية الجماعة الفاعلة من الصحابة، الذين كانوا يخالفونه الرأي بادئ الأمر.. لنتخيل الموقف لو كان أبو بكر آنذاك عضو مجموعة قيادية مكونة من عدة أشخاص تعطي قراراتها بالأغلبية (وفق النمط الديمقراطي الحديث الذي تولعت به بعض الحركات الإسلامية المعاصرة)، هل يا ترى كان يمكن للصدّيق أن يقنع الغالبية برأيه في وضع مفترض كهذا؟ سؤال نتوقف عنده.. وإذ أنا أسوق هذا الكلام، فأنا لست ممن يعارض الأساليب الانتخابية (الشوروية ولا حتى الديمقراطية من حيث الأصل)، ولكني أنبه إلى ضرورة عدم التطرف في الموقف سواء على مستوى النظرية أو مستوى التطبيق، رغم ألم جراح التسلط في جسد الأمة إلى يومنا هذا..

وقد كثر الكلام والتنظير في السنوات الأخيرة إلى أهمية إعطاء ثقل أكبر للشورى (أو للديمقراطية بعيداً عن قضية التأصيل لهذين المصطلحين حالياً)، ودور أكبر للقواعد، في عملية اتخاذ القرار في المؤسسات الإسلامية المختلفة. وإذ أنا أتفق مبدئياً مع هذا الطرح وأشجعه، فإني أحذر أي مؤسسة إسلامية عند التطبيق من عملية الاقتباس الأعمى، ومن إهمال قواعد النسبية



في مثل هذا الشأن، لأن مثل هذه الممارسات تتطلب نمطاً ومستوى من الوعي الفكري والثقافي، ومن الرسوخ الروحي والخلقي والسلوكي، قد لا يكون بالضرورة متوفراً لدى تلك القواعد (ولا حتى القيادات)، أو لدى من يؤخذ رأيهم بالشورى؛ وبالتالي فأن الأسس الضمنية التي قامت عليها النظرية، قد لا تكون متوفرة عند التطبيق..

وقد أثبتت لنا محنة العراق بعد الاحتلال الأمريكي له أن أندر الصفات القيادية على الاطلاق هي صفة (الذي لا تأخذه في الله لومة لائم)، التي أرادتها الآية القرآنية التي ابتدأنا بها حديثنا هذا.. فمع وقعة الإحتلال على بلدنا، وقعت الحركة الإسلامية في العراق بخطأين رئيسيين في التقدير، هما:

١- عدم تقدير حقيقة وخطورة النفسية المنهَكة والواقع الفكري المتعَب لمعظم أبناء الشعب الذين أرهقتهم سنوات ما قبل الاحتلال من حصار وحروب وفرض لفكر واحد ومنطق أوحد.
٢- عدم تقديرها لحجمها الحقيقي في الساحة العراقية بدقة، وبالتالي تحميلها لنفسها دوراً أكبر من حجمها وفوق طاقتها، سرعان ما ظهرت انعكاساته السلبية على الحركة نفسها وعلى جماهيرها..

وهكذا بدأت الحركة الإسلامية في العراق عملها بعد الاحتلال بتركيز غير مسبوق على العمل السياسي العلني (رغم وجود مشاريع من أنماط أخرى غيره). وكان الأغلب والأظهر في الخطاب العام لهذا العمل السياسي

(الإسلامي) في بدايته (في عامه الأول تقريبا) أنه يميل نحو الطرح السلمي السياسي الهادئ، الذي يتجنب الإصطدام بالمحتل، ويرفض الوصول إلى الإختناق السياسي مع القوى السياسية الأخرى الموجودة في الساحة العراقية، ويرفض أي تفاعل معلن مع فعاليات المقاومة المسلحة وطروحاتها آنذاك. لذلك أثمر عن هذا التوجه كسباً سياسياً معلوماً، وتعاملاً مفتوحاً وغير معقد مع الجماهير. وكأي تجربة (وخصوصاً على هذا المستوى من الجدّة) فقد كانت هناك إيجابيات وسلبيات، رافقت الأداء في تلك المرحلة، والنتائج التي تم الحصول عليها فيها. ويمكن لنا أن نسمي تلك المرحلة من العمل السياسي (الإسلامي) بمرحلة قيادة (الحمائم)[٣٥]..

ولكن ومع مرور الوقت بدأ حجم النتائج لذلك المشروع يقل (على الأقل من وجهة نظر معينة) شيئاً فشيئاً. وهذا الأمر بالتحديد هو ما دفع أفراداً كثيرين من الحركة الإسلامية وجماهيرها إلى إجراء مراجعة سريعة لاشعورية في دواخلهم، لتقصي أسباب الخفوت النسبي في الأداء، وتقلص حجم النتائج المتحققة. وقد بدأت تلك المراجعة اللاشعورية بوقت ليس بالقصير، قبل بدء أية مراجعة رسمية واسعة على مستوى الحركة الإسلامية، مما أدى إلى خلق

[٣٥] الحمائم والصقور، مصطلحان دارجان حالياً في السياسة والإعلام لوصف الطرفين (المعتدل أو المتساهل) و(المتشدد)، بالترتيب، في كيان سياسي أو مؤسسي معين – ورغم إني لا أميل إلى هذه المصطلحات، غير أنها تكفي لإيصال المطلوب، ولا مشاحة في الاصطلاح.



أجواء مستقطبة وغير محايدة (في اللاشعور) حددت مسبقاً نتائج أية مراجعة رسمية لاحقة.

وباعتقادي أن هناك خللاً مهماً قد حدث في عملية المراجعة اللاشعورية تلك. وهذه أهم أسبابه:

١- ما ذكرناه سابقاً من خطأي التقدير الذي وقعت فيه الحركة الإسلامية في العراق، من مبالغة في تقدير حجمها، وعدم الانتباه بشكل كافٍ إلى واقع المجتمع العراقي عموماً، والسني خصوصاً. وهذان الأمران جعلا كل فرد من أفراد الحركة الإسلامية يضع في داخله نموذجاً مثالياً، وبعيداً عن الواقعية، لما ينبغي أن يحققه أي مشروع إسلامي في عمله من نتائج على مستوى الساحة العراقية، ولما ينبغي أن يتلقاه من دعم من الجمهور. ولذلك كانت نتيجة المقارنة البسيطة لما تم تحقيقه فعلاً من نتائج مرحلية، ولحجم التأييد الجماهيري، مع ذلك النموذج المبالغ في مثاليته، كانت النتيجة سلبية بشكل واضح.. ولم ينتبه كثيرون إلى وجود خلل في النموذج القياسي الذي وضعوه لأنفسهم أصلاً.

٢- أما السبب الثاني فهو وجود خلل في الفهم الإسلامي الراسخ المبني على أصول التشريع ومقاصده وكلياته الكبرى لدى بعض القيادات ولدى أكثر قواعد الحركة الإسلامية. ففي الحقيقة لم يكن عمل الجميع (ولا حتى الأكثر) من أفراد الحركة الإسلامية في مجال العمل السياسي



(في ظل الاحتلال) منبعث من قناعات ذاتية نابعة من داخل ضمير وفكر الفرد، بقدر ما كانت حصيلة تربية جماعية تقوم على السمع والطاعة، تهاوى عدد لا بأس به من أركانها عندما استشعرت القواعد اختلافاً في الرؤية الاجتهادية لدى القيادات بشأن متطلبات المرحلة (وطبعاً نحن هنا نفترض حسن النوايا عموماً ولسنا نتكلم عن الانتهازيين الذين اخترقوا الصفوف، على كثرتهم).

٣- وجود طرح مغاير يتبنى العمل العسكري المباشر في مقاومة المحتل، وينتقد المسلك السياسي باعتباره جبناً وخروجاً عن القواعد الشرعية الصحيحة، ويحاول أن يعتبر كل تلكؤ أو اخفاق في المسلك السياسي دليلاً على صحة منهجه هو. ورغم عدم وجود منطق شرعي يلزم بهذا، فإن الخلل في الرسوخ الفكري والثبات كان كافياً لإخفاء الخلل المنطقي والمبدئي في هذا النوع من الإستنتاج.

٤- عدم الادراك الكافي للنسبية في جانبين مهمين. الأول: هو أن الحركة الإسلامية يفترض أن تحكمها قواعد الشرع الحنيف التي يتفلت منها غيرها من الحركات (التي لا تتبنى منهج الإسلام). والثاني: هو أن العدو الصليبي الصهيوني لا يمكن أن يسمح للمسلم الواعي المعتز بدينه بما يسمح به لغيره، لأنه الوحيد القادر (بفضل الله تعالى) على بناء مشروع حضاري ينافس مشروع المحتل وقيم حضارته المشوهة،

ولذا فإن هذا العدو لن يألوا جهداً في سحب البساط من تحت أي جهد إسلامي يمكن له أن يصب في هذا الإتجاه.

٥- وجود تطرف كبير واضح لدى جهات أخرى عاملة في الساحة العراقية. وهذا الأمر يولد تطرفاً مقابلاً ويشجع عليه بشكل طبيعي. يضاف إلى ذلك قيام المحتل (من حيث يدري ومن حيث لا يدري) بالدفع نحو التشدد أو التطرف.

٦- قلة الوضوح والتأصيل في بيان الحدود الفاصلة بين القرارات الجماعية وبين الخيارات الفردية للقيادات بالنسبة للحركة الإسلامية (كمؤسسة تنظيمية)، مما أدى إلى الصعوبة في تحديد موطن الخلل، وإلقاء اللوم جزافاً بطريقة ما أو بأخرى بين مختلف المستويات.

ونظراً لعدم وجود رؤية متكاملة مطروحة من قبل القادة، ومقنعة بالنسبة للقواعد والجماهير، حول الطريق الذي تسير فيه القضية العراقية، وما يتطلب من خطط وأساليب عمل، فكيف يُقوِّم شخص ما أداءً في قضية لا يدرك بوضوح أبعادها؟.. لذلك فقد بدأ يسود (في السنة الثانية أو الثالثة من عمر الاحتلال تقريباً) شعورٌ لدى الأكثرين من أبناء الحركة الإسلامية وجماهيرها بأن مشروعهم السياسي (الإسلامي) بقيادة (الحمائم) لم يحقق ما كان مرجواً منه. وعليه تحركت الأمور داخل الحركة الإسلامية بإتجاهين رئيسيين. الأول: اعتبار موضوع تبني خط العمل السلمي السياسي برمته خطأً، أو (على الأقل) اعتبار المشاركة ضمن العملية السياسية الرسمية بوجود سلطة



الاحتلال خطأً. أما الإتجاه الثاني فهو لم يعتبر ما تقدم خطأ في الأساس، ولكنه اعتبر أن أسلوب عمل (حمائم) القيادة ضمن هذا الإطار كان قاصراً وتشوبه الأخطاء في التقدير وفي الموقف.

وفي مثل هذه الأجواء، والظروف المعقدة الفريدة من نوعها، أصبح الجو داخل عموم الحركة الإسلامية (كما هو خارجها) ملائماً جداً لنشاط (الصقور) وحشدها للتأيد الأكبر في مختلف الساحات، من خلال خطابها المتشدد.. وبدأ البساط يسحب شيئاً فشيئاً من تحت أرجل (الحمائم)..

وأنا لا أريد أن أتبنى مرحلة معينة أو توجهاً إجتهادياً معينا وأزعم خلوه من أية سلبيات، ولكني أريد التنبيه إلى أن المرحلة التالية من قيادة (الصقور) للمشروع السياسي (الإسلامي)، ورغم خطابها الانفعالي، و(تكتيكاتها) السياسية لاستعادة كسب ثقة الجماهير، فإن التحسن في هامش النتائج كان جزئياً ومؤقتاً فقط. عاد بعدها الخط العام للأداء والمكاسب السياسية إلى النزول مجدداً وبشكل لافت. وبوسعنا أن نضيف بعض الملاحظات المهمة المتعلقة بمرحلة قيادة (الصقور) والتي كانت أطول زمنياً من المرحلة الأولى، قبل أن تحصل حالة من الانكفاء العام لذلك المشروع برمته. وهذه الملاحظات هي:

١- ان التصور القائم على أن الحركة الإسلامية فقدت التأييد الجماهيري الذي حظيت به في بادئ الأمر (أي بعد الاحتلال مباشرة) هو



تصور صحيح لكنه غير دقيق. وذلك أن الجمهور الذي تفاعل مع الحركة أول الأمر ليس هو جمهوره الفعلي، بل كان تفاعل جزء كبير منه عفوياً لخلو الساحة من منافس حقيقي آنذاك. وعندما تغيرت الظروف سريعاً، كان توجه جزء كبير من ذلك الجمهور إلى تأييد توجهات أخرى أمراً طبيعياً ومتوقعاً جداً. وبناءً عليه، فإن الاعتقاد بأن مجرد تغيير طروحات ومواقف المشروع السياسي (الإسلامي) هو كافٍ لإعادة كسب ذلك الجمهور، هي مسألة فيها نظر.

٢- في الوقت الذي بدأ التحول واضحاً في خطاب (صقور) الحركة الإسلامية بتأكيد التقارب مع المقاومة المسلحة، بدأ فيما بعد (وبوقت غير طويل) تحول آخر في مواقف جزء كبير من الجمهور (السني) نحو تأييد نسبي للمشاركة السياسية بعد أن كان يرفضها رفضاً قاطعاً أول الأمر. وكأن خط التحول في خطاب الحركة الاسلامية كان يسير باتجاه معاكس لخط سير التحول في قناعات الجمهور السني!

٣- بينما بدا أن المشروع السياسي (الإسلامي) كان في المرحلة الأولى ينطلق من قناعات ذاتية واضحة بالخط السلمي ونبذ العنف، أصبح مرحلته الثانية (مرحلة الصقور) وكأنه متهم يريد الدفاع عن نفسه أمام الجمهور.. وهذا ما أوحى بشكل قوي بضعف موقف الحركة الاسلامية العراقي في الساحة السنية.





٤- لا يصح لمن يزعم لنفسه طلب مرضاة الله تعالى في عمله أن يكون معيار نجاحه المطلق هو مدى حشده للأنصار أو كسبه الجماهير فحسب، خصوصاً إذا ما اصطدم ذلك بثوابت الشرع والعقل، وإذا ما كانت حالة الجمهور هي حالة مرضية انفعالية وليست حالة صحية محايدة. وإذا ما اختارت جهة ما هذا الأسلوب، فإنها سوف تكون موضع اتهام وموضع شك برؤيتها وغايتها ومنطلقها معاً، بغض النظر عن التسميات. وإن العاصم من قواصم هذا الزمن الذي وجدنا أنفسنا فيه هو الاستقامة على منهج ارضاء الله تعالى دون سواه، وإلا تفرقت بنا السبل..

٥- إن مما يأسر الانسان الواعي خصوصاً، هو ثبات جهة ما على نهج ثابت وخطاب واضح. أما التذبذب بين أمرين فهو ما يثير اللبس والشبهة، ويُفقد الثقة بتلك الجهة. أليس التردد بعد عزم الانطلاق دليل نقص؟ وأليس التأرجح بين موقفين وقلة الحزم في ذلك مثار قلق؟ ألم يعظنا أهل السلوك الصادقين من قديم بأنَّ (الملتفتَ لا يَصِل)؟ ألم يمكن (مثلاً) منذ البداية أن يكون هنالك مشروعان سياسيان متوازيان، يقوم الأول بالدخول في العملية السياسية متحملاً ضريبتها، بينما يلتزم الآخر خط المعارضة السياسية السلمية إلى حين؟ وإذا كانت الرؤيا ضبابية فلماذا المجازفات غير المتانية؟



٦- إن عملية الاستدراك التي حاول (الصقور) القيام بها لم تفلح في التعامل بشكل صحيح مع المسألة، لأنها لم تستطع أن تتلمس تماماً الفرق بين الطاقة الكامنة والطاقة الحركية.. وبالتالي فإنها ربطت ربطاً خاطئاً (على مستوى التنظير) بين (القوة) و(المقاومة)، دون مسوغ منطقي ملزم بهذا الربط.

ورغم أن كلامنا هذا كله قد يبدو أنه أصبح جزءاً من الماضي، فإن إيراده يبقى مهماً لنا في موضوع كتابنا هذا كونه يكشف لنا بعضاً من الأخطاء المنهجية التي وقعت فيها الحركة الإسلامية المعاصرة مما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في بعثة التجديد القادمة بإذنه تعالى. والأمر ليس انتقاصاً من شخص ولا من جهة أو جماعة. وكل قد أفضى لما قدم، نسأل الله تعالى أن يصلح حال أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جميعاً. ولكننا نعرض نقداً بناءً ونصحاً خالصاً باعتبار أن ذلك هو من صميم واجب المسلم تجاه إخوانه. وقد ورد عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطاكم إلى غيركم وسيتخطى غيركم إليكم، فخذوا حذركم).

وبعد هذا الرصد الواقعي، ننطلق إلى أنموذج نظري مهم يعيننا في فهم كثير من جوانب القصور لدى عموم الحركات والجماعات الإسلامية المعاصرة. وهذا الأنموذج يدعى (كهف إفلاطون) نسبة إلى الفيلسوف الإغريقي إفلاطون (الذي توفي عام ٣٤٧ ق. م.). حيث ضرب هذا الفيلسوف مثلاً

تخيلياً عن أناس يعيشون في قعر كهف. وهؤلاء الناس هم مقيدون وظهورهم إلى جدار الكهف، فلا يستطيعون الابتعاد عن ذلك الجدار. وهم على هذه الحال منذ ولادتهم فلم يخرجوا من هذا الكهف مطلقاً، فهم يعيشون في ظلمة الكهف طوال حياتهم، ولم يعرفوا لهم عالَماً غير هذا. وكان هناك أناس آخرون يأتون في كل ليلة فيجلسون مقابل مدخل الكهف من الخارج، ويشعلون ناراً فيتحلقون ويرقصون حولها. فتنعكس صورة ظلال هؤلاء الناس في الخارج وهم يتحركون حول لهب النار من فتحة الكهف على جدار الكهف المقابل لوجوه الناس المقيدين في داخله. فكل ما يستطيع رؤيته الذين في داخل الكهف هو الصورة ثنائية اللون من سواد ظلال الناس المتحركين في خارج الكهف وهي مرتسمة داخل انعكاس لهب النار المضيء.

وكانت تلك الصورة الظلية الباهتة المتكررة في كل ليلة هي كل ما رآه الناس المقيدون داخل الكهف طيلة حياتهم. ولم يكن هناك تواصل مع خارج الكهف من أي نوع آخر عدا رؤية تلك الظلال الباهتة المتحركة. وبالتأكيد فهذا مثل خيالي محض ولكن يمكن استعماله لتوضيح أمور بالغة الأهمية، والأمثال تضرب ولا تقاس.

ثم أننا لو افترضنا تفلت واحد من أهل ذلك الكهف من قيده وخروجه في أحد الأيام إلى خارج الكهف. وعند ذلك فسوف يرى ولأول مرة في حياته الألوان اللامتناهية الموجودة في الطبيعة، وصور الكائنات المتنوعة من سماء وغيوم وجبال وسهول وحيوان ونبات وغير ذلك. وسوف يرى ضياء

الشمس الساطع ويميزه عن الضوء الباهت المنبعث من لهب النار، كما أنه سيدرك أن تلك الصور القاتمة المتحركة التي كان يراها باستمرار إنما هي في الحقيقة مجرد ظلال لمخلوقات بشرية يشبهونه.. والخلاصة هي أنه سيدرك أن هناك كوناً فسيحاً رحباً أكبر بكثير من كونه الصغير الذي كان يتصوره داخل الكهف.

والآن لنتصور لو قرر الرجل الذي خرج من الكهف، ورأى ما رأى وعرف ما عرف، أن يعود إلى قومه المقيدين داخل الكهف ويخبرهم عن الذي رآه في الخارج، فماذا سيحدث؟.. سيقوم الرجل بإخبار قومه بأنواع الكائنات المختلفة الأشكال والأحجام والألوان والسلوكيات التي يعج بها الكون الواسع، وعن الجمال الأخاذ الذي يملأ الدنيا في الخارج، وكيف أن الصورة التي يرونها في كهفهم (عالمهم) الذي عاشوا فيه ما هي إلا انعكاس لظل باهت لا يشكل سوى جزء متناه الصغر من الكون الذي رآه. ثم أن ذلك الرجل (المتحرر) سوف يطلب من قومه أن يفك لهم قيودهم ليخرجوا معه لرؤية ما حكاه لهم. فهل سيصدق القوم كلام ذلك الرجل ويخرجوا معه؟..

إن المتوقع في هذه الحالة أن يشعر بقية من في الكهف بصدمة وصعقة كبيرة لهذا الذي يقوله صاحبهم، والذي لم يره أحد منهم غيره، والذي يخالف كل ما عرفوه طيلة حياتهم، وكل ما ورثوه عن آبائهم. وعندها سيكونون أمام خيارين لا ثالث لهما. فإما أن يصدقوا كلام الرجل ويخرجوا معه ليروا ذلك

الكون الرحب (أو على الأقل يخرجون معه ليختبروا بأنفسهم صدق ما أخبرهم به أو كذبه). وإما أن يرفضوا تصديق كلامه ويعتبروا أن هناك لعنة لحقته أو شيئاً أصابه لما غامر بالخروج من الكهف، وأن كل ما قاله ما هو إلا محض افتراءات وأباطيل.

والراجح أن أهل ذلك الكهف بعد شيء من الجدل والأخذ والرد، سوف يتبنون الخيار الثاني، ويطلبون من صاحبهم الكف عن (الهراء) الذي يتفوه به. وربما سيحاولون علاجه وتطبيبه من الداء الذي حل به.. فإذا ما أعيتهم الوسائل، وأصر صاحبهم على أقاويله وأفكاره، فسوف يشعرون (وخصوصاً كبراؤهم) بأن هذا الرجل بدأ يشكل تهديداً خطيراً لاستقرار مجتمعهم، ولنظامهم الإجتماعي الذي ألفوه، ولمعتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم.. وسيخشون من تفشي ذلك الداء إلى غيره.. وعند ذلك لن يكون أمامهم سوى قتل ذلك الرجل والتنكيل به واطفاء نار تلك الفتنة، ليعودوا بعدها إلى حياتهم المعتادة!!!

إنه مثال يبدو قاسياً جداً ومتطرفاً ولكن الحقيقة هي أن حياتنا حافلة بواقع أشد منه قسوة وتطرفاً دون أن يعي ذلك البعض. ومثال كهف إفلاطون يمكن أن ينطبق (جزئياً في الأقل) على كثير من التجمعات والجماعات البشرية المنغلقة (أو شبه المنغلقة) على نفسها، سواء كان ذلك الانغلاق فكرياً أو دينياً أو إجتماعياً أو نفسياً. وجميع التنظيمات والجماعات وبما فيها (الإسلامية) منها يمكن أن يكون لها نصيب من هذا المثال.

فكل جماعة (إسلامية) على اختلاف التوصيفات والتسميات، يعتقد أفرادها (شعورياً أو لاشعورياً) بأنهم لوحدهم (الفرقة الناجية) وغيرهم هالك، أو إنهم فقط على السنة وما سواهم من المسلمين على البدعة، أو يسودهم شعور بالتعالي على غيرهم دون وجه حق ويملأ قلوبهم العُجْب وصدورهم الكِبْر، ولا يتأدبون في موضع الخلاف المعتبَر، أو يتطاولون على الأكابر من السلف الصالح، فنصيبهم وافر من مثل كهف إفلاطون هذا.. فما سادت بينهم تلك المشاعر السلبية إلا بسبب انغلاقهم وانكفائهم على ذواتهم، حتى جعلوا من نفوسهم وعقولهم المريضة مقياساً للحق يتوجب على غيرهم الرجوع إليه!.. فتركوا خلف ظهورهم حقيقة الأدب مع الله ورسوله ومع المؤمنين.

ويمكن أن تؤدي المبالغات في العمل التنظيمي والتنطعات الحزبية لهكذا جماعات (سواء سمت نفسها حزباً أو جماعةً أو حركةً أو هيئةً أو مذهباً أو أي شيء آخر) إلى صب الزيت على نار التقوقع على الذات والتقليد الأعمى. فالقوالب (الحركية) الجامدة، واختلال شروط الإمرة والتأمير، والتعسف في قضية السمع والطاعة، وقتل روح الإبداع الفردي بدعوى مصلحة الجماعة، واختلاط الثابت بالمتغير والنص بالاجتهاد، كل ذلك من مقدمات ومظاهر الانغلاق المذموم الذي سيكون عقبة بوجه أي تجديد أو تصحيح للمسار..



ومن كان هذا شأنه فلن يقبل بتعاطي أي علاج لأنه أصلاً لا يعترف بوجود أي مرض فيه أو في جماعته، فهم (من وجهة نظره) لوحدهم أصحاب الحق وكل من خالفهم فهو الغوي المبين. وغالباً ما سيزداد هذا الداء الدفين فتكاً كلما زاد عمر تلك الجماعة أو ذلك التنظيم، وتأخر وقت التجديد أو التصحيح.. فالجماعة أو التنظيم هي كالكائن الحي يكبر ويشيخ ثم يموت عندما تتوقف قدرته على تجديد خلاياه وعلى تصحيح ومعالجة ما ألمَّ به من أمراض بمر الزمن. وعندما يصبح الداء عضالاً، تبرز رؤوس تدعي الملَكية أكثر من الملِك (كما يقال)، وتجعل من نفسها الحامية لمصلحة الجماعة بوجه أي (متمرد) أو (مفسد) من داخلها، فتكون كالحرس الذي يقف بقوة بوجه أي تصحيح أو تجديد، معتبرة نفسها صاحبة التفويض الإلهي بهذا الشأن. وعندما تستفحل هذه الحالة، تصبح حتى القيادة الظاهرة لهكذا جماعة مجرد واجهة لايمكنها مطلقاً (التمرد) على القوانين الخفية الراسخة التي يراقب تطبيقها ذلك الحرس.. بل يصبح حتى تأرجح الجماعة بين قيادة (الحمائم) وقيادة (الصقور) شكلياً وهامشياً، لأن الجميع محكوم بقواعد (اللعبة) ذاتها.

إن العمل التنظيمي الحزبي بصيغته المعاصرة جذوره ومنطلقاته غير إسلامية، حيث عُرفت الحركات السرية والباطنية والأحزاب الغربية بتبني هذا النمط أولاً. ولئن كان مبرر تبنيه في العمل الإسلامي مرتبطاً بسنة التدافع ومقاومة الباطل بالأساليب الناجعة، فإن ذلك ينبغي أن يكون اجتهاداً مرتبطاً





بالظرف والمرحلة التي يُعتقد فيها أنه كان موفقاً ومثمراً. فإذا ما انقضت تلك المرحلة وتبدل الظرف، وظهرت لنا مساوئ لهذا النمط لم ندركها أو لم نلمسها سابقاً، وجب ترك هذا الاجتهاد إلى أساليب أخرى أسلم وأقرب إلى الوصول إلى الهدف وتحقيق المقصود، الذي ما هو إلا مرضاة الله تعالى بالدعوة إليه على بصيرة، لمحض التعبّد لله تعالى، بغض النظر عن أي أمر دنيوي آخر..

ولا بأس بأن نؤكد بأن المقصود بهذا الكلام ليس مطلق أو أصل النظام أو التنظيم في العمل، لأن هذه سنة أجراها الله تعالى في الكون ينبغي ملاحظتها.. إنما المقصود هو المبالغات التنظيمية والصيغ الحزبية أو التحزبية التي وقعت فيها أجزاء مهمة من العمل الإسلامي المعاصر.. وسنطرح البديل الذي نراه مناسباً في موضع لاحق من هذا الكتاب بإذنه تعالى.



الفصل السابع:

من مقتضيات التربية الدعوية

لا نأتي بجديد عندما نكرر ما لاحظه عدد من أهل الدعوة و علمائها من أن التحديات التي واجهت الأمة الإسلامية، في غير مكان وغير زمان، قد دفعت بأصحاب الغيرة من أهل هذا الدين إلى النزول إلى الساحة لمقارعة الباطل وأهله والقيام بواجب الدعوة إلى الله. و كان لشراسة هجمة الأعداء وتنوع أساليبها، وكثرة الثغور، ما جعل أولئك الدعاة الغيارى ينشغلون عن أنفسهم، وعن التزود بالزاد العلمي والثقافي والروحي اللازم.

إلا أن طول نفس الباطل وشدة مكره، تسترعي منا جميعاً مراجعة ذلك، وتهيئة سبل المواجهة على مختلف الأصعدة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. ولا ريب أن انتباهنا إلى البناء العقلي والروحي للدعاة هو أحد أقوى الأسلحة بل هو الأساس في مواجهة الباطل، الذي سبقنا بمراحل في التخطيط والتنفيذ، ولذلك فليس بمستغرب أن تستمر منازلتنا معه زمناً طويلاً وتستغرق العمر كله..

وقد لاحظ البعض بأن (المشروع الإسلامي لم يعط البعد الفكري من الاهتمام ما يستحقه، وذلك من أسباب عجزه عن بلوغه الهدف واستمرار الأمراض الفكرية الفتاكة مثل تحكّم عقلية التقليد الجماعي والغفلة عن





السنن، والتغافل عن عالمية الإسلام أو إساءة فهمها)[36]. كما لوحظ أن المشروع الحركي الإسلامي لم يتمكن من تحقيق كامل أهدافه (لانشغاله بالمواجهة والتعبئة وإعادة ثقة الأمة بالإسلام وتجديد الانتماء إليه بعد رحلة إسقاط الخلافة الأمر الذي لم يمهله لإعطاء المسألة الفكرية المساحة المطلوبة إلا بالقدر الذي يساهم بالتعبئة الحركية ومواجهة الأزمة التي تستهدف كيان الأمة.. وبقيت الأزمة الفكرية قائمة..

كما أن الفكر المطروح كان (فكر أزمة) له ظروفه وملابساته، ووسائله وأدواته.. ولعل معظم الإسهامات الفكرية أو الأدبيات الإسلامية للمشروع الإسلامي الحركي، يمكن تصنيفها في إطار الفكر الدفاعي الذي يعني من بعض الوجوه تحكم الأعداء الذين أصبحوا يحددون ابتداءً خارطة اهتمامات العقل المسلم، وساحة نشاطه بما يلقون إليه من مشكلات واتهامات وقضايا، تجعل نشاطه مجرد ردود أفعال...

وعلى الرغم من أن الأسلوب التعبوي الدفاعي قد حقق بعض الإنجازات ولكنه أفرز -كذلك- سلبيات تحتاج إلى إعادة نظر، ولعل من أخطرها شيوع العقلية التبريرية الذرائعية بين الإسلاميين ومحاولة إعفاء الذات من

---

[36] طه جابر العلواني وعمر عبيد حسنة، إصلاح الفكر الإسلامي، ص٢٢.



المسؤولية، ورفض المراجعة ونسبة مسؤولية الفشل والتراجع –باستمرار– إلى الخارج)[٣٧].

وقد بذل بعض علماء الدعوة جهوداً مهمة في هذا الإتجاه، ينبغي تفعيلها والاستفادة منها. ولكن يبدو أن قضية الضعف الثقافي لدى كثير من الدعاة هي ذات طبيعة متجددة أيضاً. حتى صرّح بعضهم بأن (الداعية المنتمي للجيل الماضي يلحظ ضعفاً ثقافياً في جيل الدعاة الجديد، وأصبح النشاط العملي العام يلهيهم عن مزيد مطالعة واجبة عليهم)[٣٨].. ومضى في رصده وتحليله لهذه الظاهرة قائلاً: (ولا تستسيغ الأعراف التربوية هذا الضعف، وتؤكد تجاربنا وجوب اغتناء الخطة الجماعية بتوفير تناسب بين مكونات شخصية الداعية، فإن سعة العلوم الشرعية والثقافة العامة التي يحوزها الداعية تعتبر من أهم العوامل التي تحدد مدى نجاحه في عمله الخارجي، كبشير نذير، آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر، أو في عمله الداخلي، كمنظم مربٍ ومختص)[٣٩]. ثم أبرز جانبا مهما من جوانب المعالجة قائلاً (بلزوم تقليص حجم النشاطات العامة التي يفترض أن يمارسها بعض الدعاة من أجل توفير وقت لهم للمطالعة وحضور الدروس ومجالس الفقه)[٤٠].

---

[٣٧] المصدر السابق نفسه ص٣١ باختصار.

[٣٨] الراشد ، المسار ، ص٢٩٩

[٣٩] المصدر السابق ، ص٢٩٩

[٤٠] المصدر السابق ، ص٢٩٩



ونتفق نحن أيضا مع ما أكده هو من أن (الترف العلمي غير صحيح أيضاً، ولسنا ندعو إليه، إنما نحن نؤكد على ضرورة التوازن بين الإعداد العملي والتثقيف العلمي، في تناسق يجعل مواقف الداعية و كلماته مكافئة لحاجة الذين يعاملهم ومن هم له سامعون)[٤١] .

ثم ذهب خطوة أبعد لينبه على خطأ كبير قد يؤدي إلى أن يفقد أسلوب المعالجة هذا الكثير من جدواه ليؤكد (خطأ اقتصار المنهج التثقيفي على الكتب الفكرية العامة الحديثة، والتي تعرض محاسن الإسلام وتكشف نظرياته، بل لا بد من تعويد الدعاة طول الانكباب على صحيح البخاري وشرح ابن حجر له المسمى بفتح الباري، وعلى بقية كتب الحديث النبوي الشريف، وفقه المذاهب الأربعة وأوائل الفقهاء، وعموم مدونات التراث، فإن في ذلك ضمان اكتساب الدعاة لعنصر الأصالة، وفيه تقريبهم من النظرات الاجتهادية، مثلما فيه ربط محكم لهم بالنصوص، يأسرهم إليها ويمنعهم من التورط في البدع أو الجرأة في الفتوى)[٤٢].

ثم أكد أن هذا ضروري لمواصلة انطلاقة العمل الدعوي المثمر رغم التحديات، حيث أنه (من أجل أن لا تتعدد مدارس الفهم والاجتهاد تبعا

---

[٤١] الراشد ، المسار ، ص٢٩٩

[٤٢] المصدر السابق ، ص٣٠٠





لتعدد وتنوع الاختصاصات، كان من اللازم اعطاء الجميع حداً أدنى من العلوم يوحد بينهم ويمنع الشذوذ واختلاف التخريج الفقهي)[٤٣].

ويذهب عالم آخر إلى مدى أبعد في رصده للأزمة، فيوضح قواعد مهمة، تتناسب مع طبيعة الدعوة في المناهج الثقافية والتعليمية والتربوية، نقتبس منها ما يلي[٤٤]:

١- أول ما يجب ملاحظته أن نكون منسجمين في مناهجنا مع طبيعة دعوتنا. فإسلاميتنا تقتضي منا أن نستوعب كل أصول الثقافة الإسلامية و فروعها؛ والمعاصرة تقتضي منا أن نستوعب ثقافة العصر وطبيعته وخصائصه.

٢- أن نضع بيد المسلم الميزان الذي يزن به كل شيء من حوله بميزان الإسلام ليحكم عليه.

٣- أن يراعى في المناهج أن تخرج فرداً متقناً لفروض العين متوسعاً في علومها متمكنا منها؛ وإذا أمكن أن يدفع كل فرد نحو إتقان اختصاص يسقط به فرضاً من فروض الكفاية عن هذه الأمة بحيث يكون رجل قمة فيه.

---

[٤٣] الراشد ، المسار ، ص٣٠٠

[٤٤] سعيد حوى ، في آفاق التعاليم ص١٥٨-١٦٤



٤- يلاحظ في المناهج أن لا تبقي ثغرة يمكن أن يلج منها الكفر أو الضلال إلى عقل المسلم أو قلبه أو نفسه.

٥- لا بد أن يكون للجماعة نظامها وخطتها، ولا بد أن يكون لها نظريتها التربوية والتعليمية التي تتلاءم مع هذا كله.

٦- إن من مظاهر التجديد أن نحيي الإسلام كله وأن نجدده علماً وعملاً وحالاً على كل مستوى.

وبناءً على ذلك، يستنتج هذا العالم أنه (بالإمكان حصر العلوم الإسلامية الضرورية للمسلم المعاصر بما يلي: علم الأصول الثلاثة (أو الإيمان)، الكتاب، السنة، علم أصول الفقه، علم العقائد، علم الفقه، علم الأخلاق، السيرة والتأريخ الإسلامي، علوم العربية، المؤامرات على الإسلام والأمة الإسلامية والتحديات التي تواجهها هذه الأمة، الدراسات الإسلامية المعاصرة، وفقه الدعوة)[٤٥].

وينطلق عالم ثالث في ذات الاتجاه ليصل إلى أن (الداعية في حاجة إلى مجموعة من الثقافات هي: الثقافة الإسلامية، الثقافة التأريخية، الثقافة الأدبية واللغوية، الثقافة الإنسانية، الثقافة العلمية، والثقافة الواقعية. والمطلوب من الداعية الناجح أن يتمثل هذه الثقافات ويهضمها، ويكوّن منها مزيجاً جديداً طيباً نافعاً أشبه شيء بالنحلة التي تأكل من كل الثمرات، سالكة

---

[٤٥] سعيد حوى، جند الله ثقافة وأخلاقا، ص٨١.

سبل ربها ذللاً، لتخرج منها بعد ذلك شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس، كما أن فيه آية لقوم يتفكرون)[٤٦]. ومن ثم فهو يرى إن الإعداد المتكامل للدعاة هو أمر بالغ الأهمية، (وإلا أصيبت كل مشروعات الدعوة بالخيبة والإخفاق، في الداخل والخارج، لأن شرطها الأول لم يتحقق وهو الداعية المهيأ لحمل الرسالة)[٤٧].

وقد فصّل في كل واحدة من هذه الثقافات السابق ذكرها. ففي مجال الثقافة الإسلامية، يقول: (إن أول ما يلزم الداعية المسلم من عدة فكرية، أن يتسلح بثقافة إسلامية ثابتة الأصول، باسقة الفروع تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ونعني بالثقافة الإسلامية: الثقافة التي محورها الإسلام: مصادره وأصوله وعلومه المتعلقة به، المنبثقة عنه. وهذا أمر منطقي، فإن الداعية الذي يدعو إلى الإسلام، لا بد أن يعرف: ما الإسلام الذي يدعو الناس إليه؟. ولا بد أن تكون هذه المعرفة معرفة يقينية عميقة، لا سطحية مضطربة. ولهذا كان لا بد أن يستمد هذه المعرفة عن الإسلام من مصادره الأصلية ومن ينابيعه المصفاة، بعيداً عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)[٤٨].

---

[٤٦] د. يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية، ص٨.

[٤٧] المصدر السابق، ص٦.

[٤٨] المصدر السابق، ص٩.

وأكد على أن الداعية في هذا الصدد يجب أن ينتبه إلى أهمية دراسة النظام الإسلامي أو المذهبية الإسلامية، ويقصد بها (دراسة الإسلام خالصاً غير مشوب، متكاملاً غير مجزأ.. الإسلام باعتباره مذهباً متميزاً، ونظاماً كاملاً للحياة: الحياة الفردية، والحياة الاجتماعية، والحياة المادية، والحياة المعنوية. ولا يغني عن هذه الدراسة للإسلام المتكامل دراسة العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ونحوها؛ لأنها لا تعطي نظرة عامة للإسلام كله، وإنما تعطي نظرات متفرقة بجوانب منه، كل على حدة، دون إحكام الربط بينها)[٤٩].

وفي مجال الثقافة التاريخية يقول إنه (يهمنا في ذلك تأريخ الإسلام والأمة الإسلامية خاصة، وتأريخ الإنسانية بصفة عامة، أعني المواقف الحاسمة منه، والملامح الرئيسية فيه.. وإنما يحتاج الداعية إلى التأريخ لأمور:

١- إنه يوسع آفاقه، ويطلعه على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، وتقلبات الأيام بها وبهم، فيرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنة الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور..

٢- إن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم. فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى، ونهاية الكفر والفجور..

---

[٤٩] المصدر السابق ص٩٧.



٣- إن التاريخ كثيراً ما يعين على فهم الواقع الماثل، ولاسيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع.. وأكثر من ذلك إن بعض القضايا الحاضرة لها جذورها التاريخية البعيدة الأغوار، فمن لم يعرف أغوار ماضيها لم يدرك أسرار حاضرها.

٤- إن بعض جوانب التاريخ لها صلة وثيقة بعمل الداعية واهتماماته، وأعني الجانب العقلي أو الفكري في التأريخ، مثل: تأريخ الأديان، تأريخ النحل والفرق..)[٥٠].

أما عن الثقافة الأدبية واللغوية فيقول: (إذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية في الدرجة الأولى، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك. ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات. واللغة بمفرداتها ونحوها وصرفها – لازمة لسلامة اللسان، وصحة الأداء، فضلاً عن حسن أثرها في السامع بل صحة الفهم أيضاً)[٥١].

وأما الثقافة الإنسانية فالمقصود بها (أن يلم الداعية إلماماً مناسباً بأصول ما يعرف الآن باسم العلوم الإنسانية مثل علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والفلسفة والأخلاق والتاريخ. وقد فصلنا التأريخ عنها وخصصناه بالذكر لأهميته الخاصة للداعية ولاسيما أننا أدخلنا فيه التاريخ الإسلامي)[٥٢]. ولعل

---

[٥٠] المصدر السابق ص١٠٢-١٠٤ باختصار.

[٥١] المصدر السابق ص١١٤.

[٥٢] المصدر السابق ص١٢١.

في مقدمة الأسباب التي تدعوا للاهتمام بهذه العلوم هو (أن موضوعها له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة. أو أن موضوعهما واحد وهو الإنسان.. الإنسان في الماضي أو الحاضر، الإنسان فرداً أو مجتمعاً، الإنسان مفكر لنفسه أو مقلد لغيره، الإنسان منتجاً أو مستهلكاً، الإنسان ريفياً أو متحضراً، الإنسان أميا أو متعلماً، الإنسان حيث كان وكيف يكون)[٥٣].

أما في مجال الثقافة العلمية، فأنه يوضح بأنه يعني هنا (بكلمة العلم مفهومها الاصطلاحي الحديث، كما شاع عند الغربيين، ونقله إلينا الناقلون من أهل العربية، حتى أصبح مصطلحاً شائعاً ولا مشاحة في الاصطلاح. ومدلول العلم عندهم هو: ما قام على الملاحظة والتجربة، وخضع للقياس وللاختبار، مثل علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء (النبات والحيوان) والجيولوجيا والفلك والتشريح والطب وغيرها. ولا يراد للداعية أن يتعمق في دراسة مثل هذه العلوم، فإن هذا غير مقدور عليه -إلا إذا كان هو أصلاً من المتخصصين فيها- إنما نريد أن يطالع بعض الكتب الميسرة فيها، مما يعد لغير المتخصصين، وكذلك المقالات العلمية في المجلات مما ينشر ليقرأه جمهور المثقفين والمفروض أنه واحد منهم)[٥٤].

---

[٥٣] المصدر السابق ص١٢١.

[٥٤] المصدر السابق ص١٣٢ مع تصرف بسيط.



وأخيراً فإن المقصود بالثقافة الواقعية هو (الثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة، وما يدور به الفلك في دنيا الناس الآن، في داخل العالم الإسلامي وفي خارجه، فلا يكفي الداعية أن يكون قد حصّل العلوم الإسلامية، وجال في مراجع الأدب واللغة والتاريخ، وأخذ بحظه من العلوم الإنسانية ومن العلوم التجريبية، ولكن مع هذا كله لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه، وما يقوم عليه من نظم، وما يسوده من مذاهب، وما يحركه من عوامل، وما يصطرع فيه من قوى، وما يجري فيه من تيارات، وما يعاني أهله من متاعب، وبخاصة وطنه الإسلامي الكبير من المحيط إلى المحيط، وآلامه وآماله، وأفراحه ومآسيه، ومصادر قوته، وعوامل ضعفه، وبعد ذلك وطنه الصغير وبيئته المحلية وما يسودها من أوضاع وتقاليد، وما تقاسيه من صراعات ومشكلات، وما يشغل أهلها من قضايا وأفكار)[55].

و الذي يبدو لنا بعد إيراد هذه الملاحظات جميعاً هو أن القضية أبعد من مجرد ضعف علمي أو ثقافي، يكفي لمعالجته مجرد زيادة متطلبات المنهج الثقافي أو قراءة كتب الأقدمين، وإن صياغة النظرية التربوية المطلوبة للدعوة الإسلامية لا بد أن تمر من خلال الرصد الكامل لأبعاد هذه المشكلة التي

---

[55] المصدر السابق ص١٤٠.





نظن أنها تصل إلى ما أسماه بعض الباحثين (أزمة استقالة العقل)[٥٦] في بُعدها المهم الأول وإلى (هزال الروح) في بُعدها الأهم الثاني.

إن أزمة استقالة العقل هذه، والتي تتمثل باستغراقه في نظرات تجزيئية قاصرة تعوق وصوله إلى الرؤية المتكاملة الشاملة للأشياء، لا بد لحلها من أن يتجاوز اهتمامنا مجرد قضية المضامين العلمية والثقافية اللازمة للداعية، رغم أهميتها، لنصل إلى ترتيب العقل المسلم بنية و تكويناً، بما يؤهله لأن يستعيد فاعليته الإبداعية، التي ينبغي استعادتها إذا أردنا أن يبقى لنا حضورنا الفاعل في ساحة الفعل الحضاري الخلاق.

وأما معالجة هزال الروح من خلال تزكية النفس وإحياء القلب لبناء العبد الخالص لله تعالى، فذلك هو قطب رحى مشروع التجديد الدعوي المرتقب. وبغيره فلا دعوة ولا تجديد. وإن أسلوب ومنهجية العمل الدعوي الإسلامي الذي سوف نطرحه كبديل مستقبلي عن الأساليب الشائعة حالياً تتطلب تربية روحية راقية، وسيراً في الطريق إلى مرضاة الله تعالى جادّاً، ورجوعاً إلى الحق وتوكلاً تاماً مع كل نَفَس. وكل هذا يتطلب همماً عاليةً ونفوساً تواقة، لأن العقبة كؤود، والجنة حُفّت بالمكاره..

---

[٥٦] أنظر كتاب د.لؤي صافي ، إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية.





الفصل الثامن:

أزمة استقالة العقل

يمكننا أن نستخدم مصطلح العقل لنعني به (مجموع الطاقات الادراكية لدى الإنسان، مما قد يسمى فطرة، أو خبرة، أو فكراً.. مع ما توفره هذه الطاقات من حصيلة معرفية، في أي مجال وفي أي تخصص)[٥٧]. وقريب من هذا، عُرّف (الفكر) بأنه (اسم لعملية تردد القوى العاملة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلباً أو روحاً أو ذهناً بالنظر والتدبير، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء)[٥٨].. ولذلك فإن كلامنا عنه ينبغي أن يتناول جانبه البنيوي (الإدراكي)، مثلما يتناول جانبه المضموني (المعرفي). وعليه فإن العقل البشري يتألف من نوعين من المعارف هما [٥٩]:

١. معارف قبلية سابقة على الخبرة والتجربة وموجهة لها، وهي بدورها تتألف من مبادئ نظرية تحول دون التناقض الداخلي للفكر، وتمكنه من فرز المعطيات الحسية إلى مجموعة من المفاهيم الأولية ومن ثم تركيبها وفق مفاهيم مجردة .

---

[٥٧] أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد عند الأمام الشاطبي ص٢٥٨

[٥٨] د. طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة، ص٢٧.

[٥٩] د.لؤي صافي ، إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية ، ص١٧



٢. معارف مكتسبة من التجارب الحسية والتأملات النظرية والخبرات العملية، وهي بذلك تتكون من تأكيدات أو قناعات عملية وقيمية وغيبية .

من ذلك نخلص إلى أن البنية الداخلية لعقل المسلم تتألف من (مجموعة القناعات الراسخة التي تولدت أصلاً عبر عملية تفاعل بين المبادئ القبلية ومصدري المعرفة الأساسيين: الكتاب المنزل، والكون المشهود)[٦٠]. ومن هنا كان التعريف الإسلامي للمعرفة بأنها (كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة)[٦١].. وهكذا (ومن خلال النظر في الكتاب والتفاعل مع الطبيعة والمجتمع تنضج التصورات والقيم، وتتراكب الخبرات وتتزايد المعارف، وتتحول التفسيرات والتأويلات إلى منظومات قيمية وعقدية، كما تتحول التجارب والاعتبارات إلى نظريات علمية ومناهج دراسية، تتناقلها الأجيال وتتوارثها الثقافات والحضارات)[٦٢].

ومن هذه الملاحظة الهامة يمكن أن نخلص إلى أن المبادئ العقلية التي توجه عمليات التفكير لم تتكون عبر نظر فردي مباشر أو خبرة شخصية، بل تشكلت عبر تفاعل بين عقول كثيرة استغرق آماداً طويلة، واستبطنت في ضمير الفرد خلال مراحل التربية والتعليم، لذلك فإن العقل الذي يوجه الفرد

---

[٦٠] د.لؤي صافي ، إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية ، ص١٧

[٦١] د. طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة، ص٣٣.

[٦٢] د.لؤي صافي ، إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية ، ص١٧

يحمل خصائص الثقافة التي شكلته والتراث الذي صنعه.. ومن هنا تبرز العلاقة الوطيدة بين العقل والثقافة، فالثقافة تصنع العقل وتشكله، والعقل يطور الثقافة ويغربلها فيثريها أو يفسدها)[٦٣].

و من هنا نستطيع تقرير أمرين هما[٦٤]:

١. إن بإمكاننا الحكم على العقل السائد بين أفراد مجتمع ما بالنظر إلى تجليات ثقافتهم المشتركة في سلوكهم. فإذا ما تبين لنا اضطراب السلوك الاجتماعي و تناقض أقوال القوم و أفعالهم لزمنا لذلك الحكم باضطراب العقل وتناقضه.

٢. إن إصلاح منهجيات التفكير هو المدخل إلى تجاوز الاضطراب الاجتماعي وإصلاح الفوضى الثقافية.

ومن ذلك يستطيع المرء أن يزعم (بأن العقل الذي يقود اليوم حركة المجتمعات المسلمة على عمومها، عقل يتصف بالاضطراب المنطقي، والفوضى الفكرية، والاختلال المنهجي)[٦٥]. ولكن هل أن هذا الاضطراب الذي يعانيه عقل المسلم اليوم يعود إلى خلوه من المعارف أو المناهج؟.. إن الإجابة التي يقدمها لنا بعض الباحثين لهذا التساؤل هي إجابة ذات مغزى

---

[٦٣] المصدر السابق نفسه ، ص١٨

[٦٤] المصدر السابق نفسه ، ص١٨

[٦٥] المصدر السابق نفسه ، ص١٨



مهم بالنسبة لموضوع بحثنا عموماً، حيث يؤكدون أن القضية هي على العكس من ذلك (فإن العقل المسلم يعاني اليوم من تخمة فكرية ناجمة عن تراكمات معرفية تنتمي إلى ثقافات متغايرة، وعصور متباينة، تجمعت ضمن الفضاء العقلي دون ترتيب أو انتظام، لذلك تحولت المعارف الكامنة في العقل إلى حمل ثقيل، وغشاوة سميكة، تحول بين المثقف والنظر المنهجي..)[٦٦].

وبناءً على ما تقدم يمكن أن نحدد ما يمكن اعتباره المظهر الأول للاضطراب العقلي الذي يعتري عقل المسلم اليوم وهو (تعايش منظومات معرفية متناقضة، ومنهجيات علمية متعارضة، جنباً إلى جنب في ضميره ووجدانه)[٦٧]، وهذا ما يمكن التعبير عنه أيضاً بالتصارع بين العقل (التقليدي التراثي) وبين العقل (الوضعي العلماني) داخل المجتمع المسلم من ناحية، وداخل عقل المثقف المسلم من ناحية أخرى. وهذا وغيره من الجوانب الأخرى للفوضى الفكرية يعده البعض (دليلاً واضحاً على استقالة العقل المسلم[٦٨] وتوقفه عن الفعل والانفعال؛ فمن المحال اجتماع فوضى فكرية وعقل فعال لأن مبدأي الاتساق والانطباق مبدآن أساسيان من مبادئ العقل.. فإعمال مبدأ الاتساق العقلي (عدم التناقض) في التراكمات المعرفية

---

[٦٦] المصدر السابق نفسه ، ص١٩

[٦٧] المصدر السابق نفسه

[٦٨] أي في زماننا المعاصر



قمين بإزالة التناقضات الداخلية وتحويل الأفكار إلى منظومات متسقة. وإعمال مبدأ الانطباق جدير بإشعار العقل بالتناقضات القائمة بين منظوماته الفكرية والواقع الخارجي)[٦٩].

ومن ذلك يتضح أن المقصود باستقالة العقل هو ليس نفي الفعل العقلي تماما، ولكن المقصود هو (التنبيه إلى غياب الأصالة العقلية المرتبطة بالنظر إلى الوجود انطلاقاً من الخصوصيات الزمانية والمكانية، وهيمنة الوثوقية العقلية المتمثلة باستعارة عقل تقليدي تراثي أو عقل وضعي علماني)[٧٠] .

وبهذا يتحدد جانب مهم لطبيعة المشكلة التي نحاول في هذا الفصل ايضاح أبعادها، من خلال التأكيد على أن (الأزمات الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والسياسية التي تتابع اليوم على أمتنا وتحيق بها من كل جانب هي في جوهرها أزمة عقل مستقيل تصلبت منهجيات تفكيره وفقد القدرة على الفعل والتأثير، بل لنقل توخياً للدقة أزمة عقلين، عقل تراثي انكفأ على ذاته وفقد الصلة بموضوعه، وعقل وضعي انبتَّ من جذوره، وانفكَّ عن فلكه)[٧١].

---

[٦٩] المصدر السابق نفسه ، ص٢١

[٧٠] المصدر السابق نفسه ، ص٢١

[٧١] المصدر السابق نفسه ، ص٢٥

ومن ثم يمكن لنا أن نخلص من كل ما سبق إلى أنه لا سبيل لحل هذه المشكلة (وتجنب التصلب العقلي والهلامية الفكرية، وتجاوز الغثائية العلمية والاستلاب المعرفي، إلا بربط العقل من جديد بحقائق الوجود الكلية بأبعادها الغيبية والطبيعية والتأريخية، وبالتالي تسليط قدرات العقل التحليلية والتركيبية على النصوص النقلية، والظواهر الطبيعية، والوقائع التأريخية، لتمييز الثوابت من المتغيرات، والكليات من الجزئيات، والشروط من الغايات. وبذلك نكون قد خطونا خطوة حاسمة وضرورية نحو إعادة الحيوية للعقل المسلم، وتهيئته ليقود الفكر الإنساني نحو آفاق علمية أوسع ومقامات معرفية أعلى، متجاوزاً الغثائية العلمية للعقل التراثي والاستلاب القيمي والروحي للعقل الوضعي)[٧٢]..

وبعد كل هذا نتساءل إذا ما كان التحليل السابق ينطبق على المجتمع المسلم وعلى العقل المسلم عموماً في عالم اليوم، فهل هو ينطبق أيضا على التجمعات والجماعات الإسلامية الدعوية المعاصرة وعلى عقل الداعية المسلم فيها، وهو موضوعنا الذي نحن بصدده؟..

وللإجابة على ذلك نقول بأننا نعتقد بأن عقل الداعية لم ينج تماماً من عوامل الاضطراب والفوضى الفكرية التي سبق الحديث عنها. وسنلقي الضوء في ما تبقى من هذا الفصل وفي الفصلين اللاحقين على بعض

---

[٧٢] المصدر السابق نفسه ، ص٢٦



القضايا التي نظن أن عقل الداعية اليوم يواجه مشكلة فكرية مضطربة أمامها بدرجة أو بأخرى. ولأن هذه القضايا مرتبطة وبدرجة كبيرة بالفعل الدعوي على صعيد الفرد والمجموع عموماً، فإن تناولها سيعزز رصد أبعاد المشكلة التي هي مدار اهتمامنا على المستوى الدعوي العام، وطبيعة وعمق الحل المطلوب لها..

وسنبدأ هنا بمناقشة قضية الجمود والتقليد عند الدعاة العاملين اليوم على مستوى الفعل الدعوي. وفي هذا الصدد نقول بأن الله تعالى قد ميّز الإنسان عن سائر مخلوقاته بنعمة العقل، وجعل العقل الإنساني مدار التكليف، ومدار فهم معاني الخطاب الإلهي ومبادئ النظام الطبيعي. (ومن خلال تفاعل العقل الإنساني مع دلالات الوحي وتجليات الواقع، نشأت العلوم وتطورت، وتوارثتها الأجيال، فتكاثرت النظريات.. وتضاربت الآراء.. ولا سبيل لتمييز الحق من الباطل وتبين الخطأ من الصواب إلا بإعمال الفكر والنظر المنهجي المطرد)[٧٣].

ولقد أدت المحن والفتن الكثيرة التي أحاطت بالعمل الإسلامي المعاصر منذ بداياته، إلى أن تنزع التنظيمات الدعوية إلى سلوك طبيعي، هو سلوك الدفاع عن النفس ككيان وكأفراد. ولأن القضية هي قضية مصير قبل كل شيء، لجأت تلك التنظيمات الدعوية إلى تربية أفرادها على السمع والطاعة في

---

[٧٣] د. لؤي صافي ، إعمال العقل ، ص١٠٧-١٠٨



المنشط والمكره، بل أن بعضها ربما بالغ في ذلك في ظروف حساسة، مما جعل كثيراً من المنضوين في ظل تلك التنظيمات يعملون وهم لا يعرفون (على وجه الدقة) من هم الأشخاص الذين يوجهونهم في المستويات القيادية العليا. وإن كان هذا يعبر عن مستوى عالٍ من التجرد والثقة لدى البعض، فإن الوجه الآخر من الصورة كان جانباً سلبياً، حيث أنه (وفي ظل طريقة التجرد لتلقي الأوامر القيادية وتنفيذها، نشأت العقلية التقليدية التي تنقصها المقدرة على الاجتهاد واكتشاف البديل والمثيل إذا تغيرت الظروف، وتعوزها نظرة النقد والتقويم من خلال الممارسة العملية)[٧٤].

بل أن هذه المسألة أصبحت ظاهرة عامة حتى قال بعض أهل الريادة في الدعوة المعاصرة (أن ضمور الفكر القيادي الاجتهادي الحر يكاد يكون مشكلة ملموسة أينما ذهبنا، فعدد الدعاة كثير، ولكن من يملك منهم هذا الفكر قليل، ومعظم الدعاة يقلدون القيادة العليا تقليداً جامداً، وينفذون تعليماتها حرفياً)[٧٥].. علماً بأن المسألة ليست مرتبطة بنمط العمل التنظيمي أو بمستوى قيادي معين فيه فقط، بل هي تصل إلى مدى أبعد لأن ما يمكن تسميته بالممارسة الدعوية الواقعية أو (التنفيذ هو فن قيادي وليس مجرد حركات ميكانيكية جسدية، ويخطأ من يظن غير ذلك)[٧٦].

---

[٧٤] الراشد ، المسار ، ص٢٧٨

[٧٥] الراشد ، المسار ، ص٢٧٨

[٧٦] المصدر السابق نفسه



ولهذا كان لزاماً على أهل الدعوة الإسلامية أن يسعوا بجد لأن (ينمو الذهن المرن الذي لا يجمد على حرفية القرارات والأوامر، بل يقارن ويقيس ويحلل، ويربط النتائج بمقدماتها، ويرى إمكانية التفريع، ويدرك أهمية الشرط الذي يرد كاستدراك على كل تعميم وإطلاق.. فأما المقارنة فهي بين الأمور التي يطلب منه تنفيذها وبين ظرفه وواقعه، فيكتشف بها ما إذا كان هناك ضرورة لتعديل يقترحه؛ وأما القياس والتفريع فجوهرهما اقتباس المماثل والقريب واشتقاق ما يناسب الظرف المتجدد من الأمر القديم، أو من خطط بلاد أخرى؛ وأما التحليل فسببه أن أي قرار تتخذه القيادة ينبغي أن يكون مستنداً إلى أسبابه المنطقية، وأن ترجو منه نتائج متصورة سلفاً في ذهنها، فإذا ما ضعفت الأسباب المبررة، أو جاءت النتائج مختلفة، متخلفة عن تحقيق الرجاء، كان هناك لزوم العودة إلى بحث القرار)[٧٧].

و أمام إدراك الدعاة لهذه الإشكالية يحاول بعضهم الانعتاق من ربقة التقليد والجمود، والدخول إلى عالم الإبداع، فيصدمون أنفسهم أو إخوانهم بوقوع بعضهم أحيانا في اشكال أكبر من ذلك الذي أرادوا الخروج منه. والسبب وراء ذلك (بتقديرنا) هو عدم امتلاكهم للأصالة والرصانة الفكرية اللازمة لكي يبقى الإبداع والتجديد منضبطاً بكليات العمل الدعوي وأصوله..

---

[٧٧] المصدر السابق ص٢٧٨-٢٧٩





وهنا يقوم الصراع بين المنظومتين العقليتين المختلفتين، منظومة التقليد الجامد، ومنظومة الإبداع غير المؤصل.. وكأننا نعود هنا بشكل أو بآخر لنناقش الإشكالية التي طرحناها سابقاً في أزمة الصراع بين العقلين التراثي والوضعي، حتى يصبح الداعية أحياناً (مضطراً إلى استبطان الفكر التراثي لتأكيد هويته، و الفكر الغربي لتحقيق فاعليته)[٧٨]..

ولا بد لتجاوز هذه المعضلة من بناء (عقلية تكاملية تفهم النص – من أي نوع كان– ضمن سياقه الخطابي والحالي، وتسعى إلى تحديد مقاصده الكلية وربطها بالمقاصد العامة للخطاب... ورفد هذه العقلية بمنهجية علمية مناسبة، تتكامل من خلالها المعرفة المستمدة من الرؤية القرآنية والمعرفة الناجمة من الخبرة الإنسانية، ولهذا كان من الضروري تطوير أسس لتفكير منهجي لأجل تجاوز هذه الإشكالية، والمضي في معارج الارتقاء العلمي والمعرفي، والتأهب للقيام بالفعل الحضاري الإسلامي المرتقب)[٧٩].

إن الانحسار الحضاري الذي تعانيه الأمة على شتى الأصعدة هو في أحد أهم تجلياته أزمة فكر قبل كل شيء، وذلك (لأن النسق الفكري للحضارة الإسلامية وإسلامية المعارف قد توقف عند حدود العقول السابقة، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن الإنتاج، ونعتبر ما أنتجته العقول السابقة نهاية

---

[٧٨] د. لؤي صافي ، إعمال العقل ، ص١٩

[٧٩] المصدر السابق، ص٨٠، مع بعض التصرف



المطاف، وغاية البعد الزماني والمكاني بالنسبة لخلود الرسالة)[80]. ويجدر بنا أن ننتبه بعد ذلك إلى أن معالجة أزمة من هذا النوع (تحتاج إلى عمر طويل، ومعالجات شتى ومتنوعة، لأنها في الحقيقة محاولة لإعادة تشكيل الإنسان، وتلك عملية من أصعب الأمور وأكثرها تعقيداً وتشابكاً، نظراً لطبيعة الإنسان، والعوامل المعقدة التي تتحكم بشخصيته، ولان الإنسان هو أداة المعالجة ومحلها في الوقت نفسه)[81].

ومما قل الانتباه له في الأوساط الدعوية الإسلامية أن الآلية الميكانيكية (أو أنموذج الآلة أو المصنع) الذي لا زالت تتبناه أغلب الحركات الاسلامية (من حيث تشعر أو لا تشعر)، من النواحي العملية والتطبيقية في الأقل، إنما هو أنموذج للادارة والانتاج يعود إلى بداية عصر الثورة الصناعية الأوربية الحديثة قبل حوالي قرنين من الزمن. وخطورة ذلك تعود إلى أن هذا الأنموذج أصبح قديماً وقاصراً، وظهرت بعده نماذج أخرى في الادارة والعمل تتفوق عليه في جوانب عديدة..

ومن المساوئ الكبرى لهذا الأنموذج البدائي هو أنه يفترض مكونات ووحدات آلية (غير ذكية) في أغلب مستوياته، لا ميزة لها سوى كفاءتها في التنفيذ الدقيق للمهمة التي تم تهيأتها مسبقا لتنفيذها وإطاعة الأوامر التي

---

[80] طه جابر العلواني وعمر عبيد حسنة، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، ورقة عمل، ص٤.

[81] المصدر السابق ص٤-٥.

صُنعت لتلقيها، دون حاجة لأن تتمتع بالرؤية الشاملة أو بالتصور الذي يزيد عن أداء مهمتها الجزئية الصغيرة التي صُممت لها. ومن الواضح أن مثل هذا الأنموذج لا يمكنه استيعاب أكثر العناصر الدعوية عبقرية، ممن لا تستطيع تجميد عقولها أو إيقاف جذوة التفكير داخلها لكي تعمل بالـ(ميكانيكية) المطلوبة. كما أن الأنموذج هذا يصعب تعديله وتطويره لتلبية المتغيرات الخارجية المهمة أو الحاجات الداخلية الملحّة. وهو أيضاً يفرض قيوداً شديدة على حرية الفكر وتداول الرأي داخله..

إن الاستمرار بتبني أنموذج فات زمانه سيؤدي حتما إلى تحمل التنظيمات الدعوية الإسلامية ضريبة كبيرة تتمثل بانخفاض مستوى الفاعلية العقلية والفكرية ومحاربة روح الابداع والتجديد فيها. وقد سمعت يوماً أحد أفاضل الدعوة المعاصرة يتحدث عن الدعوة الإسلامية المعاصرة (أو التنظيم الدعوي بتعبير أدق) مشبهاً إياها بمعمل الطابوق، حيث يتم صب الطين المبلول (أو الصلصال) في قوالب، ويوضع جنباً إلى جنب، ثم يُفخر بالنار داخل فرن كبير. وبعد مدة زمنية معينة، يتم اطفاء النار واخراج الطابوق الناتج من الفرن.. غير أن هذا الطابوق لن يكون كله بنفس المستوى من جودة الفخر، بل سيكون على ثلاثة أنواع رئيسية..

فأما النوع الأول، وهو الذي يؤمل أن يكون أغلب الطابوق الناتج منه، فهو الطابوق المفخور جيداً ذو الصلابة الكافية والشكل المنتظم واللون المناسب. وأما النوع الثاني فهو الذي لم يتم فخره جيداً (بسبب عدم مثالية عملية



الفخر) لعدم تعرضه إلى حرارة نار كافية، وهذا سيكون قليل الصلابة ولا ينفع للبناء. وأما النوع الثالث فهو الذي تعرض إلى لهيب النار أكثر مما ينبغي فأصبح أكثر صلابة من اللازم، وشكله غير منتظم، ولونه مسوداً بسبب شدة النار.. فالنوع الأول يمثل العناصر الدعوية الجيدة، والنوع الثاني يمثل الدعاة الذين لم يتم تربيتهم وتأهيلهم بشكل كافٍ، والنوع الثالث هم العناصر الدعوية التي كان هناك تنطع أو مبالغة في اعدادهم حتى تحجرت أفكارهم واسودت قلوبهم. وكلا هذين النوعين الأخيرين غير مرغوب فيهما، لكنهما ناتج عرضي لابد منه في الواقع!..

وقد أثار هذا التشبيه (الذي أُقر بعبقريته) في داخلي تساؤلات عديدة مذ سمعته. فهو يؤكد أنموذج الآلة أو المصنع الذي تتبعه أغلب التنظيمات الدعوية المعاصرة في عملها. والتفكير بإنتاج دعاة متشابهون كقطع الطابوق يوحي بمنهاج تربية وتأهيل قسري يعاند فطرة التنوع التي فطر الله تعالى الناس عليها (ونحن هنا لا نتحدث عن القيمة الإنسانية أو الأخوة الإيمانية). كما أن الناتجين العرضيين غير المرغوب فيهما (النوعين الثاني والثالث) يمكن أن يصبح أحدهما أو كلاهما أكثر من المنتج المرغوب من النوع الأول، خصوصاً إذا لم يتم ضبط حرارة الفرن بشكل جيد خلال عملية الفخر. فما هو الميزان الضابط لعموم عملية الانتاج هذه؟ وكيف يمكن أن يتم التصحيح عند حدوث الخلل في الانتاج؟ وكيف سيُحاسَب المتسبب بذلك؟ وأعتقد





أن مثال (معمل الطابوق) هذا يستحق تأملاً مضافاً من قبل القاريء اللبيب، فأترك الأمر له، وأنتقل إلى جانب للموضوع آخر..

حيث أنه وفي جانب مقابل، فلا مناص من أن نقر بأن (الحرب على العقل) لم تكن نتيجة عوامل داخلية، تتعلق بنشأة وتطور الفكر والمجتمع الإسلامي فحسب، بل كان للعوامل الخارجية دور لا يمكن إغفاله في هذه (الحرب). وكان تدخل المؤثرات الخارجية ضد العقل، يتأرجح من الشكل الطبيعي الذي يتسم بشيوع قيم ومبادئ وأنماط الذي يمتلك القوة ويمسك زمام الريادة في المنجزات المدنية، إلى الشكل القسري الذي يقوم من خلاله القوي بفرض قيمه وأفكاره وسلوكياته على الآخر بأساليب شتى.

إن عقل المسلم في عالم اليوم يزداد اضطراباً وتشوشاً نتيجة عيشه ضمن عالم مضطرب أساسا، لأن عجلة التوجيه هي بيد من لا يحسن استخدامها من جانب، ولأن القسر والقهر الذي يُمارس ضده من قبل أعدائه قد قاده إلى رد فعل عنيف أفقده (عقلانيته) في كثير من الأحيان، من جانب آخر.

إن الضغوطات العسكرية والسياسية والاقتصادية التي تمارس وبشكل مستمر ضد المجتمعات الإسلامية عموماً، وضد عمل الدعاة المسلمين على وجه الخصوص، تجعل الداعية متشنجاً ومستفزاً على طول الخط، مما يجعل رد فعله تجاه الأحداث تطغى عليه العاطفة، ويقل فيه حساب المآلات. وإذا ما أضفنا إلى ذلك الضغوط الفكرية والثقافية، التي تأتي من فعاليات الغزو



الفكري والثقافي المختلفة، يصبح عقل الداعية كالجندي المدافع في ساحة المعركة، يتوقع عند سماعه لأي صوت أنه هجوم من الأعداء عليه. ولا شك أن هذا التحفز والتيقظ مهمين، إلا أن المبالغة فيهما تسبب ضغوطاً نفسية داخلية ذات آثار قد لا تكون محمودة بالنسبة للعقل وللنفس على المدى البعيد؛ فضلاً عن أن العيش بشكل مستمر في ساحة معركة يخلق جندياً ممتازاً، لكنه قد لا يصنع مخطِّطاً شمولياً ولا بَنّاءً للحضارة فذّاً. فالفسحة ضرورية في كل أمر، والاعتدال مطلوب.

ويُزاد فوق كل ما سبق تأثيرات حرب المعلوماتية، التي تقوم أساسا على الاستفادة من التطور العظيم الذي شهده قطاعي الاتصالات والحواسيب، ويتم تنفيذها من خلال ضخ كم هائل من المعلومات (أخبار، تحليلات، أفلام، ...)، وبأساليب مختلفة ومبتكرة، يتوصل العقل بعد تلقيه لها إلى قدر ضئيل من المعرفة، وقدر عظيم من التشتت والشك والذهول. وبذلك، وبعد الساعات لطويلة من سماع الأخبار وتحليلاتها، ومشاهدة الأفلام، والتصفح عبر شبكة (الإنترنت)، وقراءة الصحف والمجلات؛ والتي يتم الحرص فيها على إعطاء (جميع) المعلومات، جاهزة وناضجة إلى المتلقي، وبأجمل وأذكى الأساليب، وبدون أن يجهد عقله كثيراً في الاستقراء والاستنباط، الذي هو أصلاً لا يمتلك الكثير من أدواته؛ يكون نتيجة كل ذلك نقصاناً في قدرة الإبداع العقلي، وخللاً في العمق والأصالة، وزيادة في الهلامية والمحاكاة

والسطحية، يفقد بعدها العقل قدرته على الفعل الخلاق، ويبقى حائراً في متاهات ردود الأفعال..

وما مجتمع الدعاة، ولا العمل الدعوي المعاصر، بمعزولين عن التأثيرات سالفة الذكر. لذلك كان لا بد من التوقف والتأمل، لكي لا تنجرف الدعوة الإسلامية بعيداً عن أصالتها وطريقها وأهدافها. ولكي لا نترك الأعداء يوقعوننا في ردود أفعال قد حسبوها مسبقاً. ولكي تكون طائفة الدعاة هم الجبال الرواسي التي بسببها لا تميد الأرض بالباطل، كما يسعى لذلك المبطلون، لكل هذا كان لا بد من إعادة الفاعلية والاتزان إلى العقل، وتحقيق السكينة في النفس، والطمأنينة في الروح..

ومن هنا انطلقَ بعض مفكري العمل الإسلامي المعاصر إلى الدعوة إلى تحبيب اللبث في المساجد للداعية المسلم بصورة تتوازن مع نشاطه الدعوي العام، مبررين سبب ذلك بالقول بأن (مجتمع اليوم هائج مضطرب مائج، وهذا الاضطراب قد أصاب الشباب بذهول صرفهم عن التفكر حتى في بديهيات الحياة. فكثرة مشاركتهم في الفعاليات معنا قد تولد فيهم ولاء لنا وتحزّباً، وانخلاعاً عن اللهو، وتربيهم على محبة المؤمنين، ولكن أحدهم قد يبقى غير ملتفت للتفكر، ولا للإنصات إلى نداء فطرته، فنكون قد أخرجناه من اضطراب إجتماعي شديد إلى وضع أحسن، فيه الطمأنينة، ولكنها تقليدية ليست ذات انبعاث ذاتي، كمن يخضع لعلاج طبيب دون وعي صحي منه، وإذا طالت مدته على هذا النحو، استحال إلى عنصر فاقد

للمقدرة على تسيير نفسه، ويحتاج تحريكاً تربوياً دائمياً، حتى يشيب على ذلك، مقلداً مفتقداً التفكير القيادي الذاتي.

إننا بحاجة إلى استغلال كل الطاقة الإسلامية المتواجدة في المجتمع، وهي طاقة واسعة يستحيل تنظيمها كلها، ولكن يمكن أن نقودها، فإذا نشأ عضو التنظيم نشأة تقليدية لا تمكنه من قيادة غيره فان بعض هذه الطاقة سيهدر ونحرم منه..)[٨٢].

ورغم أننا سنعود لاحقاً – إن شاء الله تعالى – إلى موضوع حيازة الفكر القيادي، فإن هذا لا يمنع من أن نؤكد هنا أن كل داعية إلى الإسلام، مهما صغر شأنه في العرف الدنيوي، يحتاج إلى قدر أدنى من هذا الفكر، لقيادة نفسه (الأمارة بالسوء) على الأقل. وإن قضية اللبث في المسجد (إذا صحت فيها النية) إنما تمثل عندنا جزءاً مهماً من الحل، أو إشارة بليغة إليه، حيث أن الحل المطلوب لابد أن يقوم على تحقيق الاستقرار والاتزان على الصعيدين العقلي (الفكري) والروحي معاً. ولا نعتقد أن الوصول إلى أي منهما بشكل صحيح وكامل يمكن أن يتم بدون الآخر.

بل أننا نذهب إلى أبعد من هذا لنقول أن الفعل الحضاري الإسلامي المنشود لن يتحقق ما لم يتم تحقيق الرقي العقلي والروحي على مستوى الدعاة كأفراد، وعلى مستوى الدعوة كجماعة. ورُبَّ هناك من يعد ذلك منا

---

[٨٢] محمد أحمد الراشد، المسار، ص٩٥.



تشدداً ومبالغة لا داعي لها، بسبب قياس باطل ضار تمكن منه؛ حيث أن (من أضر الأقيسة هنا: أن يقيس الداعية كلامنا هذا بما حوله من واقع الحزبيين والانقلابيين، فيجد ما أوجبنا غير واجب، إذ يرى نكرات الناس يحكمون، وكل جاهل ليس له عشر علم الداعية المسلم يتصدر، وكل مخالف لفطرة الجمال معنىً ومظهراً يقول ويتفلسف ويجول.. وما هكذا تفهم الأمور، فان الحقبة الأخيرة من التاريخ السياسي لبلادنا شاذة طائشة، ووجدت الطفولة الفكرية والسياسية لها من أكتاف الجمهور الساذج مصعد وصول، فصالت..)[٨٣]. ومن المعلوم أن تدخل القوى الخارجية، المعلن والخفي، كان يصب في ذات الإتجاه، إتجاه إبعاد المسلم الحقيقي المتجرد عن استلام زمام الأمور، والدفع بأشخاص وهيئات تدور في فلك منظومة تلك القوى الخارجية إلى مواقع الحكم والصدارة. ومن ذلك يتضح فارق كبير بين الذي يتبنى منهج الدعوة الإسلامية الحقة وبين غيره من الأحزاب والجماعات ذات المنطلقات والغايات الدنيوية.

لذلك كان تضخيم مسألة الوصول إلى الحكم والمبالغة بالسلوكيات التنظيمية الحزبية خطئين فادحين وقعت فيهما أكثر الحركات الإسلامية المعاصرة، حيث ألزمت نفسها بما لا يلزم، واقعة (من حيث تدري أو لا تدري) بالقياس الخاطئ مع الأحزاب والجماعات ذات الغايات الدنيوية (وإن لبس

---

[٨٣] المصدر السابق ص ١٢١



بعضها لبوساً من الدين مهلهلاً)، وهو قياس فاسد لا يصح لمن كانت الأخرة غايته، واتخذ في الدنيا من الرضا والتوكل واليقين مركباً له.

إن استهداف العقل في المجتمعات الدعوية من قبل الأعداء، قد يؤدي إلى نتائج أخطر مما يتصوره الكثيرون. ذلك أن الحصانة الفكرية والفاعلية العقلية والصفاء الروحي، التي امتاز بها الجيل القديم منهم، لا تتوفر غالبا بذات المستوى عند الأجيال اللاحقة الأخرى. وهذا بحد ذاته قد يكون أمرا طبيعياً إلى حد ما، لكن عدم الانتباه لهذه الفجوة، وعدم محاولة تقليل حجمها، هو غير الطبيعي في الموضوع.. وبذلك يكون من أوجه استهداف العقل هو إبقاء هذه الفجوة في المستوى العقلي والروحي بين أجيال العمل الإسلامي المختلفة.. فتكون تلك الفجوة كالقنبلة الموقوتة التي تنتظر أزمة مزلزلة أو فتنة حالكة، تمر بها الدعوة، فلا يستطيع أهل الحكمة والدراية كبح جماح المندفعين، أو المحافظة على اتجاه السير. فيختلط الثابت بالمتغير، ويُقدَّم الفرع على الأصل، وتغيب عن أذهان الكثيرين في تلك اللحظات أمورا كانوا يعدونها من المسلمات قبل ذلك. وينسى البعض أن الأصل في المنهج الدعوي هو (ترك القفز، وإلغاء العجلة، وأن يحيد عن الرمية، لا ينتصب هدفاً، بل أنه لا يتواجد في عرصة يمكن أن يأتيه فيها سهم غرب وقذفة طائشة)[٨٤].. وهذا لا يتناقض مطلقاً مع الطبيعة الإيجابية المبادِرة لهذه

[٨٤] المصدر السابق ص ٤٥



المنهجية التي ما هي إلا (نداء لبناء القوة ولتصريف الطاقة وفق تقدير وحساب، فهي تقدم إلى الإمام، نتيجة هذا البناء والتصريف الموزون، وهي انتباه واستباق)[٨٥]..

وإن انتشار الممارسات الانتخابية، وفقاً لأساليب (الديمقراطية) الحديثة المعروفة، رغم ما فيه من إيجابيات لا تُنكر – خصوصاً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار معاناة الأمة الطويلة من الاستبداد والانفرادية–، فهو في الجانب الآخر قد يعطي للأكثرية الغير مكتملة النضج من الدعاة تأثيراً أكبر في توجيه سياسات الجماعات الدعوية واتخاذ القرارات الحاسمة. وبوجود خلل في البناء العقلي والروحي لدى هذه الأكثرية، يصبح لزاماً على أهل العلم والدعوة الشروع بمعالجة هذا الخلل، لكي لا نخرج من أخطاء (الدكتاتورية) لنقع في أخطاء (الديمقراطية)..

إن من نافلة القول، التأكيد على أهمية استغلال الدعوة الإسلامية لأساليب ووسائط المعلوماتية الحديثة، لنشر الفكر السليم، وإيصاله إلى الجمهور الأعظم من الناس، وللتعرف على ما يدور في العالم من حولنا، وللتواصل مع بعضنا ومع غيرنا. غير أن هناك أمرا آخر مهماً يجب أن ننتبه إليه، ذلك هو أن اغلب الشباب المسلم اليوم – من الذين يتعاملون مع وسائط المعلوماتية هذه – بدأت (تسيطر) عليهم هذه الطريقة – التي هي أشبه ما

---

[٨٥] المصدر السابق ص ٤٦

يكون بأسلوب مطاعم الأكلات السريعة – في تناول المعلومات.. وأضافت مشاكل الحياة اليومية والمشاركات الدعوية المكتظة وغير المبرمجة دوافع مهمة لذلك، فأصبح الداعية الشاب لا يجد الوقت الكافي ولا الهمة العالية للقراءات والمدارسات الرصينة.

إن قضية ترتيب وهيكلة المعارف والمعلومات في عقل الداعية لا تقل أهمية عن حجم وكم المعلومات والمعارف التي يُغذى هذا العقل بها، إن لم تزد عليها أهمية. بل إن عقلية الداعية المسلم لابد لها أن تبنى وفقاً لهيكلية تمتاز بالرصانة والأصالة من جهة، وبالمرونة والقدرة على التجديد والابتكار من جهة أخرى.. وكأننا نلمس هنا تناظراً آخر في هذا الخلق البديع . ذلك هو التناظر بين البناء العقلي–الروحي للمسلم، وبين الشريعة الإسلامية الغراء. فكما أن هذا الدين العظيم وهذه الشريعة السمحاء فيها ثوابت ومتغيرات، وأصول وفروع، وقواعد ومكملات، وآفاق مفتوحة؛ فكذلك ينبغي أن تبنى عقلية المسلم.

ونحن في هذا السياق، نتفق مع من جعل من (إصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين وإعادة ترتيب وتشكيل أولويات العقل المسلم)[٨٦] هدفاً أساسيا لعمله، وجعل من أهم وسائل تحقيق هذا الهدف هو (نقل العقل المسلم من الانشغال في الجزئيات إلى الكليات، ومن التوقف عند الرسوم والمباني إلى

---

[٨٦] طه جابر العلواني، من مقدمته لكتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي



التوجه نحو الحقائق والمعاني، ومن التقليد والتبعية إلى الإبداع والأصالة، ومن الاستغراق التام بالوسائل إلى العمل بها على تحقيق المقاصد والغايات)[٨٧].

وإنه لمن الضروري أن يلتفت العلماء والباحثون بتركيز أكبر إلى قضية مناهج فهم الكتاب والسنة ودراستهما واستلهام هديهما، باعتبار أن حُجّيتهما أمر مفروغ منه ومسلم به.

[٨٧] المصدر السابق نفسه



الفصل التاسع:

توسيع آفاق العقل المنضبط

كثيرا ما نسمع في أوساط العمل الدعوي الإسلامي من يقول: (إننا مكلفون بالأخذ بالأسباب، وأما النتائج فهي بيد الله تعالى وحده).. وهو كلام صحيح لا نختلف عليه، ولكن المشكلة في أبعاده غير الواضحة تماماً في عقل الداعية. فهل هو يعني (ضمن ما يعنيه) أنه لا يفترض بنا أن ننظر أبعد من السبب أو الأسباب التي نأخذ بها؟ هل لنا أن نفكر بالمسبَّبات أو النتائج عند تقويم عمل ما؟ هل أننا إذا ما عملنا بالأسباب يجب علينا أن نقصد مسبَّباتها أم لا؟..

لا شك أن قضية السببية ليست جديدة، بل لقد تكلم فيها كثير من الأصوليين والفلاسفة والمتكلمين، قديماً وحديثاً، واختلفت وجهات نظرهم فيها. ويبدو أن قراءات الدعاة غير الممنهجة وغير المستوعِبة لبعض الكتب التي تناولت الموضوع، قد ساهمت في جعل الإشكالية تستمر في عقل الداعية المعاصر، بشكل شعوري أو لاشعوري، في عمله الدعوي، إن لم يكن على صعيد الفكر، فعلى صعيد الممارسة!..

حتى وصف البعض تأثير ذلك على عقل المسلم المعاصر بأن (الإنسان المسلم أصبح شخصية قلقة مهزوزة، مرة تعتبر السبب وتأخذ به، ومرة تلغي

السبب، مرة تنتظر حصول الشيء بدون أسباب، ومرة تتوصل إلى النتيجة بأسباب غير الأسباب الموصلة إليها؛ و حينما يعجزها الأمر تقول كل شيء بإرادة الله وتنسب الأمر للإرادة الإلهية، ويصبح الإنسان في مأزق عقائدي، يعني إما أن تناقش الموضوع وتحاول أن تفنده فتُنسب إلى الكفر أو البدعة، وأما أن تسكت وتكون إنساناً لا منهجياً ولا علمياً، لا تستطيع أن تربط بين مسبَّب وسبب، ولا تستطيع أن تربط بين نتيجة ومقدمات)[٨٨].

لقد شغلت قضية السببية حيزاً مهماً في الصراع بين الفلاسفة والمتكلمين في تأريخ الفكر الإسلامي. ويرى بعض الباحثين المعاصرين[٨٩] أنه كان لموقف بعض الأصوليين (وخصوصاً الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة) دوراً مهماً في (تشويه) مفهوم السببية لدى المسلمين، وبالتالي (تشويه) التصور العلمي للطبيعة لديهم، حتى عدّه ذلك البعض (مقدمة لتراجع العلوم العقلية في المدارس والجامعات التي سيطر عليها الفقهاء وعلوم الشريعة)[٩٠]. وسوف نعرض باختصار ما يراه هؤلاء الباحثون في موقف الإمام الغزالي هذا من خلال تتبع مناقشة أحدهم لها، وسنبين بعدها (بإذنه

[٨٨] د. طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة، ص٣٦-٣٧.

[٨٩] منهم لؤي صافي في كتابه إعمال العقل ، و محمد عابد الجابري في كتابه تكوين العقل العربي .

[٩٠] د. لؤي صافي ، إعمال العقل ، ص٢١٨

تعالى) رؤيتنا التي نظنها راجحة لهذه القضية، ومن ثم مدى ارتباطها بالفعل العقلي في المجال الدعوي.

حيث يرى هذا الباحث[٩١] (أن الغزالي لم يقصد من كتابه هذا إنكار الطبيعيات في الدراسات الفلسفية أو ضعضعة أسسها، كما صرح –أي الغزالي– في مقدمة كتابه، بل إظهار فساد آرائهم المتعلقة بأصول الدين. لذلك نراه في مقدمة كتابه يميز بين علومهم الإلهية وعلومهم الحسابية والمنطقية، فيقدح الأولى ويصحح الثانية، وعلى الرغم من تحذير الغزالي الفقهاء و المتكلمين من مغبة رد الآراء الفلسفية في المنطقيات والطبيعيات لمجرد غرابة لفظها أو مخالفة الحس المشترك، والتشديد على أن مهمته تقتصر على التصدي لأقوالهم التي تعارض أصلا من أصول الدين، نراه يرتكب ما نهى عنه ويعمد إلى إنكار العلاقة الضرورية بين السبب و المسبَّب ... ولم يدر الغزالي –رحمه الله تعالى– أن إنكار مبدأ السببية إنكار لخصائص الموجودات الطبيعية ومقوماتها الذاتية، وأن رفضه القاطع لضرورة ارتباط السبب بالمسبَّب انطلاقاً من ممكنات نظرية تقويض للركن الذي تقوم عليه العلوم الطبيعية..)[٩٢].

إن الإمام الغزالي ينكر ضرورة الارتباط (اللزومي) للمسبَّب بسببه، ويرى أن اقترانهما ناجم عن العادة والألفة. أي أنه يرى أن العلاقة بين السبب

---

[٩١] وهو د.لؤي صافي في كتابه إعمال العقل

[٩٢] د. لؤي صافي ، إعمال العقل ، ص٢١٨-٢٢٠

والمسبَّب أو العلة والمعلول، هي علاقة تساوق لا ضرورة. ولا شك أن هذا الموقف له ارتباطه الوثيق مع خلفية الصراع الفكري الذي كان دائراً آنذاك، حيث يعود موقف الغزالي هذا –حسب رأي هذا الباحث– إلى سببين هما:

١. إن القول بالضرورة في علاقة السبب بالمسبَّب يؤدي في تقدير الغزالي إلى جعل السبب هو الفاعل المؤثر في المسبَّب، في حين أن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى.

٢. خشيته أن يؤدي إثبات الضرورة إلى إنكار الخوارق التي ذكرها القرآن، مثل حفظ الله تعالى إبراهيم من النار عندما ألقي فيها.

ويتابع الباحث تحليله لموقف الإمام الغزالي قائلاً: (إننا نتفق مع الغزالي بأن النار لا تملك الإرادة لتكون فاعلاً مستقلاً، كما نتفق معه في أن التساوق بين شيئين أو ظاهرتين لا يقتضي قيام علاقة سببية بينهما ... لكنه رحمه الله لم يتوقف عند هذا، بل تابعه إلى إنكار أن للأشياء خصائص ملازمة ومقومات محددة)[٩٣]، ويستشهد لذلك بنص من كتاب (تهافت الفلاسفة) منه ما يلي: (وإذا كان كذلك فمهما فرضنا النار بصفتها، وفرضنا قطنتين متماثلتين لاقتا النار على وتيرة واحدة، فكيف يتصور أن تحترق إحداهما دون الأخرى، وليس ثَمَّ اختيار؟).. ويفسِّر (تردد) الإمام الغزالي في اثبات ملازمة الأشياء خصائصها بأنه (يعود إلى خشيته أن يؤدي ذلك إلى نزع

---

[٩٣] د. لؤي صافي ، إعمال العقل ، ص٢٢٢



الاختيار عن الإرادة الإلهية. وهذا ناجم في تقديرنا عن افتراض تعارض الضرورة والاختيار، وهو افتراض لا يسلم له، فالقول بضرورة حدوث الاحتراق عند التقاء النار بمواد قابلة للاحتراق لا يعني بحال من الأحوال نفي الاختيار عن الإرادة الإلهية، لأن ضرورة الاحتراق ليست سوى تجلي للمشيئة الإلهية. لقد شاء الله تعالى أن يكون الإحراق خاصية ملازمة للنار وسنة ثابتة، كما شاء أن يكون العذاب والهلاك مصير المكذبين... فالضرورة في حق الله تعالى هو ما اختاره بمشيئته وارتبط بصفاته وأسمائه)[٩٤].

ويوافق الباحثُ أبا الوليد محمد بن رشد في رده على الغزالي على استخدامه لفكرة (العادة) في تفسيره للقضية، من خلال كتابه (تهافت التهافت)، ليخلص إلى أن (الحكم بوجود علاقة سببية بين شيئين يعود أولاً، إلى أن الإرادة الإلهية التي قدرت الأمور وأعطت كل شيء قدره تتجلى وفق سنن ثابتة وقوانين دقيقة يدرك الإنسان بعضها ويجهل بعضها الآخر، وقد يدرك بعضها حيناً ويغيب عنه دقائق تقدير الله العليم ولطف إرادته أحيانا. ويعود الحكم ثانياً، إلى أن مبدأ السببية مركوز في أصل الخلق وبنية الطبيعة، بحيث ينفرد كل نوع من الأنواع بخصائص تميزه وتحدد الوظيفة الخاصة به في نظام

[٩٤] د. لؤي صافي ، إعمال العقل ، ص٢٢٣



الخلق المحكم. ويعود الحكم أخيراً، إلى أن العقل البشري مطبوع على تمييز العلاقات السببية القائمة على رابطة ضرورية من غيرها من العلاقات)[٩٥].

ثم يستطرد في توضيح النقطة الأخيرة ليؤكد على أن (الملاحظة والتجربة تدلان على أن مبدأ السببية مبدأ عقلي قبلي، وقدرة فطرية للنفس البشرية العاقلة. فالعقل لا يحكم بقيام علاقة سببية بمجرد تساوق حدثين أو ظاهرتين، لذلك لا نحكم بأن صياح الديك سبب لبزوغ الشمس لتساوق الحدثين، ولا نسمي خرق إمام اعتاد قراءة سورة السجدة فجر كل يوم جمعة لعادته معجزة. في حين نسمي خرق مبدأ السببية معجزة تشرئب إليها العقول.. ويطوش بها اللب. ويستطيع أحدنا أن يتصور بسهولة حجم الزلزلة التي يمكن أن تصيب امرءاً أراد الجلوس على كرسي فتحرك الكرسي مبتعداً عنه.. إن أحدنا لن يحكم بأن حدثاً كهذا ليس سوى تغير في العادة.. إن المعجزة ليست خرقاً للعادة ولكنها زلزلة للعقل وإشعار له بأن ما يراه حدث مرتبط مباشرة بسر الوجود، وأنه لذلك عصي على الفهم والتفسير وفق مبادئ العقل القبلية، وفي مقدمتها مبدأ السببية)[٩٦].

ومن ذلك يصل الباحث إلى أنه (كان حرياً بالغزالي أن يكتفي برد الخوارق الطبيعية التي وردت في الكتاب الحكيم إلى العلم الإلهي المحيط والقدرة

---

[٩٥] المصدر السابق نفسه ص٢٢٥

[٩٦] المصدر السابق نفسه ص٢٢٦



الربانية المعجزة بدلاً من تقويض مبدأ عقلي لا يستغنى عنه في تفسير الظواهر الطبيعية وفهم العلاقات الاجتماعية.. بل كان أحرى بالغزالي، وقد شاء الخوض في المسألة.. أن يحيل المعجزة إلى تغير في الشروط المصاحبة لتأثير السبب في المسبَّب بدلاً من إنكار ملازمة الأشياء خواصها)[٩٧]، وفعلاً فإنه ينقل نصاً للغزالي بهذا المعنى يقول عنه إنه إنما كان (على سبيل التسليم الجدلي للخصم، ليعود بعد جمل قليلة إلى رأيه الأول)[٩٨] الذي تم بيانه آنفاً..

و هكذا يؤكد الباحث ما ابتدأ به تحليله لموقف الغزالي (أو قل موقف المتكلمين الأشاعرة) من (أن نقض الضرورة السببية تضييع للعقل وتمييع لثوابته المبدئية، وبالتالي تضييع للعلوم الطبيعية والإجتماعية. فلا قوام لهذه العلوم بعد إنكار ملازمة الأشياء لخواصها، ولزوم الأسباب لمسبَّباتها. لذلك يشدد ابن رشد على أن [العقل ليس شيئاً أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق عن سائر القوة المدركة. فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل] وبارتفاع العقل ترتفع المبادئ التي توجه حركة الفكر، وتحول دون تخبطه في متاهات التخمينات والاحتمالات والإمكانات والظنون)[٩٩].

ولا ننسى هنا موقف الإمام ابن تيمية في رده الشديد على المتكلمين متهماً إياهم بمخالفة الكتاب والسنة وإجماع السلف فضلاً عن مخالفة العقل

---

[٩٧] المصدر السابق نفسه ص٢٢٦-٢٢٧

[٩٨] المصدر السابق نفسه ص٢٢٧

[٩٩] المصدر السابق نفسه ص٢٢٨



والحس، فيقول (وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الأسباب أيضاً، ويقولون: إن الله يفعل عندها لا بها. فيقولون: إن الله لا يُشبع بالخبز ولا يروي بالماء ولا ينبت الزرع بالماء، بل يفعل عنده لا به. وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح العقل والحس؛ فان الله قال في كتابه {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١٠٠] فأخبرنا أنه ينزل الماء بالسحاب، ويخرج الثمر بالماء..)[١٠١].

وأخيراً يلخص الباحث موقف الإمام الغزالي قائلاً: (ويقوم منطق الغزالي في إنكاره الضرورة السببية على أن الإيمان بقدرة الله المطلقة وأنه تعالى لا يعجزه شيء في السماوات والأرض يقتضي إمكان تغيير طبيعة العلاقة بين الأشياء من حالة الضرورة إلى حالة الإمكان أو الاستحالة. والمشكل في منطق الغزالي هذا، ومنطق من حذا حذوه، أنه يعتمد في فهم النظام الكوني على افتراضات عقلية بعيدة كل البعد عن البنية الفعلية للنظام كما أراده الله.. حيث أن اطلاق الإرادة الإلهية لا يقتضي إنكار الضرورة السببية، بل يدعونا إلى التأكيد على لزوم الأسباب للمسبَّبات.. والضرورة التي نقول بها لا تنبني على التجربة والمشاهدة الحسية فحسب، بل ترتكز أيضا على العلاقة بين

---

[١٠٠] (الأعراف:٥٧)

[١٠١] نقلاً عن إعمال العقل ص٢٢٩

النظام الطبيعي والعلم اللدني من جهة، وبين النظام الطبيعي والعقل الإنسي من جهة أخرى. فالكمال والإطلاق لا ينحصران في الإرادة الإلهية، بل يشملان أيضا العلم والقدرة الإلهيين. ولأن النظام الطبيعي الذي يحدد العلاقة بين الأشياء منبثق عن علم وقدرة مطلقين؛ فإن الأنساق التي تمثل هذا النظام هي أنساق على درجة مطلقة من الكمال... وبالمثل، فإن ضرورة العلاقات السببية في النظام الطبيعي يستدعيها قدرة العقل على إدراك النظام الطبيعي واكتشاف قوانينه. فالعقل البشري، كما بيّنا سابقاً، قادر على تمييز التساوق السببي من التساوق غير السببي.. وهذه القدرة تتعلق ببنية العقل الداخلية. فالمنطق الداخلي الذي يحكم العقل شبيه بالمنطق الذي يحكم النظام الطبيعي، وهذا التماثل هو سر إدراك العقل لنظام الوجود.. فإن العلم الإنساني قادر على تمييز النظام الطبيعي لأنه مستمد من العلم الإلهي الذي أوجد هذا النظام. وبالتالي فإن النظام الطبيعي ضروري (واجب) لا إمكاني (جائز) كما توهم الغزالي والمتكلمون، وهو كذلك لأنه صادر عن عليم، خبير، لطيف، حكيم، خلق كل شيء بأحسن صورة وأتم تقدير)[١٠٢].

ولئن كان تحديد الغزالي لمجال كلامه بالرد على الفلاسفة في آرائهم في أصول الدين (كما جاء ذلك في مقدمة كتابه تهافت الفلاسفة)، لم يشفع له كثيراً

[١٠٢] المصدر السابق ص٢٣٠-٢٣٢ مع تصرف قليل

عند بعض الباحثين (الذين بينّا رأيهم للتو)، فإن ذلك (بالإضافة إلى جل كتاباته الأخرى) قد جعلت باحثين آخرين[١٠٣] يقفون موقفاً آخر يلقون فيه باللوم على بعض ممن جاء بعد الغزالي ممن أساؤوا فهم مقصد كلامه.. فصرح بعضهم قائلاً: (ولقد ظن كثير من الناس ممن لا يميزون بين المعاني المتنوعة، ولا يتعمقون بانصاف في فهم الحقائق الإسلامية، ومواقف علماء الإسلام ومفكريه منها، أن الإمام الغزالي كان يريد القضاء على العقلانية في العالم الإسلامي، وهذا الظن خطأ محض. فالغزالي لم يرفض المنطق العقلي الذي هو الحد المشترك بين العقول، وإنما رفض الجوانب الإلهية من الفلسفة اليونانية التي تأثرت بالبيئة الوثنية اليونانية من خلال تصورات محضة لقضاياها، عبر منهج ساقط وهو تطبيق مسائل المنطق في المجال الغيبي المحض بصرامة هندسية قاطعة.. أي أن الغزالي قد رفض، كما هو واضح في كل صفحة من صفحات كتابه [تهافت الفلاسفة]، الفكر اليوناني ولم يرفض المنطق العقلي الذي عده معياراً للعلم في كتابه [معيار العلم] وصدر معظم كتبه بمقدماته اليقينية عنده ك[المستصفى في علم الأصول]، وطبقه بذكائه المعهود عند مناقشته للإسماعيلية اللاعقلانيين في كتابه [فضائح الباطنية] وكتابه النفيس [القسطاس المستقيم]. وانتهاء الغزالي إلى الإيمان بالكشف كان في الوصول إلى الطمأنينة في المجال الغيبي المحض، وليس في مجال عالم الشهادة (المادة) حيث دعا إلى استعمال كل في مجاله الخاص به.

---

[١٠٣] مثل د.محسن عبد الحميد في كتابه تجديد الفكر الإسلامي



ومن المؤسف في تأريخ القرون الأخيرة أن موقف الغزالي لم يفهم من قبل حفظة النصوص، والتيار الصوفي اللاعقلاني، الفهم الحقيقي، ولم يتجه هؤلاء إلى وضعه في حجمه الحقيقي من صراع ذلك الزمن، فانطلقوا من موقف الغزالي إلى محاربة المنطق العقلي، ثم العقلانية الإسلامية الصحيحة..)[١٠٤].

ولا شك أن هذا الموقف من الإمام الغزالي يتفق مع اعتبار (أن تيار العقلانية الذي تمثل في الفقهاء والأصوليين ومتكلمي المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ومتكلمي أهل الحديث، هو الذي يمثل التيار الإسلامي الحقيقي على الرغم مما يظهر بينهم من اختلاف في المناهج. والاختلاف الذي حصل بينهم لم يكن في قبول المنطق، وإنما في مجال استعماله)[١٠٥].

ونحن الآن إذا ما انطلقنا من هذا الفهم بأن الاتجاهات التي ضمها تيار (العقلانية) الإسلامي لم تختلف في قبول المنطق (الحد المشترك بين العقول)، فهل كان من تابع ابن رشد الحفيد من الباحثين محقاً عندما اعتبر أن انكار الضرورة السببية هو تدمير للعقل؟ هل يمكن لهذه المسألة أن يكون لها هذا الحجم من التأثير؟ وهل أن حجم هوة الخلاف في المسألة يصل إلى هذا الحد؟..

---

[١٠٤] د.محسن عبد الحميد ، تجديد الفكر الإسلامي، ص١٧٧-١٧٨

[١٠٥] المصدر السابق نفسه ص١٧٦





والذي يبدو لنا (والله تعالى أعلم) أن هذا الاختلاف له أهمية نظرية أكبر بكثير من أهميته العملية (أي في مجال الفعل الإنساني المطلوب في عالم المادة). فليس هناك خلاف حقيقة في أهمية الأخذ بالأسباب، ولا في وجود علاقة بين الأسباب ومسبَّباتها. وكأن الإمام الغزالي (ومن وافقه) كان ينشد وضع صياغة تأصيلية للمسألة بشكل أكثر شمولاً وتجريداً وإحكاماً، فاكتسبت آراؤه، والإشكاليات التي أثارتها، أهمية نظرية بالغة، لها علاقة وثيقة بطبيعة الصراعات الفكرية في زمنه..

فقولنا، اتباعاً لما ورد في القرآن الكريم، من أن هناك سنناً كونية (قوانين طبيعية وإجتماعية وسلوكية) أودعها الله بحكمته في هذا الكون، وجعلها نافذة وماضية في خلقه، لا يؤدي بالضرورة (حسب فهمنا) إلى أن تكون العلاقة بين سبب ما والمسبَّب هي علاقة اللزوم (بكل بساطتها)، التي يقول بها ابن رشد ومن تابعه. ذلك أننا لو أردنا وضع صياغة منطقية (رياضية) للمسألة بحيث تكون الأسباب في طرف، والمسبَّبات في الطرف الآخر، فإن وضع هذه الصياغة سيتطلب الإجابة عن تساؤلات عدة تتعلق بأعداد العوامل والمتغيرات التي تدخل في أي من الطرفين، ونسبة ما نعرفه أو ما نستطيع إدراكه منها ومدى حدود ذلك، والشروط المصاحبة والمؤثرة في أي من هذه المتغيرات أو العوامل وكيفية التفاعل فيما بينها، وبالتالي الوصول إلى تحديد العلاقة التي تربط بين الطرفين (هذا إذا ما سلّمنا بأنهما طرفين وليس أكثر)..



وبناءً على ذلك يبدو أن القول بعلاقة اللزوم لتفسير مبدأ السببية، هي ليست الصياغة الرصينة الوحيدة الممكنة. ورغم أن هذه العلاقة (اللزوم) هي كافية لنا على الصعيد العملي (الممارسة)، فإنها قد تكون، على الصعيد النظري، غير كافية أو مقنعة تماماً. ومن هنا يستجلى موقف الغزالي..

ولكي نرد على الاعتراض القائل بأن هذه الحلول (الممكنات) لصياغتنا المفترضة، قد تكون نظرية مجردة فقط وبعيدة عن فهم تركيبة النظام الطبيعي الذي أودعه الله في هذا الكون، فإننا نشير إلى بعض النظريات العملية الحديثة، التي كان لها دور كبير في التطور التقاني في عالم اليوم، ومنها نظرية (ميكانيك الكم) وهي نظرية فيزياوية تفسر سلوك أدق الجسيمات التي يتألف منها الكون. والمهم في هذه النظرية هو أنها ترتكز على مفهوم الاحتمالية (الإمكان) في جوانب مهمة وأساسية منها، في تفسيرها لسلوك الجسيمات الدقيقة المكونة لمادة هذا الكون وطاقته.. وبذلك (فإننا كمراقبين أو كبشر) لا نستطيع أن نصف بعض مشاهدتنا وقياساتنا في هذا الكون بأنها مُلزِمة (ضرورية)، وإنما غاية ما نستطيع قوله عنها بأنها ممكنة (محتملة) وفقاً لنسبة معينة..

و(ميكانيك الكم) وإن كانت نظرية علمية وليست قانوناً ثابتاً، إلا أنها غاية ما توصل إليه العقل البشري في فهم دقائق هذا الكون، وجميع التجارب المختبرية والواقعية التي أجراها البشر إلى يومنا هذا تتطابق مع ما تنبأت به هذه النظرية، رغم مضي حوالي قرن من الزمن على ظهورها. وسواء وصل

العقل البشري في المستقبل إلى اكتشاف نظريات أو قوانين أكثر دقة منها لتفسير النظام الطبيعي أم لم يصل، فإن الذي يبدو لنا هو أن هناك حدوداً من الجزم (الإلزام) قد لا يستطيع العقل البشري تجاوزها حتى في مجال عالمه المحسوس (المادة).. ولا يرد الاعتراض هنا بأن الله تعالى يعلم على وجه الدقة المتناهية كل الأشياء بما فيها تلك التي نعبر نحن عنها بعلاقات احتمالية، فهذا مما لا خلاف فيه؛ ولكننا نقصد من طرحنا هذا، الكلام عن قدرة العقل الإنسي على الوصول إلى صياغات محددة ودقيقة (مُلزِمة) للقوانين في عالم المادة، رغم إيماننا الكامل بأن هذا الكون (بتقدير الله تعالى وحكمته) مبني وفق نظام وتناسق تامين.

ومن جانب آخر، يمكننا إعادة طرح إشكالية السببية عندما نتكلم عن المعجزات والخوارق، فنقول أنه يمكننا أن نتحدث عن السنن الطبيعية الجارية في هذا الكون والتي يوقف الله تعالى بقدرته عملها إذا شاء، ويبدل مكانها سنناً خارقة. ولكن ألا يمكن للعقل أن يكتشف أو يضع صياغة (منطقية) موحدة لتفسير كلا النوعين من السنن؟.. والذي يظهر لنا هو أن أفق هذه الصياغة الموحدة، هو الذي كانت تدور حوله آراء الإمام الغزالي في القضية، والله أعلم.

وما نستنتجه من كلامنا هذا أنه إذا ما دفعنا بإعمال العقل إلى حدوده القصوى في عالم المادة، فإننا سنصل إلى مكان يصبح فيه وجود الجانب الإيماني أساسياً لكي يحافظ العقل على اتزانه؛ حتى ليصبح لمقولة عدم



اتكالنا على الأسباب، رغم أننا مأمورون بالأخذ بها، تفسير عقلاني محض ولا تبقى مجرد قضية إيمانية أو أصولية. فالعقل يفشل في أن يثبت بشكل قاطع (بلغة رياضية بحتة ومنطق صارم) أن الأخذ بالسبب هو يفضي لزوماً للوصول إلى نتيجة معينة في كافة الأحوال، رغم اتفاقنا على عدم إنكار الأسباب والخواص والطبائع..

ولهذا كان أهل التربية والسلوك يتناولون موضوع رعاية الأسباب في كتاباتهم عن منازل السير إلى الله تعالى ومقامات الإيمان واليقين، فيقول ابن القيم في (مدارج السالكين): (ومن منازل إياك نعبد: منزلة رعاية الأسباب؛ ذلك أن التوحيد يقتضي القيام بالأسباب الظاهرة، كالحركات والأعمال واعتبارها وعدم تعطيلها، ولكن يقوم بها وقد عزلها عن ولاية النجاح والنجاة... وكذلك يقتضي القيام بالأسباب الباطنة، كالإيمان والتصديق، ومحبة الله ورسوله، فإن النجاة معلقة بها، بل التوحيد نفسه من الأسباب، بل هو أعظم الأسباب الباطنة. فالقيام بالأسباب واعتبارها وإنزالها منازلها التي أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي)[١٠٦].

كما ننقل هنا أيضا نصاً آخر لابن القيم، فيه دلالات قوية على صحة ما ذهبنا إليه من تقليل أهمية الخلاف الدائر في الموضوع ضمن توجيه التيارات

---

[١٠٦] نقلاً عن تهذيب مدارج السالكين ، لعبد المنعم صالح العلي العزي ، ص٦٣٧





الإسلامية (العقلانية) له، ومن أن علاقة اللزوم التي قال بها البعض إنما هي تبسيط ناجح عملياً لعلاقة أكثر تعقيداً على مستوى النظرية. يقول ابن القيم: (والموحد المتوكل لا يطمئن إلى الأسباب ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها ولكن يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها، ناظراً إلى مسبِّبها سبحانه ومجريها. فلا يصح التوكل –شرعاً وعقلاً– إلا عليه سبحانه وحده، فإنه ليس في الوجود سبب **تام موجب** إلا مشيئته وحده. فهو الذي سبّب الأسباب. وجعل فيها القوى والاقتضاء لأثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضي **وحده** أثره، بل لا بد من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسباباً تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه، فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر، ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته)[١٠٧]. وهذا الفهم لقضية الأسباب والمسبَّبات، يؤيد إيماننا بأن الغاية لا تبرر الوسيلة..

وبعد هذا كله لا يكون مستغرباً ما لاحظه أحد دارسي شيخ المقاصد الإمام أبي إسحاق الشاطبي، من وجود بعض (الاضطراب) لدى الشاطبي عند تناوله لمسألة (هل يلزم قصد المكلف إلى المسبَّبات أو الالتفات إليها عند دخوله في الأسباب المؤدية إليها؟..). حيث أن الشاطبي وجّه الإجابة عن ذلك وجهتين مختلفتين، في موضعين من كتابه (الموافقات)، الأمر الذي لم

[١٠٧] المصدر السابق نفسه ص٦٣٩



يغفل عنه الشاطبي نفسه فحقق هذا (التناقض) ليصل إلى جواز الأمرين، مما جعل ذلك الدارس يستنتج بأن (هذا يدلنا على إنه –أي الشاطبي– إنما جعل للمكلف الخيرة في الالتفات إلى المسبَّبات أو عدمه، مع التسوية التامة بين الأمرين، لأجل ما قد يقع في الالتفات إلى المسبَّبات والتعلق بها من "الأغيار والأكدار".. فإذا تبرأ قصد المكلف منها، صار إلتفاته وقصده إلى المسبَّبات أولى من عدمه. وبهذا نخرج من (التناقض)، ونصل إلى التوافق مع ما قرره في كتاب المقاصد من أن قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع)[١٠٨].

وهكذا كانت تلك الحساسية الإيمانية من وقوع المكلَّف في المبالغة في التعلق بالأسباب والمسبَّبات، وبالتالي الغفلة عن الله تعالى وربما الكفر به (وهذا ما يعنيه الشاطبي بالأغيار والأكدار) هي السبب فيما بدا من تناقض. فلما اطمأن الشاطبي (إلى أنه قد نبه التنبيه الكافي على الآفات التي تنتج عن التعلق المبالغ فيه بالمسبَّبات، عاد إلى ترجيح الالتفات إلى المسبَّبات عند تعاطي أسبابها – ولعلها هي الأصل عنده - وإلى بيان مزاياها وفوائدها؛ ومن ذلك أن المكلف يكون – بالتفاته إلى المسبَّبات – على بال من النتائج التي يفضي إليها تسببه، سواء كانت حسنة أو سيئة. وهذا نوع من

---

[١٠٨] أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، ص١٧٦

اعتبار مآلات الأفعال وهو أصل مسلَّم به في الشريعة)[١٠٩].. وفي هذا الصدد بين الشاطبي بـ(أن الله عز وجل جعل المسبَّبات على وِزان الأسباب في الاستقامة والاعوجاج. فإذا كان السبب تاماً والتسبب على ما ينبغي، كان المسبَّب كذلك، والضد... فمن إلتفت إلى المسبَّبات من حيث كانت علامة على الأسباب في الصحة والفساد، فقد حصل على قانون عظيم يضبط به جريان الأسباب على وزان ما شرع أو على خلاف ذلك. ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع، دليلاً على ما في الباطن)[١١٠].

ثم أن الشاطبي (ووفقاً لعقليته المقاصدية) قد وضع قاعدة للتمييز بين الحالات التي ينبغي فيها الالتفات إلى المسبَّبات، لما في ذلك من المصلحة، والحالات التي لا ينبغي فيها ذلك لما فيه من المفسدة، فقال: (إن كان الالتفات إلى المسبَّب من شأنه تقوية السبب، والتكملة له، والتحريض على المبالغة في إكماله، فهو السبب الذي يجلب المصلحة. و إن كان من شأنه أن يكر على السبب بالإبطال، أو بالإضعاف، أو بالتهاون به، فهو الذي يجلب المفسدة)[١١١]..

---

[١٠٩] أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، ص١٧٧ مع تصرف قليل

[١١٠] الشاطبي ، الموافقات ،نقلاً عن نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ص١٧٨-١٧٩

[١١١] الشاطبي ، الموافقات ،نقلاً عن نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ص١٧٩



ولا بد لنا هنا أن نوضح، بقدر أكبر، قضية اعتبار المآلات، حيث أنها قضية في غاية الأهمية بالنسبة للعمل الدعوي، وهي تتفرع عن مسألة السببية. ويقول الشاطبي في ذلك: (النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة)[١١٢].

و في السنة النبوية دلائل كثيرة على هذا، منها امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين، مع علمه بهم و بما هم عليه من حال، مخافة أن يجفل أشراف العرب عن دخول الإسلام، حيث قال: (أخافُ أن يتحدث الناسُ أن محمداً يقتلُ أصحابَه)[١١٣]. ومنها أيضاً تخليه عن إعادة بناء البيت الحرام على قواعد ابراهيم، كي لا يثير البلبلة بين العرب، وأكثرهم كانوا لا يزالون حديثي عهد بالجاهلية[١١٤]..

و لذلك فانه لا ينبغي للمسلم الذي يعمل لأجل هذه الدعوة المباركة أن يجازف بأعمال لا يتدبر عواقبها، قد تؤدي إلى فتنة تصيب العمل الإسلامي برمته، وتهدم في أيام بناءً استغرق العمل به سنوات طويلة. ومن هذا انجرار بعض دعاة الإسلام إلى مواجهة مباشرة مع قوى الكفر في توقيتات غير

---

[١١٢] الشاطبي ، الموافقات ،نقلاً عن نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ص٣٥٣

[١١٣] متفق عليه.

[١١٤] أخرج الإمام البخاري في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: (يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم).



مناسبة، محاولين القفز على سنن الخلق وقوانين التغيير والتدافع، متناسين أن (ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب)، وأن الأخذ بأسباب الجهاد هو من مستلزمات الجهاد نفسه، وأن الأمة قد فرطت لسنوات طويلة في الأخذ بهذه الأسباب، حيث أن الجهاد هو فريضة (تحوي في طياتها فرائض، فالتدريب فريضة، ونية الجهاد فريضة، والإعداد فريضة، وهذه الفرائض يطالب بها الجميع)[115]..

ولعل من أعظم ما فرطت به الأمة من أسباب الجهاد هو تخلفها الشديد في المجالات العلمية والتقانية والصناعية، حتى صارت تعتمد بشكل شبه كلي على شراء معداتها (وأسلحتها) من أعدائها. وعلى هذا يكون من واجبات الجهاد اليوم هو إعادة بناء الأمة، والإرتقاء بمختلف مناحي الحياة فيها، العلمية، والتقانية، والأقتصادية، وغيرها. وكل ذلك ينطوي تحت فريضة الجهاد. إن نيل الشهادة ودخول الجنة، يعد عندنا مغنماً عظيماً، لكن إرضاء الله تعالى بالسير وفقاً لمقتضيات شريعته، ومراغمة أعداءه وفقاً لما أمر، هو الأصل في ذلك وهو المغنم الأعظم. قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة:٧٢)..

---

[115] سعيد حوى ، في آفاق التعاليم ، ص١١٣

والله يختار من يشاء من عباده، ويختار لهم ما يشاء، ولقد رضينا بالله رباً وإلهاً.

وخلاصة كل ما سبق تقديمه في قضية السببية، هو أنه ينبغي بالداعية المسلم أن يأخذ بالأسباب بكل همة وعزيمة، تعبداً لله، مخلياً قلبه منها، إلا من التوكل على خالقها، معتقداً أنها تؤدي، بطريقة ما، إلى مسبَّباتها ونتائجها، إذا شاء الله تعالى ذلك. فيزيد ذلك من عزمه في الأخذ بها، كما يزيد من عظيم توكله على خالقها، واضعاً نفسه رهن أمر مولاه إذ أمَرَه بالأخذ بها، معملاً فكره في آفاق هذا العالم المحسوس ليتعرف على عظيم صنع مولاه، وعلى سننه وقوانينه التي شاء جل جلاله أن يسير هذا الكون وفقاً لها، فتعظم معرفته بأسرار الخلق، مقدماته ونتائجه، ويعظم في قلبه شان خالقه ومولاه.. يوازي ذلك كله نظر في كتاب ربه الذي خوطب به، وفي عظيم الشريعة والمنهج الذي جاء معه، مؤمناً بأنها مبنية وفق ذات النظام الدقيق الذي ابتني عليه هذا الكون، طالما أن مصدرها واحد. فيسشمر عن ساعد الجد في عمله ليرضي مولاه، آخذاً بسننه، ناظراً في مآلات عمله، والله المستعان..

وهكذا يتكشف لنا أنه لا ينبغي بمن يعمل للإسلام بعد الآن أن يجعل من قضايا نظرية مرتبطة بمرحلة تأريخية معينة من تطور الفكر الإنساني، أن يجعل منها عائقا أمام انطلاقته في العمل لنصرة دينه واستعمار الأرض وفقاً للمنهج الرباني. فضلاً عن أن يعيد أقوام استنساخ الجدل القديم حول تلك



القضايا أو أن يحمّلوها فوق ما تحتمل، فيتنابزوا بينهم بالألقاب، فما أشد بؤس الجدل بعد العمل..

ولقد كان الأقرب لمن يريد نصرة دينه، بدل أن يكرر من جديد صراعات الماضي، أن ينطلق مبرزاً قدرات عقله في سبر أعماق العلم الحديث ونظرياته المعقدة، ليستخرج درراً من الحكمة هو أولى الناس بها، فيضع العلم النافع في موضعه الصحيح، لينفع به أمته والناس جميعاً، فيعيد ترتيب سلم الفعل الحضاري الإنساني إلى وضعه السليم، ليعود المسلمون مجدداً ليخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة..



الفصل العاشر:

تأصيل الفهم المقاصدي

يتعرض الدعاة في كثير من مواقف العمل الدعوي الإسلامي إلى قضايا متشابكة متداخلة، حتى يكون النظر في المسألة، من زوايا مختلفة يؤدي إلى آراء مختلفة فيها، ولكل رأي أدلته. يضاف الى ذلك أن كثيراً من هذه القضايا تكون مستجدة في بعض جوانبها، مما يضيف تعقيدا أكبر لها. وهنا يكون للفهم المقاصدي القائم على نظر واستقراء شموليين لكليات الشريعة ومقاصدها دور كبير في الوصول الى الرأي السديد واتخاذ الموقف المناسب. ومما يؤسف له أن الكثير من الدعاة (وخصوصاً الشباب منهم) لا زالوا يستبطنون عقلية تجزيئية نصوصية، رغم أنهم يؤمنون إجمالاً بصحة وضرورة الفهم الشمولي والعمل المتكامل للإسلام..

والسبب في ذلك (برأينا) هو أن هذا المستوى من النظر يتطلب دراية وعمقاً في فهم أسرار التشريع، وربط ذلك بالواقع المعاصر واحتياجاته وتحدياته؛ وتلك قضية لا زالت بعيدة عن الكثيرين.. ونود أن نشير هنا إلى أن ذلك (فيما يخص التنظيمات الإسلامية المختلفة) ليس ضرورياً للقيادات فحسب، بل هو مهم أيضاً (ولو بعمق أقل) بالنسبة لبقية الأفراد القائمين بواجب الدعوة. حيث إن مثل هذه القيادات والصدارات (في كثير من الأحيان) تمارس ضرباً من النظر المقاصدي، والترجيح بين المصالح، والموازنات الدعوية؛

وإذا أضيف إلى هذا أن بعض الظروف قد تمنع هذه القيادات من ايضاح تفاصيل موقفها وأسبابه بشكل كامل، فلا شك أننا سنصل في مرحلة ما إلى اهتزاز ثقة القواعد والجماهير (أو جزء منها) بتلك القيادات.. فحتى عندما يكون اجتهاد تلك القيادات سليماً من الناحية الشرعية، فسيحصل اهتزاز الثقة هذا عندما يكون بقية الأفراد غير قادرين على مجاراة القيادات في اجتهاداتها لأنهم لا يملكون الأوليات اللازمة لذلك..

لكل ما سبق، ولأن هذا الأمر يواجهه العمل الإسلامي بكافة أشكاله، سيكون لنا هنا وقفة مع فقه المقاصد الشرعية، من خلال تحليلات قيمة لأحد الباحثين[١١٦] لنظرية المقاصد عند الإمام أبي إسحاق الشاطبي..

لقد انطلق الشاطبي من أمر اعتبره بديهياً، وهو أن الشرائع إنما وضعت لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل معاً، ليقول: (إذا ثبت أن الشارع قد قصد بالتشريع اقامة المصالح الأخروية والدنيوية، وذلك على وجه لا يختل به نظام، لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء، وسواء في ذلك ما كان من قبيل الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات.. فلا بد أن يكون وضعها

[١١٦] وهو د.أحمد الريسوني في كتابه نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي

على ذلك الوجه أبدياً وكلياً وعاماً في جميع أحوال التكليف والمكلفين وجميع الأحوال. وكذلك وجدنا الأمر فيها والحمد لله)[117].

وقد يرد اعتراض على هذا الكلام بأن هناك من العلماء (خصوصاً الظاهرية وبعض المتكلمين)، من أنكر مسألة تعليل أحكام الشريعة ولم يعتبرها سوى اختبار وتعبد لا اهتمام لها بشيء من المصالح، وهذه قضية قد رد عليها كثير من العلماء وعلى مر العصور، وقد نبه العلامة الطاهر بن عاشور على (أمر قد يكون هو الخلفية الحقيقية لهذا الإنكار الغريب لتعليل الأحكام والأفعال، وهو أن المنكرين قد اضطروا الى هذا الأنكار فراراً من المقولات والألزامات الإعتزالية، التي تجعل القول بالتعليل مقدمة للقول بوجوب الصلاح والأصلح على الله)[118].

واذا كانت مقاصد الشريعة تُلخَّص في جلب المصالح ودرء المفاسد، فإنه يصبح من الضرورة توضيح مفهوم المصلحة والمفسدة، والذي يدخل فيه عند علماء المسلمين (المصالح الأخروية ووسائلها وأسبابها، والمفاسد الأخروية ووسائلها وأسبابها، والمصالح الدنيوية ووسائلها وأسبابها، والمفاسد الدنيوية ووسائلها وأسبابها. وحقيقة المصلحة هي كل لذة ومتعة جسمية كانت أو نفسية أو عقلية أو روحية. وحقيقة المفسدة هي كل ألم وعذاب، جسمياً

[117] الشاطبي ، كتاب الموافقات ، نقلاً عن"نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" لأحمد الريسوني ص١٨٦

[118] أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، ص٢٠٨

كان أو نفسياً أو عقليا أو روحياً)[119]. ولذلك نص الإمام الشاطبي على أن (المصالح المجتلبة والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية... فالشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين من أهوائهم حتى يكونوا عباداً لله. وهذا المعنى إذا ثبت، لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت، وقد قال ربنا سبحانه: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) (المؤمنون: ٧١).. فالمعتبَر إنما هو الأمر الأعظم، وهو جهة المصلحة التي هي عماد الدين والدنيا، لا من حيث أهواء النفوس)[120].

(ومن هنا جاء الشرع بوضع حدود وقيود على تحصيل مختلف المصالح والاستمتاع بها. لأن الإنسان باندفاعه وقصر نظره، قد يحرص على مصلحة وفيها مفاسد، أو فيها تفويت مصالح أهم منها. وقد يفر من مفسدة قريبة فيقع فيما هو شر منها. وقد يطلب الراحة العاجلة، فيجلب على نفسه – أو على غيره – عناءً طويلاً)[121]..

---

[119] المصدر السابق ص٢٣٥

[120] الموافقات ، نقلاً عن نظرية المقاصد ، ص٢٣٥-٢٣٦

[121] أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد ، ص٢٣٦

(ولما كانت المصالح والمفاسد – في واقع الحياة – على هذا القدر الكثيف من التشابك والاختلاط والتعارض، كان لا بد من التشريع، وكان لا بد من أن يذعن الناس لهذا التشريع وأن يدخلوا تحت سلطانه. وهذه هي أم المصالح، أو هي المصلحة (الكلية) وعنها تصدر وبها تضمن جميع المصالح. وهو ما يتمثل في الشريعة)[١٢٢].

ويؤكد هذا الباحث أمراً يعده بديهياً في مفهوم المصلحة وهو أن (الشريعة قد تضمنت حفظ المصالح من جميع الأنواع، وفي جميع الرتب. فقد تضمنت... حفظ المصالح الضرورية ومكملاتها، وحفظ المصالح الحاجية ومكملاتها، وحفظ المصالح التحسينية مهما صغر شأنها. ومعنى هذا أن الشريعة لم تهمل من أمر المصالح والمفاسد شيئاً، قليلاً كان أو جليلاً.. وما لا تشمله نصوصها الخاصة ، فقد شملته نصوصها العامة)[١٢٣].

ويلاحظ الباحث أنه قد يشكل الأمر هنا مع ما هو معروف من تقسيم الأصوليين للمصلحة – بالنظر إلى حكم الشرع فيها – إلى ثلاثة أنواع هي المصلحة المعتبرة، والمصلحة الملغاة، والمصلحة المرسلة.. فرب قائل يقول إن الشريعة تضمنت حفظ النوع الأول من المصالح فقط بينما أهدرت النوع الثاني، وسكتت عن النوع الثالث!

---

[١٢٢] المصدر السابق ص٢٣٧

[١٢٣] المصدر السابق ص٢٣٨



ويرد الباحث على هذا الإشكال ليوضح أن (ما هدرته الشريعة من المصالح -وهي المصلحة الملغاة حسب تقسيم الأصوليين - إنما هي المصالح المرجوحة التي عارضتها مصالح أولى منها بالتقديم والاعتبار. فترجح حفظ الأهم على غيره، وذلك عندما تعذر الجمع بينهما، وليس في هذا أي إلغاء أو إهدار لحقيقة المصلحة...

وأما فيما يخص (المصالح المرسلة) فهي ليست مصالح مهملة مسكوتاً عنها، أي أنها ليست مرسلة مطلقاً، بل هي مرسلة – فقط – من حيث عدم التنصيص الجزئي الخاص بها. أما من حيث جنسها، ومن باب أولى من حيث كونها مصلحة وخيراً ونفعاً.. فليست هناك مصلحة مرسلة أبدا. فأي مصلحة تبقى مرسلة بعد قول الله تعالى: (..وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الحج:٧٧) وقوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ..) (النحل:٩٠))[١٢٤].

وبعد أن ينقل بعضاً من النصوص التي يدل كل واحد منها على أنه ليست هناك مصلحة إلا وهي مشمولة بعناية الشريعة ورعايتها، يؤكد الباحث اجماع العلماء على أن الشريعة تضمنت حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وأن أمهات المصالح المطلوب حفظها هي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وإن (كل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة،

[١٢٤] المصدر السابق ص٢٣٨-٢٤٠



فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة)[125].

إن تناول موضوع المقاصد من خلال دراسة لإنتاج الإمام الشاطبي فيها لا يعود إلى أن الذين سبقوا الشاطبي لم يتناولوا الموضوع، لكنهم كانوا يتناولونه في إشارات وكلمات، فكانت المقاصد قبله (ضامرة خفية، لا يكاد يلتفت إليها إلا أكابر العلماء، الراسخون في الشريعة وعلومها. وحتى هؤلاء إنما أدركوا ذلك لأنفسهم، واستناروا به في علمهم واجتهادهم. ولم يخرجوا للناس – إخراجا واضحاً صريحاً – إلا مبادئ موجزة، وتنبيهات متفرقة)[126].

بل أن الشاطبي وصل بالمقاصد إلى أن جعل الشرط الأول لبلوغ درجة الاجتهاد هو فهم مقاصد الشريعة على كمالها، والشرط الثاني – والأخير- لذلك هو التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها – أي في المقاصد-. وهكذا فإن الصفة الحقيقية (التي تؤهل صاحبها لأن ينوب عن غيره، ويتكلم باسمه، هي أن يكون عارفاً خبيراً بمقاصده على الجملة وعلى التفصيل. وأما ما عدا ذلك فأمور مساعدة. فالمجتهد الذي يحكم ويفتي باسم الشارع، لا بد وأن يكون – أول ما يكون – عالما تمام العلم بمقاصده

[125] الغزالي ، المستصفى ، نقلاً عن نظرية المقاصد ص٢٤١

[126] احمد الريسوني، نظرية المقاصد، ص٣١٣.

العامة، وأن يكون عالماً بمقصده –أو مقاصده– في المسألة التي يجتهد فيها ويحكم عليها..

فالنظرة الشمولية المنسجمة للشريعة وأحكامها، لا تتأتى إلا لمن خبروا المقاصد واحكموا الكليات، ثم نظروا في الأحكام من خلال ذلك. ومن فاته هذا المستوى، وأهمل هذا النوع من النظر، وقع في التخبط والاضطراب، وأتى بالأقوال الشاذة المجافية لمقاصد الشارع، أو انتهى إلى العجز والانكماش، تاركاً ما ليس لقيصر، لقيصر..

فالمقاصد ليست – فحسب - أداة لإنضاج الاجتهاد وتقويمه، ولكنها – أيضاً– أداة لتوسيعه وتمكينه من استيعاب الحياة بكل تقلباتها وتشعباتها)[١٢٧].

إن العمل الدعوي الإسلامي في مواجهة الظروف المعقدة والمتغيرة التي يشهدها عالم اليوم ليحمل في ثناياه الكثير من المواقف التي تحتاج إلى اجتهاد معين ونظر عميق. وإذا نحن لم نبالغ بأن نطلب من الداعية أن يصل إلى رتبة الاجتهاد – في مجال عمله الدعوي على الأقل -، فإننا لن نرضى بأقل من أن يكون هذا الداعية فقيهاً في دعوته. وحتى هنا فنحن نجد أن الإمام القرافي – الفقيه المالكي - قد اشترط معرفة المقاصد، ليس في المجتهد فحسب، بل حتى في الفقيه المقلِّد، وإن تفاوتا في ذلك، فقال إن

---

[١٢٧] المصدر السابق ص٣٣١-٣٣٢.



الفقيه المقلِّد (إذا وقعت له واقعة ليست في حفظه، لا يخرجها على محفوظاته، ولا يقول هذه تشبه المسألة الفلانية، لان ذلك إنما يصح ممن أحاط بمدارك إمامه وأدلته وأقيسته وعلله التي اعتمد عليها، مفصلة، ومعرفة رتب تلك العلل، ونسبتها إلى المصالح الشرعية، وهل هي من باب المصالح الضرورية أو الحاجية أو التتمية... وسبب ذلك أن الناظر في مذهبه والمخرّج على أصول إمامه، نسبته إلى مذهبه وإمامه كنسبة إمامه إلى صاحب الشرع في اتباع نصوصه والتخريج على مقاصده)[١٢٨].

ولا ريب أن للعقل الواعي المنضبط دوراً كبيراً في إدراك وتقدير المصالح والمفاسد، وهنا يفصل لنا الباحث ثلاثة مجالات مهمة لدور العقلية المقاصدية، نوجزها فيما يلي وذلك للعلاقة الصميمية التي لها بالعمل الدعوي الإسلامي، وهي:

أولاً: التفسير المصلحي للنصوص:

وهو ما يمارسه جمهور الفقهاء – باستثناء الظاهرية- حيث أنهم وعند تفسيرهم للنصوص واستنباطهم منها، فإنهم يستحضرون (المعاني والحكم والمصالح التي يعمل الشرع على تحقيقها ورعايتها. وهو ما يكون له أثره في فهم النص وتوجيهه والاستنباط منه، فقد يصرف النص عن ظاهره، وقد يقيد أو يخصص، وقد يعمم وظاهره الخصوصية..

[١٢٨] القرافي، الفروق، نقلاً عن نظرية المقاصد ص٣٣٠.



ودور العقل هنا يتمثل في تقدير المصلحة التي يستهدف النص تحقيقها، إذا لم يكن مصرحا بها طبعاً، ثم تفسير النص بما يحققها، مع عدم الغفلة عن مختلف المصالح والمفاسد التي لها صلة بموضوع ذلك النص. ومعلوم أن أحد مسالك التعليل هو مسلك المناسَبَة. وهو مسلك عقلي إلى حد كبير. ولعل أكثر التعليلات الدائرة في الفقه تقوم على هذا المسلك، بحيث تنبني عليه اجتهادات وقياسات واستنباطات لا تحصى، وكلها تفسير مصلحي للنصوص)[١٢٩].

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها حديث التسعير الذي مقتضاه أنه ليس للحاكم أن يُسَعِّر على الناس. ومع هذا رأى عدد من الفقهاء أن هناك حالات يجوز أو يجب فيها التسعير، وليس هذا إلا تفسيراً مصلحياً لنص الحديث، عن طريق النظر العقلي[١٣٠].

(ومن أكثر النصوص حاجة إلى النظر المصلحي والتفسير المصلحي، النصوص العامة والمطلقة، كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الإضرار والبغي، فرغم أن هناك نصوصاً تفصيلية لها، إلا أن ما يدخل تحتها لا يمكن أن يأتي عليه حصر، ولا أن تستغرقه الحالات المنصوصة.

---

[١٢٩] الريسوني، نظرية المقاصد، ص٢٥٨-٢٥٩.

[١٣٠] المصدر السابق ص٢٥٩-٢٦٠.



فيبقى للنظر والاجتهاد مجال واسع للعمل بمقتضى هذه النصوص العامة)[131].

ثانياً: تقدير المصالح المتغيرة والمتعارضة:

فمن المعلوم أن بعض المصالح تتغير بتغير الزمان والمكان والحال. (وهذا التغيير من شأنه أن يؤثر تأثيراً ما على الأحكام الشرعية التي أنيطت بتلك المصالح، وهاهنا لا بد للمجتهد من اليقظة والبصيرة والنظر العميق حتى يميز ما هي المصالح والمفاسد التي تغيرت أوضاعها وآثارها تغيراً حقيقياً، وهل ذلك التغيير يستدعي مراجعة أحكامها ويقتضي تعديلها، وإلى أي حد ينبغي أن يصل التعديل؟...

ومن أبرز ما يحتاج إلى النظر والتقدير المتجدد، جانبان من جوانب الحياة، أحدهما في حفظ المصالح. وهو جانب المعاملات المنبنية على الأعراف. والثاني في درء المفاسد، وهو باب التعازير)[132].. وهذا ما يخص التقدير العقلي للمصالح والمفاسد المتغيرة.

أما الجانب الثاني، وهو التقدير العقلي للمصالح والمفاسد المتعارضة، فالمقصود به (الترجيح بين المصالح والمفاسد عند تعارضها، أمام المكلف أو أمام المجتهد والمفتي أو غيرهم. وغير خاف على أحد ما بين المصالح والمفاسد

---

[131] المصدر السابق ص٢٦١.

[132] المصدر السابق ص٢٦٤-٢٦٥.





من اختلاط وتشابك لا حد لهما، مما ينشأ عنه تزاحم وتعارض لا حد لهما أيضاً. فما من مصلحة أو مفسدة، إلا وتزاحمها وتتعارض معها مصالح ومفاسد كثيرة.

ولا شك أن كثيراً من الحالات يكون الأمر فيها واضحاً، والترجيح فيها سهلاً، إما بمقتضى النصوص، وإما بمقتضى التقدير العقلي. ولكن هذا بالنسبة إلى ما ليس كذلك قليل. ويزيد من تعقيد الأمور كون كثير من المصالح والمفاسد نسبية. وقد وضع العلماء عدداً من القواعد التي تساعد على الترجيح بين المصالح والمفاسد المتعارضة، مثل:

- درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

- تفوَّت أدنى المصلحتين لحفظ أعلاهما.

- المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة.

- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

- الضرر لا يزال بمثله.

- يُتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

- الضرورات تبيح المحظورات.

- الضرورات تقدر بقدرها..



ورغم كل هذا وغيره، فإن الأمور - عند التطبيق – تظل بحاجة شديدة إلى النظر والتمييز والتقدير. لتحديد الراجح والمرجوح، ولتحديد أي المصلحتين أصلح، وأيهما أكبر، ولتحديد أهون الشرين، وأعظمهما ضراراً، ولتمييز ما هو من قبيل جلب المصلحة وما هو من قبيل درء المفسدة. ولتمييز حد الضرورة مما لا يبلغه. ولتمييز ما يعتبر من مصلحة الآخرة مما يعتبر من مصلحة الدنيا... وتحت كل هذا ما لا يحصى من الصور والوقائع التي يقع فيها التعارض، وتحتاج إلى التقدير والترجيح، أي تحتاج إلى العقل والنظر)[١٣٣].

ثالثاً: تقدير المصالح المرسلة:

لقد سبق أن قدمنا القول بأنه (ليست هناك مصلحة مرسلة بالمعنى المطلق للإرسال. وإن ما يسمى بالمصالح المرسلة، هي في الحقيقة مصالح معتبرة شرعاً. وكل ما في الأمر أنها لم ترد في تسميتها وحفظها نصوص خاصة. بل يدخل حفظها فيما علم – قطعاً - من قصد الشريعة إلى حفظ المصالح، ويدخل في نصوص عامة تأمر بالخير والصلاح.. وإذا ظهر المقصود فلا مشاحة في الاصطلاح...

وهذا الضرب من المصالح، ليس بالقليل ولا بالهين. بل يكفي أن ما يعرف باسم "السياسة الشرعية" يقوم أساساً على حفظ المصالح المرسلة. وبهذا

---

[١٣٣] المصدر السابق ص٢٦٧-٢٦٨.



وحده يتجلى أن المصالح المرسلة تتسع دائرتها يوماً يعد يوم. فهي تتزايد بتزايد حجم الأمة، وبتزايد حاجاتها، وتتزايد بتزايد وظائف الدولة وتضخمها. وهكذا أصبحت المصالح المرسلة تمس كيان الأمة ومصيرها، وتؤثر على أرزاقها وكرامتها، وعلى انحطاطها أو تقدمها)[١٣٤].

وطالما أن كثيراً من جوانب العمل الدعوي، بما فيها الجانب السياسي، يقوم على حفظ المصالح المرسلة، فإن الإسهام الفعال في هذا المجال لن يتحقق من قبل العلماء والدعاة إلا إذا كانوا (إلى جانب علمهم بالشريعة وأحكامها المنصوصة، على قدر كبير من الوعي والتقدير للمصالح والمفاسد، وكانوا قادرين على وضع كل مصلحة في مكانها ومنزلتها، مهتدين بهدي الشريعة ومقاصدها. وهذا هو الطريق الصحيح لحفظ مصالح الأمة. يقول ابن عبد السلام: [ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع ولا نص، ولا قياس خاص، فان فهم نفس الشرع يوجب ذلك]. فمن خلال الإحاطة بأحكام الشريعة ومقاصدها، ومن خلال الخبرة بأحوال الأمة ومتطلباتها، ومن خلال

---

[١٣٤] المصدر السابق ص٢٦٩.





النظر والتقدير العقلي، يتم تعيين المصالح المرسلة، ووضعها في مراتبها اللائقة بها)[١٣٥].

إن إيماننا بالنظام والتناسق الذي يحكم هذه الشريعة، جزئياتها وكلياتها، ويجعل منها بناءً شامخاً، مبني على أصول راسخة، وفروع متنوعة، يدفعنا لمزيد من البحث والتدقيق للتعرف على كل أوجه الجمال والفاعلية في هذا البناء. ومما لا ريب فيه أن آلية الاستقراء لنصوص الشريعة وتطبيقاتها المختلفة ستسهم إلى حد كبير في تعرفنا على القواعد الكلية التي تحكم هذا البناء على مختلف مستوياته.

وقد لاحظ بعض دارسي الإمام الشاطبي مدى اعتماده على الاستقراء لأجل التعرف على المقاصد الكبرى والعامة للشريعة وإثباتها؛ معتبراً أن المقاصد التي يتوصل إليها عن طريق الاستقراء تمتاز بالقطع، حيث (يؤكد الشاطبي على قطعية الاستقراء سواء أكان تاماً أم ناقصاً (أكثرياً))[١٣٦]..

فقد اعتبر الشاطبي الاستقراء أهم المسالك لإثبات أن قصد الشارع هو لحفظ الكليات الكبرى الثلاث: الضرورية والحاجية والتحسينية. والتي هي قضية من الأهمية بحيث إنها لا تحتمل أي قدر من الظن ولابد لأقامتها من دليل قطعي. لذلك بين الشاطبي أن هذه القواعد أو الكليات (لا يرتاب في

---

[١٣٥] المصدر السابق ص٢٦٩.

[١٣٦] المصدر السابق ص٢٨٨.





ثبوتها شرعاً أحد ممن ينتمي إلى الاجتهاد من أهل الشرع، وأن اعتبارها مقصود للشارع. ودليل ذلك: استقراء الشريعة، والنظر في أدلتها الكلية والجزئية وما انطوت عليه من هذه الأمور العامة، على حد الاستقراء المعنوي الذي لا يثبت بدليل خاص، بل أدلة منضاف بعضها إلى بعض، مختلفة الأغراض، بحيث ينتظم من مجموعها أمر واحد تجتمع عليه تلك الأدلة... فلم يعتمد الناس في إثبات قصد الشارع في هذه القواعد على دليل مخصوص، ولا على وجه مخصوص، بل حصل لهم ذلك من الظواهر والعمومات، والمطلقات والمقيدات، والجزئيات الخاصة، في أعيان مختلفة ووقائع مختلفة، في كل باب من أبواب الفقه وكل نوع من أنواعه، حتى ألفوا أدلة الشريعة كلها دائرة على الحفظ لتلك القواعد، هذا مع ما ينضاف إلى ذلك من قرائن أحوال، منقولة وغير منقولة)[١٣٧].

إننا وإذ نؤكد على تجاوز النظرة التجزيئية الضيقة إلى منظار كلي أوسع، لا نعني مطلقاً ترك الأدلة الجزئية أو الأدلة الخاصة بمسائل معينة، كالآيات والأحاديث ذات الدلالات الخاصة المتعلقة بموضوع معين، أو الأقيسة الجزئية وغيرها. فلابد من مراعاة كلا النظرين في آن واحد. ولكننا نؤكد على أنه لا

[١٣٧] الشاطبي، الموافقات، نقلاً عن المصدر السابق ص٢٨٦.





بد من استحضار كليات الشريعة ومقاصدها العامة عند النظر في الجزئيات[١٣٨].

وختماً لهذا المبحث فلعله من المناسب أن نضيف مزيداً من التأكيد على النقاط الآتية:

- إن المصالح والمفاسد ومراتب كل منها إنما تكون بالاعتبار الشرعي الذي تكون فيه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ومطية إليها. فلا تُحدَّد المصالح والمفاسد بمجرد الأهواء والاعتبارات القاصرة.
- إن بناء العقلية المبدعة المنضبطة بالشرع والمستهدية بروح الرحمة والعدل التي تظهر في كلياته وتستبطن كل واحدة من جزئياته، يتطلب ترتيباً وتركيباً عميقاً ورصيناً لأدلة الأحكام الشرعية المختلفة. ولقد ترك لنا أكابر علماء هذه الأمة ثروة عظيمة في مجال أصول الفقه لازالت بانتظار من يغترف من كنوزها ويظهرها للأجيال، لتنطلق الأمة من جديد في سماء الابداع الحضاري الواسعة[١٣٩].
- كما أنه حريٌّ بمن يفتي الناس أن ييسر عليهم ما وجد إلى ذلك مدخلاً شرعياً صحيحاً، فإنه يجمل بمن انتصب في مقام الدعوة والقدوة أمام الناس أن يتخذ من الورع مركباً، خصوصاً فيما يشتد

---

[١٣٨] أحمد الريسوني، نظرية المقاصد، ص٣٤٢.

[١٣٩] وعلى هذا الأساس نفهم الدعوة اليوم إلى تجديد علم أصول الفقه، وأنظر على سبيل المثال كتاب الفطرية بعثة التجديد المقبلة لفريد الأنصاري.





عليه تنافس أهل الدنيا، لكي يجنّب عرضه وعرض الدعوة كلام الحاسدين ولغو السفهاء.





الفصل الحادي عشر:

فـي التربيـــــة الروحيـــــة

لقد قلنا سابقاً أن البناء العقلي والفكري الصحيح (الذي نرجوه) لا يمكن أن يتم بدون البناء الروحي الإيماني السليم.. وكأن البنى العقلية لكي تحافظ على رصانتها وفاعليتها، لا بد لها من أفق روحي واسع. وفي الجانب المقابل، فليس يخفى أن التعمق في السلوكيات الروحية فيه من احتمالات الشطح والانحراف ما فيه، ما لم يضبط ذلك فهم شرعي ثاقب وعقل مستنير مسدَّد.

وعلى هذا يمكننا أن نفهم ما لاحظه البعض بأنه من تمام تزكية الإنسان، والتي هي من مقاصد الإسلام العامة الثابتة نصاً واستقراء (تزكية عقله، بتنميته وترشيده وتشغيله. وهذا ما فعله الشرع، حيث عمل على تحريك العقول وإطلاقها من قيودها، ورفع عنها ما كان يعطلها من أوهام وخرافات. وطعمها بقيمة وأحكامه، ثم ترك لها المجال واسعاً لتعمل وتتزكى..)[١٤٠].

وكما أننا رصدنا سابقاً قضية الضعف في البناء العقلي والفكري، فإننا نؤكد هنا ما صرح به كثير من الدعاة والمصلحين من أن (ضعف التزكية في عصرنا

---

[١٤٠] احمد الريسوني، نظرية المقاصد، ص ٢٧٠



كان أكثر منه في أي عصر مضى)[141]. وقد تمثل هذا الضعف في البناء الروحي بأعراض وآثار متنوعة (فالقلب قسا، وأمراضه من حسد وعُجْب أصبحت فاشية، وحسن التعامل ضعف، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن تتأثر بذلك. لذلك كان لابد لمريدي تجديد الإسلام أن يفكروا في إحياء المعاني القلبية للعبادات، وفي تحلية النفس بأخلاق العبودية، وتخليتها من النزعات الحيوانية والشيطانية. وإذا كان الأثر المباشر لموت القلوب فقدان المعاني القلبية الإيمانية، من صبر وشكر وخوف من الله.. وهي أشياء لابد منها لصلاح الحياة؛ وإذا كان من الآثار المباشرة لهذا الموات وجود الحسد والعجب والغرور، وهي أشياء خطيرة جداً على الحياة، فلقد أصبح التركيز على هذه المعاني واجباً على الذين يريدون اصلاح الحياة الفردية والجماعية)[142]. ولذلك يحق لنا أن نزعم أن (الإحياء الروحي هو المقدمة للتجديد الإسلامي كله، فما لم تحي القلوب وتزكُ الأنفس ويتؤدب مع الله ومع خلقه، فلا جديد على الأرض الإسلامية ولا تجديد)[143].

ورغم أن الحركة الإسلامية المعاصرة قد نشأت وهدفها اطلاق تيار التجديد الإسلامي في كافة نواحي الحياة المعاصرة، فقد (كانت الضرورات والاحتياجات المباشرة تتطلب إجمالا أحيانا وتفصيلاً أحيانا فبقيت بعض

---

[141] سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس ، ص ١١

[142] المصدر السابق ، ص ١٣

[143] المصدر السابق ، ص ١٥



المعاني مجملة بسبب من ذلك، ومن ذلك ماهية السير القلبي والروحي إلى الله)[١٤٤].. ولذلك فقد انتبه بعض علماء الحركة الإسلامية إلى أنه (قد آن الأوان أن نتوجه لإحياء معاني التزكية، خاصةً والحركة قد توسعت، وأنشطتها قد تشعبت، ووجهات النظر قد تعددت، مما يخشى منه أن تنطلق بعض الأمور بعيداً عما ينبغي، أو تضعف جذوة النور في القلوب. ومع أن كتب التراث مليئة بهذه المعاني، وبالإمكان اعتماد الكثير من الكتب الموثقة فيها، ولكن ذلك قد يوافق عصرنا وقد يكون زائداً عما نحتاجه أو ناقصاً عما يحتاجه المسلم العادي، والكثير الكثير فيه خلاف كثير، وهو محل جدل عريض)[١٤٥]..

ولقد أدرك بعض العلماء[١٤٦] أننا في عصرنا هذا لا يكفينا، في موضوع خطير كهذا، مجرد تجميع لمعلومات أو عرض لآراء متفرقة، إنما نحن بحاجة إلى نظرية متكاملة في هذا الباب. وقد أدلى بدَلوِهِ في الأمر، قائلاً :(إن مجرد الاختيار من كتاب لا يشكل بمفرده نظرية متكاملة، كما أنه يفتقد التسلسل والتناسب والتناسق، وأنا أحرص أن اقدم نظرية متكاملة في التزكية، مبنية على كلام الغزالي، فاقتضى هذا مني تبويباً وترتيباً وتقديماً... كما اقتضى

---

[١٤٤] المصدر السابق ، ص ١٤

[١٤٥] المصدر السابق ، ص ١٥

[١٤٦] ولعل في مقدمتهم الشيخ سعيد حوى، والذي تناول موضوع التربية الروحية والتزكية في عدد من كتبه، ومنها كتابه "المستخلص في تزكية الأنفس" والذي اعتمد فيه على الاستخلاص من كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي.



كتابة لبعض الموضوعات ليخرج الكتاب كلاً متكاملاً، وكأنه عقد منظم أو سبيكة ذهب خالصة)[١٤٧].

لقد كان المنطلق في النظرية التي حاول ذلك العالِم صياغتها هو أن (وراثة النبوة هي مظنة التجديد الصحيح، وإذا كانت المهمات الرئيسية للرسل عليهم الصلاة والسلام التذكير والتعليم والتزكية – إشارة إلى قوله تعالى على لسان خليله إبراهيم: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (البقرة:١٢٩)، وأمثاله–، فوارث النبوة الكامل هو من استطاع هذه الأمور على الكمال والتمام، وقام بها وأدى حق الله فيها، ونادراً ما تجتمع هذه الثلاثة في واحد، فقد تجد واعظاً غير عليم، وعليماً لا يمتلك القدرة على الوعظ، وعليماً واعظاً غير قادر على التزكية، ومن اجتمعت له هذه الثلاثة ملك إكسير الحياة، وإلا فعملية التجديد تبقى موزعة عند الراغبين فيها والقائمين عليها)[١٤٨].

والآن وبعد كل هذه السنوات من جهود ذلك العالِم وغيره، فلنسأل أنفسنا بصراحة، هل أن (ماهية السير القلبي والروحي إلى الله تعالى) عندنا أصبحت واضحة بتفاصيلها؟ وهل تم إحياء كافة معاني وأساليب ووسائل التزكية

---

[١٤٧] سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس ، ص ١٢

[١٤٨] المصدر السابق ، ص ١٩

وحدودها وضوابطها؟.. ويبدو لنا أن الإجابة الواضحة على ذلك هي أن ذلك لم يتم لحد الآن، والله تعالى أعلم. غير أن هذه الإجابة لا تعني مطلقاً الانتقاص من جهود العلماء الأخيرة في هذا المجال، فقد كانت تلك خطوات مهمة ومباركة في الإتجاه الصحيح، فتحت الباب واسعاً لمزيد من التشذيب والتهذيب لنظرية التربية الروحية المعاصرة هذه، من خلال تأصيل أعمق، وتدقيق فقهي أكبر.

والأهم من ذلك كله هو تحويل النظرية إلى فعل واقعي سلوكي، يستطيع الحاذق من خلاله أن يقوّم (بحدود مقبولة من الدقة) مدى نجاح الدعاة في سيرهم القلبي والروحي إلى الله تعالى. ولسنا ندعي أن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق (وستكون مبالغة ومجازفة لا داعي لها لو أنا فعلنا ذلك)، ولكننا نؤكد أننا لم نصل بعد إلى رؤية متكاملة واضحة المعالم، على مستوى النظر ومستوى التطبيق والتقويم، في موضوع حساس يمس صميم الفعل الدعوي على مستوى الفرد والجماعة، ويشكل رافداً عظيماً وأساسيا من الأسباب التي من خلالها نصل إلى نصر الله تعالى وتوفيقه، وإنجازه ما وعدنا به من المغفرة والرضوان.

نعم علينا أن نعترف بأن موقف الكثير من شباب الدعوة الإسلامية، من قضايا التربية الروحية وأساليبها، لا زال يكتنفه الكثير من الانفعالية والتسرع، كرد فعل على ما وقع فيه بعض المتصوفة قديماً وحديثاً من شطحات وأخطاء وتهاون في أشياء لا يمكن لأي مسلم عادي أن يقبل التهاون بها.



ويعزز ذلك تأثر هؤلاء الشباب بكثير من الكتابات المتسرعة التي تناولت الموضوع، والتي كان كتّابها مندفعين في إتجاه إثبات صحة توجه معين، أو خطأ توجه آخر، أكثر من اندفاعهم في الوصول إلى الحقيقة الشرعية.

إن ما استقر عليه الحال لدى بعض الطرق الصوفية، هو أنهم اصبحوا يتحركون وفقاً لرؤية معينة في مجال التربية الروحية. وإن مجرد إشارتنا إلى هذا الخطأ أو ذاك، في أصول هذه الرؤية، أو فروع ممارستها، لم يعد كافيا، ما لم نبلور (كبديل عن ذلك) رؤيتنا المتكاملة والمفصلة للموضوع، والمبنية على أصول شرعية واضحة، ومعرفة بخفايا النفس الإنسانية وحاجاتها، وتأثيرات عالم اليوم على ذلك. وليس من أحد أحق بهذا، ولا أشد حاجة إليه ممن انتصب في مقام الدعوة إلى الله تعالى.

وحتى لو أننا أخذنا بالرأي الأيسر، فيما يتعلق بالتخلي عن الصفات السيئة والتحلي بالصفات الطيبة، كالذي يقول بأنه (إذا أمر الشارع المؤمنين بالتحابب – مثلاً – فإن المقصود ما يؤدي إلى الحب من أسباب سابقة، أو مقارنة ولاحقة، تقويه وترسخه، وليس المقصود بالتكليف حصول الحب ذاته. فان هذا خارج عن قدرة الناس، وهكذا كل ما كان من هذا القبيل. فمشتبهات الأفعال – أي التي لا يدرى هل هي داخلة في التكليف أم أنها مما لا يطاق – ينصرف التكليف إلى سوابقها ولواحقها. وتتمثل خاصة في الصفات الباطنة كالكبر والحسد وحب الدنيا، والحلم الأناة والشجاعة





والجبن..)[١٤٩]. فحتى لو أننا قلنا بهذا، فإن تحديد ما ينبغي من سوابق ولواحق والضابط في ذلك، أمر يحتاج إلى نظر ثاقب، ورؤية شاملة..

وإذا كنا لا نختلف على أن القراءة على أيدي المشايخ فيما يخص العلوم العقلية والفقهية مثلاً، هي أفضل بكثير من القراءة المنفردة لهذه العلوم، فإننا (ومن بابٍ أولى) يجب أن نعي حقيقة أن التربية الروحية والسير القلبي إلى الله تعالى، تتطلب تدخلاً مباشراً للقدوة المربي، أكثر من مجرد تأليف كتب أو إصدار تعليمات، حيث أن فيها الكثير من الأمور الذوقية، التي يحتاج استقراؤها إلى فراسة المؤمن وعين الدليل الخرّيت. ونحن هنا لا نريد أن ندخل في التطرف والمبالغات التي يثيرها بعض المتصوفة وغيرهم في هذا الصدد، ولكننا نشير إلى أصل للمسألة صحيح، لا ينبغي إغفاله.

ففي تفسير قوله تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً) (الكهف:١٧)، قال بعض أهل العلم: (دلّت هذه الآية على أن الغاية في القدرة على الهداية هو الولي المرشد، إذ الآية تبين أن الولي المرشد نفسه لا يخرق مراد الله إذا أراد إضلال إنسان، ومن ثم نعلم أن الدعوة إلى الله عز وجل تكون أكمل ما تكون إذا وُجد الولي المرشد، وعندما يضع الإنسان يده بيد الولي المرشد يكون ذلك أجود ما يكون في باب الهداية إلى الله وإلى طريقه، وإذا كان الرسل عليهم السلام في الأصل هم الهداة الحقيقيين إلى الله عز وجل،

---

[١٤٩] احمد الريسوني، نظرية المقاصد، ص ١٣٠، بتصرف قليل.





فالأولياء المرشدون هم الوراث الكاملون للأنبياء في باب الدعوة إلى الله عز وجل، ومن هذا المعنى الذي ذكرناه ندرك أهمية وجود الولي المرشد لصلاح الدعوة إلى الله عز وجل)[150]..

إن رؤية كثير من شباب الدعوة لهذه القضية بالذات أصبحت اليوم محكومة بالانحراف لدى بعض المتصوفة المتأخرين. بل أن الأمر تعدى ذلك إلى أن (يفر المسلمون من الاجتماع على الخير إلى فكرة أخذ الخير دون اجتماع، فترى أحدهم يحاول أن يقرأ القرآن منفرداً وذلك طيب، وأن يطالع ويحصل العلوم الإسلامية منفرداً وذلك طيب، وأن يذكر الله ويصلي منفرداً وذلك طيب، ولكن الاجتماع على القرآن وعلى كتاب شرعي وعلى الذكر والمذاكرة، فيه خيرات، فلابد أن يقتنع المسلم بمثل ذلك، والنصوص في هذا كثيرة..)[151].

إننا لو تجردنا لطلب الحقيقة، مستنيرين بهدى الكتاب والسنة، لوجدنا (أن الاجتماع على الخير من أهم وسائل تزكية النفس، وهو في الإسلام له فضله الكبير، لذلك ورد في فضل صلاة الجماعة وفضل الاجتماع على كتاب الله وعلى الذكر ما ورد.. فالاجتماع على الخير تذكير بهذا الخير ودفع للمجتمعين إلى العمل به، ومن خلال الاجتماع تأخذ الروح من الروح

[150] سعيد حوى، تربيتنا الروحية، ص ١٨٢

[151] سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، ص ٥٦٧





والنفس من النفس، وتوجد في الاجتماع البيئة الصالحة، وهذا بعض ما في الاجتماع)[١٥٢].

ويكفي في فضل مجالس الذكر الحديث النبوي الشريف المتفق على صحته من طريق أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللَّه عز وجل تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم: ما يقول عبادي قال: يقولون يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأوني قال: يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، فيقول: فماذا يسألون قال يقولون: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبةً. قال: فمم يتعوذون قال: يتعوذون من النار، قال: فيقول: وهل رأوها قال: يقولون: لا والله ما رأوها، فيقول: فكيف لو رأوها قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافةً، قال: فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرت

---

[١٥٢] سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، ص ٥٦٦



لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله ملائكة سيارةً فضلاً يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء الدنيا، فيسألهم اللَّه عز وجل وهو أعلم: من أين جئتم فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي قالوا: لا أي رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي قالوا: ويستجيرونك، قال: ومِمَّ يستجيروني قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري قالوا: ويستغفرونك فيقول: قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم. فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: خرج معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم قالوا: جلسنا نذكر اللَّه. قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا: ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أقل عنه حديثاً مني، إن رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من

أصحابه فقال: (ما أجلسكم) قالوا: جلسنا نذكر اللَّه ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا. قال: (آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك قالوا: واللَّه ما أجلسنا إلا ذاك. أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن اللَّه يباهي بكم الملائكة)، رَوَاهُ مُسلِمٌ.

ومع أن هذا الاجتماع على الخير يتوافق مع أصول الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، فلا زال من الواضح للمراقب المحايد أن الأمر لم يأخذ مداه المطلوب في السلوك والتربية، وصار الكثيرون يندفعون بعيداً مع تفاصيل العمل اليومي والحركة، دون أن يعطوا لأنفسهم مجالاً كافياً للخلوات الفردية، والمدارسات والأذكار الجماعية، وهي محطات لا بد منها لكل داعية، يتهم نفسه، (ويرقبُ سيرَهُ خوفَ المتاهِ)..

إن ضعف الجانب الروحي لدى الداعية، قد يجعله، وفي خضم زحمة العمل والحركة، ينسى البعد الأخروي لعمله، بل ويسلك إلى الغايات النبيلة سبلاً ليست كذلك، مما لا يبيحه الشرع، مقلداً في ذلك خصومه، متناسياً الفرق بينه وبينهم، وبين منهجه ومنهجهم، وأستاذيته عليهم. فيفوت مصالح آجلة عظيمة ومؤكدة، لأجل منفعة عاجلة صغيرة ومظنونة. فيدخل نفسه في متاهات هو في غنىً عنها..



ومنذ سنوات عديدة قدم بعض أهل الدعوة[١٥٣] مشروعا طيباً أسماه (إحياء الربانية) وذلك لغرض إحداث نقلة نوعية في العمل الإسلامي بترميم الهزال الروحي والعلمي الذي بدا أنه يعاني منه. وكان المنطلق من أن مراتب الكمال في هذه الأمة أربعة، نص عليها قوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً) (النساء:٦٩). فرتبة النبوة قد ختمت بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. (وبقي عندنا ثلاث مراتب كمال، تبقى مستمرة في هذه الأمة، هذه المراتب الثلاث هي الصديقية والشهادة والصلاح، وبقدر ما تكون هذه المعاني قوية في الأمة تكون بخير، وبقدر ما يخف وجود هذه المعاني الثلاثة يكون الإسلام في هذه الأمة في ضعف)[١٥٤]..

ففيما يخص حال الأمة في هذا الزمن، فإن (الصلاح لازال قائماً ومستمراً ولكن على ضعف لأن الصلاح يقوم على ركنين: الإيمان والعمل الصالح، فالله تعالى يقول: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) (العنكبوت:٩).. ومرتبة الشهادة مستمرة في هذه الأمة فهناك شهداء بشكل مستمر قال تعالى: (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) (آل عمران:١٤٠)، لكن الأصل أن يكون العزم على الشهادة موجوداً في قلب كل مسلم، فلابد من

---

[١٥٣] وهو الشيخ سعيد حوى في كتابه إحياء الربانية
[١٥٤] سعيد حوى: إحياء الربانية



نية الجهاد في كل قلب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَن لم يَغزُ وَلم يُحدِّث نفسَهُ بالغَزو ماتَ على شُعبةٍ مِنَ النفاقِ) أخرجه مسلم. وفي هذا المعنى –أي معنى العزم على الشهادة في نفوس عموم أبناء الأمة اليوم– ضعف وأي ضعف.. أما مرتبة الكمال الثالثة وهي أعلى هذه المراتب وأكملها وهي رتبة الصديقية، وهي الدرجة العليا لمقام الصدق كما ورد في الحديث الصحيح: (وَلا يَزالُ الرجلُ يَصدقُ وَيتحرّى الصدقَ حَتى يُكتبَ عندَ اللهِ صِدّيقاً)، فقد طرأ عليها الضعف أكثر مما طرأ على المرتبتين الأوليين لأن المرتبة الثانية التي هي الشهادة والمرتبة الثالثة التي هي الصلاح مرتبتان محسوستان تقريباً، لكن مرتبة الصديقية مرتبة خفيّة، فهي أقرب إلى الجانب القلبي، ولذلك فقد طرأت عليها طوارئ كثيرة كبيرة وضعفت ضعفاً كثيراً وقَلّ أصحابها، والآية القرآنية تشهد أن المتأخرين تقل فيهم هذه الرتبة. قال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ) (الواقعة:١٠-١٤) بينما قال في أصحاب اليمين (ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ) (الواقعة:٣٩-٤٠) باعتبار أن أصحاب اليمين هم الصالحون والسابقين هم الصديقون)[١٥٥]..

ومن تأمل في آيات سورة الفاتحة التي يتلوها المسلم يومياً في ركعات صلاته، وهو يدعو ربه بقوله (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) (الفاتحة:٦-٧)، أي أنه يطلب ويرجو

[١٥٥] المصدر السابق نفسه مع اختصار وتصرف يسير

صراط النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين بنص القرآن، يدرك الأهمية الكبرى لإحياء مراتب الكمال الثلاث، فأصحابها هم محل القدوة.. (فكما أن محل القدوة في الدعوة الإسلامية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكذلك الصدّيقون والشهداء والصالحون، وإذاً فبقدر ما يوجد في الأمة الإسلامية صدّيقون وشهداء وصالحون تكون القدوة موجودة في حاضر الأمة الإسلامية. ولنا أن نتساءل: ما الذي جعل مراتب الكمال الثلاث الصلاح والشهادة والصدّيقيّة تضعف؟ والجواب أن هناك رتبة أخرى قد ضعفت في الأمة الإسلامية هي رتبة الربّانية، فالربّانيّون في هذه الأمة قلّوا، فترتّب على ذلك ضعف عام في مراتب الكمال ولذلك نقول:

إنّه إذا ما أردنا أن نحيي مراتب الكمال، أو نقويها فلابدّ أن تكون البداية هي إحياء مقام الربّانية. ومن قوله تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) (آل عمران: ٧٩). ومن قولهم يوم مات ابن عباس رضي الله عنهما (اليومَ ماتَ ربّانيُّ هذه الأُمَّةِ) نستطيع أن نتلمس معاني الربّانيّة المفقودة. فنموذج الربانية هو ابن عباس في معرفته الكتاب والحكمة، وفي قدرته على تعليم الكتاب والحكمة. والربانية بنص الكتاب: دراسة وتعليم للكتاب، وتعليم الكتاب في عصر الصحابة يدخل فيه تفهيمه والتحقيق فيه، ولقد كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، فالمعلم الذي لا يستطيع أن يربي عليه، وأن يحقق فيه، ليس

هو المعلم الرباني، وليس هو الوارث الكامل لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فالرباني هو القادر على تزكية النفس وهو القادر على الارتقاء بالمسلم إلى مقامات الصديقية والشهادة والصلاح، لأن مهمته هي مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه لا يوحى إليه)[١٥٦]..

وقد وضع صاحب هذا المشروع الرائد في (إحياء الربانية) شروطاً أربعة لابد من توافرها لكي يوجد الرباني. وهذه الشروط هي: (الذِّكر، والعلم، والأجواء المساعدة، والعمل الدعوي والتعليمي.. فالذِّكر لابد منه للوصول إلى مقامات اليقين: (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:٢٨)، وإلى وراثة الحال النبوي (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب:٢١).. والعلم شرط الربانية (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) (آل عمران:٧٩). والملاحظ أنه قد أطلقت كلمة الدراسة، وهذا يشير إلى أن دراسات الربانيين كثيرة..

والأجواء المساعدة لينمو طالب الربانية علماً وعملاً وحالاً، فمجالسة أهل الذكر ومجالسة أهل العلم ومجالسة أهل الفضل هي التي تنمي عند طالب الربانية الرغبة بالوصول، فما لم ينتقل طالب الربانية من أجواء الغفلة والجهل فإنّ نموه يبقى ضعيفاً، ألا ترى إلى قصة ذلك الذي قتل مائة نفس كيف



[١٥٦] المصدر السابق نفسه

أمره العالم أن يغادر بيئته، وإلى الحديث الذي رواه مسلم: (لَو تَدومونَ عَلى ما أَنتُم عَليهِ عِندي وَفي الذِّكرِ لَصافحَتكُم الملائكةُ عَلى فرُشكم وَفي الطرُقاتِ وَلكن ساعةً وساعةً.. ساعةً وساعةً.. ساعةً وساعةً).. والعمل الدعوي التعليمي شرط، فالرباني يجب أن يخرج من إطار ذاته إلى الإصلاح، وذلك بالتعليم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترتيب هذه المعاني)[١٥٧].

ولقد صدق هذا الشيخ عندما قال: (ولو أنك تأملت الواقع فإنك نادراً ما تجد توافر هذه الشروط على كمالها وتمامها في تجمع معاصر أو في مؤسسة)[١٥٨]، ثم انتهى إلى أن (إحياء الربانية فريضة العصر، والكينونة مع الربانيين والأخذ منهم من فرائض الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة:١١٩)، والصادقون هم ورّاث النبوة في العلم والجهاد. وهذا يقتضي منك نية وعزيمة والتزاماً أن تسير في طريق الربانية وأن تعمل لإقامة حلقات طلاب الربانية وأن تسعى لتعميم ثقافة الربانيين وأخلاقيتهم وتوجهاتهم نحو إقامة الإسلام)[١٥٩]..

وأنا أرى الآن (والله تعالى أعلم) أن مشروع (إحياء الربانية) هذا كان يمكن أن يحدث نقلة نوعية في العمل الإسلامي المعاصر لو وجد طريقاً إلى حيز

[١٥٧] المصدر السابق نفسه
[١٥٨] المصدر السابق
[١٥٩] المصدر السابق

التنفيذ على نطاق واسع، رغم أني قد لا أتفق مع الطروحات التنظيمية الكثيرة الموجودة فيه، خصوصاً وأن من الأهداف الرئيسية لكتابنا هو تجاوز الأطر التنظيمية الحركية (المبالغ فيها) التي نظنها قد صارت تقيد وتكبل انطلاقة التجديد المطلوب للعمل الدعوي الإسلامي. وأنا ألتمس العذر لوجود الطروحات التنظيمية (الكثيرة) في مشروع (إحياء الربانية) كون أن هذا المشروع قد كُتب منذ سنوات ليست بالقليلة، وقد حدثت متغيرات عالمية مهمة منذ ذلك الحين..

ولا أعلم بالضبط فيما إذا كان الشيخ فريد الأنصاري قد استفاد بشكل ما من مشروع (إحياء الربانية) في مشروعه (الفطري) القائم على تفعيل (مجالس القرآن)[١٦٠]، حيث أني أعتقد أن هناك تقارباً مهماً بين المشروعين[١٦١]، ولكني أرى أن مشروع (الفطرية) الذي طرحه الأنصاري هو الأقرب إلى هدف ورسالة هذا الكتاب. حيث اعتبر الأنصاري أن المسالك التربوية لمشروع الفطرية ثلاثة، وهي[١٦٢]:

١- مجالس القرآن لتلقِّي حقائق الإيمان والتخلق بمقتضياتها.

---

[١٦٠] أنظر كتاب الشيخ فريد الأنصاري، مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ.

[١٦١] كما أن هناك تقارب آخر مع مشروع طرحه الشيخ محمد أحمد الراشد، سنعرج إليه لاحقاً في هذا الكتاب.

[١٦٢] لمزيد من التفصيل راجع كتاب الفطرية بعثة التجديد المقبلة للشيخ فريد الأنصاري.

٢- بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليه.

٣- رباطات الفطرية، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية للتغذية الفردية.

ولذلك أضفنا في نهاية كتابنا هذا ملحقاً يمثل الجانب العملي من مشروع (الفطرية) للشيخ الأنصاري. ورغم أن الشيخ الأنصاري قد نص في المسلك التربوي الثالث لمشروعه (أي رباطات الفطرية) على أنه للتغذية الفردية، فإن الأحاديث الصحيحة التي سقنا بعضاً منها قبل قليل حول فضائل (مجالس الذكر) مدلولها أوسع من ذلك، وفيها حجة كبيرة لمن يرى سنيّة الذكر الجماعي، رغم أن من أهل العلم من خالف في ذلك، ولا نريد الخوض في مثل هذا الخلاف الآن، (فكلٌّ مِن رسولِ الله ملتمِسٌ)..

إن موضوع التزكية والتربية الروحية يعد موضوعاً ذو أهمية قصوى لجميع المسلمين، وخصوصاً لمن سلك سبيل الدعوة إلى الله تعالى منهم، حيث أنه يتعلق بالإحسان وهو إحدى الدوائر الأربعة الكبرى للدين ، وهي الإسلام والإيمان والإحسان وعلم أشراط الساعة، ففي الحديث الصحيح عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ





أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ: أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)[١٦٣].

فمدار علم التزكية والسلوك (أو إن شئت أن تقول علم التصوف السُنّي، فلا مشاحة في الإصطلاح) هو على كيفية سير العبد وتحققه بالمنازل أو المدارج المختلفة لركن الإحسان. وإنه لمن الخطأ الجسيم أن يدعو البعض لإلغاء عموم التراث (الصوفي) للأمة. فهذه الدعوة تشبه إلى حد بعيد من يدعو إلى إلغاء التراث الفقهي أو الأصولي للأمة مثلاً. ومن يدعو إلى هذا فهو كالذي يريد اختراع العجلة من جديد!.. فقد قدّم لنا علماء الأمة ومربيها، من أهل التربية والسلوك المتمسكين بهدي الكتاب والسنة، رصيداً ضخماً من فقه النفوس وقواعد السير وعلم القلوب لا يمكن تجاهله أو إغفاله. نعم إن هذا

---

[١٦٣] رواه البخاري، ومسلم واللفظ له، وغيرهما.





التراث (الصوفي) يحتاج إلى غربلة وتمحيص دقيق بسبب ما داخله من فلسفات غريبة وشطحات مريبة. لكن الميزان الذي يحكم الأمر كله معلوم وهو ميزان الكتاب والسنة، فما وافقهما أخذنا به، وما خالفهما تركناه.. فلماذا الخوف والوجل إذاً؟

ولطالما كان أكابر العلماء، ومنهم الإمامين ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم، يميزون بين (التصوف السنّي) الصحيح وبين (التصوف البدعي) المردود. أفلا يكون هؤلاء الأكابر قدوة لنا في هذا الباب بدلاً عن التعنت والتنطع؟

والذي يقرأ حياة السلف الصالح يجد أن الأدب الرفيع هو الذي كان سمتهم الغالب في التعامل مع أهل الفضل والصلاح وإن خالفهم في شيء. واليوم يعجب المرء من تطاول بعض الأصاغر على الأكابر.. بينما ثبت للجميع أن صحبة أهل الفضل والعلم والصلاح هي من أنجع وسائل التزكية والتربية الروحية. لا بل إن النظر في وجوه بعضهم يشرح الصدور وينير القلوب، بفعل قَدمهم في الوراثة المحمدية الحقة. فكيف كان الأمر ياترى بمن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. وإن في هذا لدليل ذوقي قاطع يملأ القلب سكينة بعقيدة أهل السنة والجماعة في عدالة (وليس عصمة) جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين رآهم هو ورأوه مؤمنين به، وفارقهم إلى الرفيق الأعلى وهو عنهم راضٍ. فليت من تطاول عليهم ممن نقص عقله أن يكون له قلب أو يلقي



السمع وهو شهيد، ليدرك أن من عرف حقَّ قَدر رسول الله صلوات ربي عليه وآله، لا يمكن له أبداً أن يتهم أحداً من أصحابه!..

الفصل الثاني عشر:

ملاحظات في فقه العمل السياسي

إن من الحري بنا أن نبدأ الكلام هنا بالتمييز بين فقه الكليات السياسية (أو أصول الفقه السياسي) وبين البرنامج السياسي لجماعة ما أو دعوة ما. فالبرنامج السياسي هو فقه جزئي تطبيقي وهو عنصر من عناصر أصول الفقه السياسي، كنسبة (فقه المواريث) مثلاً إلى مجموع الفقه وأصوله..

وأما فقه الكليات السياسية (أو أصول الفقه السياسي) فهو كليات وقواعد، بمعنى أنه (**منهج معرفة سنن التحولات، وسنن التوقعات والمآلات، فيما يتعلق بتدبير شؤون المجتمعات على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، وبهذا كان مصدراً من مصدر فقه الدعوة الإسلامية، ومن ظن أن العالم الإسلامي قطعة معزولة، أو بالأحرى يمكن عزلها عن السياسة الدولية، فهو ما يزال يعيش خارج التأريخ..**

وبمثل هذه الأخطاء القاتلة في الفهم وفي المنهج، يتم استغفال بعض العلماء وتوظيفهم – على جلالة قدرهم – والدفع ببعض الجماعات الإسلامية، بما يؤدي بها إلى الانتحار في نهاية المطاف، أو إلى زيادة تمزيق مِزَق الأمة بما يؤخرها عشرات السنين إلى الوراء.



إن أصول الفقه السياسي ضرورة من ضرورات الاجتهاد اليوم، لا يجوز لعالم أن يتصدى للإفتاء في الشأن الإسلامي العام، المرتبط بمصائر الشعوب الإسلامية وأمنها الإستراتيجي المادي والمعنوي، إلا بتحصيله درجة الاجتهاد فيه. فلا بد إذن من إحكامه وبناء قواعده واستنباط مناهجه، لضمان تفكير فقهي سليم، يبني ولا يهدم، ويرشد ولايضلل.

إن أصول الفقه السياسي هو قواعد لفهم ما يجري في العالم، وقواعد لاستنباط ما يناسبه من أحكام وفتاوى على موازين الكتاب والسنة، واي فتوى تُنزَّل بغيره ولو على محلها فإنما هي رمية من غير رامٍ. وإنما جاء الدين ليتنزل على واقع الناس، بما هو موصوف في الزمان والمكان، وأصول الفقه السياسي هو الكفيل بذلك الوصف في مجال تدبير الشأن العام.

ويمكن أن تستقرى قواعده، زيادة على التراث الأصولي والمقاصدي، من قواعد العلوم السياسية والاقتصادية والإعلامية، فهذه ثلاث مجالات هي من الخطورة بحيث يُعتبر الخوض في محاولة بناء الأمة، وتجديد بعثتها من دون مراعاتها، ضرباً من المغامرة بمصيرها، ونوعاً من





المقامرة بوجودها، وقد عُلم شرعاً تحريم كل عقد بني على الغرر والمقامرة)[١٦٤].

وأما الأحكام السياسية (وهي ما سماه الفقهاء قديماً بالأحكام السلطانية أو السياسة الشرعية)، فهي تعني "كل التشريعات المتعلقة بتدبير الشؤون العامة للدولة على المستوى الدستوري والإداري والتنفيذي". وقد بين بعض أهل العلم تأخر الرتبة التشريعية لهذه الأحكام. حيث أن القوانين التشريعية الكفيلة بتنظيم (فن حكم الدولة) وإدارتها ليس لها من النصوص التشريعية إلا النزر اليسير، وإنما مجالها الاجتهاد المحض[١٦٥]. وبذلك فإننا نتفق معه في عدم اعتبار بناء (البرنامج السياسي) أمراً مفتاحياً أو رئيسياً في المرحلة المقبلة من العمل الدعوي الإسلامي. وسوف نعود إلى ذلك في نهاية هذا الفصل بعد أن نرصد بعض ما يتعلق بالعمل الإسلامي المعاصر في هذا المجال..

إن طبيعة أهداف ومناهج الجماعات الإسلامية المعاصرة، جعلت بعضها (في الأقل) يدخل ساحة العمل السياسي، أو يتخذ مواقف ذات طابع سياسي، في هذه المرحلة أو تلك من تطوره. ولذلك فقد كان حيازة الدعاة لأصول الفقه السياسي (أو الفقه السياسي بمصطلح البعض) أمرا في غاية الأهمية. والحقيقة أنه لا يكفي في ذلك أن تمتلك قيادات تلك الجماعات أو

---

[١٦٤] هذا نص يُكتب بماء الذهب، نقلناه بطوله من كتاب الشيخ فريد الأنصاري (الفطرية بعثة التجديد المقبلة) ص ١٨٢-١٨٣

[١٦٥] أنظر كتاب د.فريد الأنصاري: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي





الحركات وحدها هذا الفقه، بل لا بد من وجوده بعمق كاف في كافة مستويات الجماعة أو التنظيم. ولا يعود ذلك إلى أن بقية مستويات وأفراد الجماعة هي التي سترفد قمتها بالقادة في المستقبل فحسب، ولكن ذلك يعود أيضا إلى قضية المحافظة على الجماعة المعنية من الانشقاقات والفتن. حيث أن القيادات (التنظيمية) – وكما أشرنا إلى ذلك من قبل – قد تضطر في مواقف كثيرة إلى اتخاذ قرارات وفقاً لنظر اجتهادي مصلحي معين، فتقبل (اجتهاداً) بمفسدة أخف دفعاً لمفسدة أعظم، أو تفوت مصلحة حفاظاً على مصلحة أكبر. وقد لا تستطيع أن تقوم بإيضاح تفاصيل موقفها لقواعدها أو جماهيرها، لكي لا يذاع مالا تصح أذاعته في الساحة السياسية الملغومة في عالم اليوم..

وفي تلك الأحوال، لا يصح مجرد الاعتماد على ثقة القواعد بقياداتها، خصوصاً عندما يشن أعداء تلك الجماعات هجوماً إعلامياً ونفسياً مضللاً، أو يحاول استغلال الفرصة بعض الطامحين للصدارات من داخل الصفوف. ولأن (الوقاية خير من العلاج)، فخير وقاية من هذه الأخطار المحتملة كان إنضاج ركائز وأسس (الفقه السياسي)، لدى كافة أفراد الجماعات الإسلامية المتصدية للعمل الدعوي، وكل حسب إمكانيته وحاجته..

وقد بين بعض مفكري الدعوة الإسلامية المعاصرة أن الفقه السياسي الذي ينبغي بالدعوة أن تتبناه (هو الذي يربط المتغيرات بالثوابت، ويرد المتشابهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات، والفروع إلى الأصول. وهو الفقه



الذي كان عليه الصحابة والخلفاء الراشدون، ومن سار على دربهم من التابعين لهم بإحسان.

ويقوم هذا الفقه المنشود – الذي ينبثق من العقيدة، ويعتمد على الشريعة، وتؤيده القيم والأخلاق – على عدة أسس ومرتكزات أساسية، نجملها فيما يلي:

المرتكز الأول : فقه النصوص الجزئية في ضوء المقاصد الكلية.

المرتكز الثاني : فقه الواقع، وتغير الفتوى بتغيره.

المرتكز الثالث : فقه الموازنات، بين المصالح والمفاسد.

المرتكز الرابع: فقه الأولويات.

المرتكز الخامس : فقه التغيير)[١٦٦].

وهذا كله كلام شرعي سليم لا نختلف عليه. حيث يتضح منه بأن السياسة الخارجية للدعوة الإسلامية (بمعنى القواعد والأصول التي تحكم وتضبط تعاملها مع الآخر) تعتمد على ذات المرتكزات العقلية والفكرية والروحية التي تحدثنا عن جوانب منها فيما سبق. وهذا آتٍ من جمالية التناظر والتناسق التي قلنا بأنها تحكم تفاصيل هذه الدعوة المباركة، وتربطها مع أصولها الشرعية، ومع مجال حركتها على أرض الواقع. ولكننا نتساءل الآن هل أن

---

[١٦٦] د.يوسف القرضاوي، السياسة الشرعية، ص ٢٢٧ .



واقع الجماعات والحركات الإسلامية في هذا المجال ينسجم مع الإطار النظري الذي تم طرحه في مجال الفقه السياسي (أو أصول الفقه السياسي)؟..

إن نظرة سريعة إلى نتائج التجارب السياسية لبعض الحركات والجماعات الإسلامية خلال السنوات الأخيرة يكفينا للاستنتاج بأن هناك قصوراً واضحاً في إنضاج ركائز الفقه السياسي ليس لدى قواعد وجماهير تلك الحركات والجماعات بل لدى قياداتها أيضاً!..

ومن الأمور التي يمكن الإشارة إليها، في مجال (السياسة الخارجية) للجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة، هو موضوع تعامل (بعض) أفرادها مع بقية أفراد الحركات والتوجهات الإسلامية الأخرى، الذين يختلفون معهم قليلاً أو كثيراً فيما يتعلق بالإسلام تصوراً أو حركة. ومما لا ريب فيه أن القضية ستختلف عندما نتناول الموضوع حسب حجم وعمق الاختلاف الموجود. ولكن ماله صلة بموضوعنا الآن، هو قضية إحاطة أبناء الجماعات الإسلامية بعوامل وأبعاد الخلاف والاختلاف مع الجماعات والفرق الإسلامية الأخرى، ومدى فقهه لإمكانيات ومناهج التعامل معها، بما يكفل إقامة الحجة على الناس، ونصرة راية الحق (أياً كان صاحبها)، في ضوء مرونة الإسلام وسماحته، بعيداً عن روح التعصب والتحزب.





ومن هذا فلا ينبغي بالمسلم الواعي أن يتهيب من وجود هامش مقبول للحرية الفكرية وحرية ابداء الرأي، بعيداً عن أجواء الفتنة و(الإرهاب) الفكري، لأننا نؤمن بأن العرض الواضح للأفكار والمناهج، سيكون مهماً لبيان مدى تناسقها، أو تناقضها، مع نفسها، أو مع العالم الخارجي. ولأننا نؤمن بأننا دين الإسلام هو المنهج الأوسط الأقوم، لذلك نعتقد بأن مثل هذه الأجواء ستكون في صالح الإسلام، على المدى البعيد في الأقل، حتى لو كانت تؤدي في المدى القريب إلى نتائج يكون ظاهرها في صالح منهج آخر، سبق دعاتُه إلى الساحة، أو ساعدتهم عوامل أخرى حالياً.

إن الانطلاق من نظرة ضيقة في التعامل مع الرأي الآخر، والتشنج والتعصب والتحزب، ليست من منهج الإسلام في شيء، وليست في صالح المسلمين. ولا أقصد بذلك أن يكون المسلم ساذجاً في التعامل مع الحركات والفرق الأخرى.. وقد قال أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: (لستُ بالخَبّ ولا الخبُّ يخدعني). ولكن ولإيمان المسلم الرباني بأستاذيته عليهم، ولأنه أبعد منهم نظراً في منهجه وسلوكه، كونه طالب آخرة بالمقام الأول، وما عمله في حيثيات الأمور الدنيوية إلا لأجل إرضاء ربه تعالى كما أمر هو بذلك، فلهذا هو يربأ بنفسه عن الممارسات التي لا تليق بقافلة النور التي يرجو لنفسه الالتحاق بركبها، حتى وإن وقع الآخر بمثل هذه الممارسات. فإنما المسلم الحقّ قبس من الرحمة الربانية المهداة للإنسانية، ولذلك فإن كل الناس، وكل الفرق، يدخلون في اهتمام دعوته، يرجو أن يهديهم الله تعالى



على يديه إلى نهجه القويم وصراطه المستقيم، ومن هنا جاءت أستاذيته عليهم.

وغير بعيد من ذلك، أن يتعصب البعض لاجتهادات جماعته وحزبه، في فقه تغير الواقع، وأولويات العمل، فيذهب إلى مهاجمة كل رأي إسلامي آخر، فيصنع بذلك له أندادا وخصوماً كان يمكن تحييدهم أو التعاون معهم. فالداعية المسلم، وإن كان يؤمن بأرجحية فكره واجتهاده، فعليه تقبل وجود اجتهادات إسلامية أخرى في الساحة. فالإسلام أوسع من أي أن يحتويه اجتهاد شخصٍ أو فكرٍ معين . وإن من طبيعة الأشياء أن تكون هناك رؤى واجتهادات متعددة في ساحة العمل الإسلامي، على مر العصور. وإنما المسلم الفطن من يسعى لتوليف تلك الاجتهادات لتصب موحدة في خدمة الإسلام ورفع رايته.

إننا نؤمن بأن كل منهج لا يحمل مواصفات الشمولية والتوازن والتناسق، في نفسه من جهة، ومع الوحي من جهة ثانية، ومع الواقع الطبيعي والاجتماعي من جهة ثالثة، سيظهر نقصانه وتناقضه في أجواء حرية الفكر وإبداء الرأي، أو على صعيد الممارسة والتطبيق. ولهذا ينبغي أن لا تذهب نفس المسلم الغيور على دينه حسرات، عندما يرى أن هناك ظرفاً وعوامل مكنت أصحاب منهج آخر من التقدم عليه في ساحة التطبيق. فإنه إن كان ذلك المنهج حقاً فلا يمكن لعاقل منصف أن يرى بأساً في ذلك؛ وإن كان غير ذلك، فستفضح نقصه الأيام والتجارب وسيعرف كثير من الناس (الذين



لم ينتبهوا لخلل ذلك المنهج أول الأمر) حقيقته عند ذاك.. وبالتأكيد أننا لا نريد أن يتحول البلاد والعباد إلى حقل تجارب لكل من هبّ ودبّ، ولكننا نريد أن يبقى الداعية المسلم يحمل ألق الإيمان، وأمل الفوز، وحسن الظن بربه، وأن لا تحبطه جولات الباطل، وأن يستمر في دربه مراغماً (يَحدوهُ منهجُهُ الإلهيّ)..

وإن من الخطأ البيّن أيضاً أن يتعامل شخص (أو جماعة) مع منهج أو فكر أصابه الانحراف على مدى سنين طوال، ومر بمراحل مختلفة من التطوير والتنظير على أيدي أتباعه ودهاقنته، بنفس أسلوب التعامل مع انحراف بسيط طارئ. فان الانحراف إذا طال أمده، ساهمت عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية ونفسية في ترسيخه، وأصبح كالداء العضال، يصعب علاجه، إلا لطبيب خبير، دؤوب في متابعة تطور حالة مريضه، صبور على شكواه وردود فعله، خلصت نيته لله تعالى، وبانت شفقته على المريض.. فيسلك سبل العلاج المختلفة، من دعاء مأثور، وكلام رقيق يداعب شغاف القلوب، وأدوية فعالة، من النقد والتحليل الهادئ المنصف. فيكون للعقل والفكر دور، وللروح والقلب دور، ولتفكيك وتذويب العوامل والظروف التي ساهمت في نشأة المرض واستمراره دور آخر لا يقل أهمية عن كل ما سبق. وكل ذلك يقتضي وقتاً ونفساً طويلاً، وعملاً وفقاً لخطة ذات أمد بعيد. وبغير ذلك سيستمر ذلك المرض، بل وقد يزداد سوءاً، ما لم تتدارك الناس رحمة من ربهم الكريم..





ولا يفوتنا هنا أن ننتبه إلى أهمية تقدير الدور الخطير الذي لعبته وتلعبه العاطفة في تشكيل واستمرار الكثير من الانحرافات الفكرية التي حدثت على مر التاريخ الإسلامي. فقد استغل دعاة تلك الانحرافات تأجيج العواطف لكسب الناس إلى مناهجهم، التي غطت العواطف الملتهبة (سواء كانت حقيقية أو مفتعلة) عيوب انحرافاتها عن أعين وأفهام الكثيرين.. وفي مثل هذه الأحوال، يصبح حديث الفكر والمنطق وحده قاصراً عن أداء مهمته، لأنه يصطدم بجدار العاطفة الذي غلف عقول المخاطبين. فلا بد من اختراق هذا الجدار أولا، لنستطيع بعد ذلك مخاطبة العقل بأحياء ثوابته على مهل. ومن الخطورة بمكان القفز على المراحل عند التصدي لمحاولات تغيير من هذا النوع. لأن المتعجل قد يسهم بتعجله في زيادة سمك جدار العواطف هذا، عوضاً عن توهينه، لأجل اختراقه لاحقاً للوصول إلى مخاطبة العقل.

إن إحياء أسس الشمول والتوازن، والمنطق السليم، في فهم النصوص والوقائع؛ وإحياء السلوك الراقي المتزن، الذي يقوم على أساس متين من العدالة والرحمة؛ لهما الأثر البالغ في انتشال الكثير ممن غرّر بهم أصحاب الأغراض. وإن لطبيعة التناقض الداخلي، التي تحكم أي منهج منحرف، دورها في أن لا يتوحد أتباعه على قلب واحد أو عقل واحد.. وإنما الذي يظهر من ذاك أحيانا، ما هو إلا قشرة خارجية هشة، تسهم الضغوط الخارجية في تشكيلها. ولذلك يكون للسلوك العادل المتوازن في التعامل مع





أتباع منهج كهذا، دور كبير في صحوة أو تحييد الكثير منهم. لأن بذور الفطرة السليمة لازالت موجودة في نفوس كثير من الناس – بفضل الله تعالى- ، وإنما هي تحتاج إلى المزارع الرحيم اليقظ المثابر، ليسهم في إعادة إنمائها.

وإذا ما رجعنا إلى ساحة العمل السياسي المباشر (من حيث هو فن حكم الدولة)، فإننا نرصد تجارب (إسلامية) غير مشجعة عموماً، اتسمت بالتسرع في تبني (برنامج عمل سياسي) معين ومحاولة تطبيقه، قبل إنضاج (فقه أصول سياسي) عميق يتناسب مع الواقع المحلي والعالمي، ويراعي الزمان وأهله.. لذلك كانت هناك (توقيتات خاطئة) كثيرة لفعل سياسي في غير أوانه، فأتت النتائج بعكس التوقعات المرجوة، وأرجعت تلك الخطوات السياسية غير المحسوبة جيداً الجماعات التي تبنتها سنيناً إلى الوراء..

وإن من يراقب ما وصل إليه سياسيو العالم اليوم عموماً، ليعجب من الاستهتار وقلة الحياء الذي وصلوا إليه في كذبهم أمام شعوبهم، وألاعيبهم القذرة للوصول إلى غاياتهم الدنيئة، ومقامرتهم بحياة ومصير وعاقبة الملايين من البشر لأجل إرضاء طمع وجشع من أوصلهم إلى كراسييهم بمكره.. حتى أنه لينطبق على معظمهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مما أدركَ الناسَ مِن كلامِ النبوّةِ الأُولى: إذا لَمْ تَستحِ فاصنعْ ما شئتَ)[١٦٧]..

[١٦٧] رواه البخاري.





وأمام تضييق ساحات العمل السياسي بالألاعيب المنحطة، وتشويه صورة الجهاد الإسلامي الحقيقي باستدراج المندفعين والمخلطين لممارسة القتل باسم الإسلام لكن على غير منهجه الذي أمر الله تعالى به، وأمام بلوغ قوى الشر العالمي مرحلة الاستهتار التام وانعدام الحياء والمسؤولية؛ لا بد للمسلم الذي يستشعر حقيقة عبوديته لله تعالى، أن يلتزم بما شرعه الله تعالى له ويعض عليه بالنواجذ، فدين الله تعالى لا يُنصر بغير الدين نفسه.. ومن ظن أنه ينصر شرع الله تعالى بسلوك سبيل غير الذي أمر الله تعالى به، وغير الذي سنه لنا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أساء الظن بالله ورسوله، وأعظم عليهما الفرية.

وعليه فنحن نرى (والله تعالى أعلم) أن المرحلة القادمة للدعوة الإسلامية المباركة ينبغي أن يُجتنب فيها الدخول في مستنقع السياسة القذرة لعالم اليوم، وأن لا يكون فيها الوصول إلى كرسي الحكم أولويةً ولا هدفاً مباشراً، بل على العكس من ذلك تماماً.. وهذا الأمر لا يمليه علينا إدراكنا للاستفحال والاستهتار للقوى المؤثرة في السياسات العالمية فحسب، بل يوجبه قبل ذلك فهمنا لواجب الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة لأناس بلغ فيهم الكيد العالمي مبلغاً في إرباك عقولهم وتشويه جزء مهم من فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها..

إن على دعاة الإسلام أن يعوا الأرض التي يقفون عليها جيداً.. فبعد مرحلة من الصحوة الإسلامية التي بلغت الغرب في عقر داره في أوربا وأمريكا، لم





تجد قوى الشر العالمية بدأً من استخدام كل الأساليب الممكنة (مهما بلغت درجة انحطاطها) لتشويه صورة الإسلام أمام غير المسلمين من ناحية، ولإضعاف ثقة المسلمين بدينهم من ناحية أخرى.. وكل ذلك لغرض إيقاف المسلمين عن العودة الحقيقية إلى الله تعالى، ولفتنة من يمكن له أن يجد في الإسلام الخلاص الحقيقي له من غير المسلمين.

ومع نهاية الألفية الميلادية الثانية، وبدء الألفية الثالثة، أصبحت تلك السياسة الشريرة واضحة المعالم للجميع.. ولم تكن الحروب الفاجرة التي شُنّتْ على المسلمين في شتى أصقاع الأرض، والتي استُخدِمت فيها أشد الأسلحة دماراً وفتكاً، لم تكن سوى مظهراً من مظاهر تطبيق تلك السياسة؛ وقد يكون هذا المظهر ليس هو الأشد خطورة منها!..

فلم تعد القضية الأولى لنا اليوم هي ايصال الإسلام إلى غير المسلمين (أو كما يسميها البعض دعوة التخبير)، رغم أهمية ذلك وشرعيته؛ بل ربما أصبحت أولويتنا اليوم هي إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين بدينهم وشريعتهم، من خلال تبيين ما اندرس من معالم الإسلام في نفوسهم وعقولهم (أي دعوة التبيين).. فالمسلمين لم يخرجوا عن دينهم (بفضل الله تعالى وحفظه)، ولكن عدوهم استطاع بكيده (وبساذجة كثير من المسلمين أيضاً) أن يضعف بواعث الأيمان فيهم، ويشوه معالم الإسلام في حياتهم، وينحت في فطرتهم نحتاً..





لذلك أصبح دعاة الإسلام بين خيارين. فإما أن يغمضوا عيونهم عما لحق من تدمير وتشويه لفطرة الناس في عموم المجتمعات الإسلامية، ويغضوا الطرف عنه ويمضوا في الطريق الذي اختطوه لأنفسهم، كذلك الذي يسافر مكابراً في بيداء مهلكة وحيداً وجسمه تفتك به الأمراض فتكاً، فلا يُعلم متى سيخر على وجهه في تلك البيداء ساقطاً من شدة الإعياء والمرض، فيكون كمثل (المنبَتّ لا أرضاً قطعَ ولا ظَهراً أبقى)؛ وإما أن يختاروا الثقة بربهم ودينهم، ويتأدبوا مع سنة نبيهم، فلا يحاولوا قفز المراحل قفزاً، ولا يلزموا أنفسهم ما لا يلزم، وينتبهوا للداء العضال الذي ألمَّ بهم، فيبادروا إلى علاجه، طالبين الشفاء من الله تعالى، مخلصين له الدين، متعبدين بالأخذ بأسباب العلاج، مقدمين الأهم قبل المهم، حتى يلقوا الله تعالى لا فاتنين ولا مفتونين..

إن من نزل به داء عضال فعليه أن يبادر لعلاج نفسه أولاً، دون أن ينسى علاج غيره إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. وأما من قصّر في علاج نفسه، فسيكون في حق غيره أشد تقصيراً. وإن من الترفق بالمريض أن يخلص المعالِج الأمر لله تعالى، ثم أن يكسب ثقة المريض به.. ولما كان أهل الباطل قد حاولوا تشويه صورة كل مسلم ملتزم بدينه في عيون الناس بإظهاره على أنه إنما يطلب الدنيا بلباس الدين، ولما أسهمت التجارب غير المدروسة لبعض الجماعات (الإسلامية) المعاصرة في مجال العمل السياسي أو (الجهادي) في تعزيز هذه الرؤيا لدى كثير من الناس، فإن الحري بالمسلم أن يجتنب بدينه





مواطن الشبهات ومواضع الفتن تعبّداً لله تعالى، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (الأنفال: ٤٢).

وإن الأمر لم يزل في نزول، والدنيا إلى زوال.. وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام البخاري عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنْ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: (اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)..

(قال ابن بطال: [هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره صلى الله عليه وسلم بفساد الأحوال، وذلك من الغيب الذي لا يعلم بالرأي وإنما يعلم بالوحي].. وقد استُشكِل هذا الإطلاق مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبد العزيز، وهو بعد زمن الحجاج بيسير، وقد اشتهر الخبر الذي كان في زمن عمر بن عبد العزيز، بل لو قيل أن الشر اضمحل في زمانه لما كان بعيدا فضلا عن أن يكون شرا من الزمن الذي قبله، وقد حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، فسُئل عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج فقال: [لا بد للناس من تنفيس].. ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة ما قبل وجود العلامات العظام كالدجال وما بعده، ويكون المراد بالأزمنة المتفاضلة في الشر من زمن



الحجاج فما بعده إلى زمن الدجال، وأما زمن عيسى عليه السلام فله حكم مستأنف، والله أعلم)[١٦٨].

وبناء على فهم هذه القاعدة استقراءاً على الأعم الأغلب، ومع أيماننا بأنه لا بد من تنفيس أحياناً، فإن العمل الثابت الرصين خير للمسلم من (المجازفات الثورية) في غالب الأحوال، فيكون حال المسلم في عمله لدينه كالفلّاح الذي يهيئ التربة للزراعة، ويعتني بالنبتة، ويسقيها، حتى تكون (بإذن الله تعالى) شجرة باسقة الأغصان، لا تقتلعها رياح الشر والفتنة.. وأما قطاف الثمار فذلك من مزيد فضل الله تعالى يمن به على من يشاء من عباده حين يشاء.. ولكل مقام مقال.

وأما الخلافة التي تكون (على منهاج النبوة) والتي وردت في الحديث النبوي الشريف عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيًّا، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى

---

[١٦٨] نقلاً باختصارمن كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر.

مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، ثُمَّ سَكَتَ)[١٦٩].. فإن هذه الخلافة، على الراجح لدى أكثر العلماء، إنما ستكون في زمن المهدي عليه السلام، وليس قبل ذلك، فنحن اليوم في مرحلة الملك الجبري.

وقد صح في المهدي عليه السلام روايات عديدة، اعتبر بعض أهل العلم أنها بلغت حد التواتر، وإن كان أغلبها لم يرد فيه لفظ (المهدي) لكنه دل على معناه، ومنها حديث قرة بن إياس المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لتُملأنَّ الأرضُ جوراً وظلماً، فإذا ملئتْ جوراً وظلماً، يبعثُ اللهُ رجلاً مني، اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملؤها عدلاً وقسطاً، كما مُلئتْ جوراً وظلماً، فلا تمنعُ السماءُ شيئاً من قَطرها، ولا الأرضُ شيئاً من نباتها، يمكث فيكم سبعاً، أو ثمانياً، فإن أكثرَ فتسعاً)[١٧٠]..

وليس المقصود من إيراد مثل هذه الروايات الصحيحة، أن يكف المسلم عن العمل لدينه، إنما المراد أن يعرف المسلم كيف ينصر دينه على الوجه الشرعي الذي يطلبه الله تعالى منه، والذي دلّه عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وليس وفقاً لأهواء نفسه.. فالعمل يكون مردوداً ما لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، وصواباً موافقاً لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما فسر سلفنا الصالح

---

[١٦٩] رواه الإمام أحمد في مسنده، والطيالسي، والبيهقي في منهاج النبوة، والطبري، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وحسنه الأرناؤوط.

[١٧٠] صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.



قول الحق جل وعلا في آخر سورة الكهف: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:١١٠).

ولا أجد للمسلمين الداعين إلى دين الله تعالى في المرحلة الدعوية المقبلة (على وجه الخصوص) خيراً من مَثَل الأنصار (رضي الله عنهم) عندما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم العقبة على أن يؤووه وينصروه، ويقاتلوا الأحمر والأسود دونه، وليس لهم مقابل ذلك إلا الجنة في الآخرة، ولم يطلبوا شيئاً من الدنيا مقابلاً، سوى ما نالوه (بفضل الله تعالى) من تشريفه صلى الله عليه وسلم لهم بالسكنى بين أظهرهم، فتنورت مدينتهم بنوره إلى يوم القيامة.. ففي تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة:١١١)، قال الإمام ابن كثير: [وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم – يعني ليلة العقبة –: اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: (أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم). قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: (الجنة). قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) الآية].





وختاماً لهذا الفصل نؤكد مرة أخرى أن انضاج (أصول الفقه السياسي) لدينا لا يقتضي منا بالضرورة تبني (برنامج سياسي) معين والدخول به في المعترك السياسي المعاصر، بل قد يكون الأمر بخلاف ذلك. وإذا كان هذا حال من تأصلت عنده (أصول الفقه السياسي) ونضجت، على الوجه الذي بيناه أول هذا الفصل، فما بالك بمن لم يعرف من هذا البحر العميق إلا الشاطئ؟.. إن مِثل هذا الأخير إما أن ينسى أصول دينه في خضم معترك السياسة المائج، وإما سيكون حاله كحال المتشدد الذي انتصب للفتوى من غير أهلية لها، فهو يقول لكل أمر لا يستطيع إدراك أبعاده ومآلاته: (لا!)، متستراً بذلك على جهله، باظهار الغيرة على الدين، وقلبه مملوء بـ(حمية الجاهلية).. وفي كلا الحالين فإنه سيُفسد أكثر مما يُصلح. ولنا من الحالين مَثل قريب تغنيك عن ذكره الإشارةُ..



الفصل الثالث عشر:

في الأصالة والاجتهاد الدعوي

يمثل الصراع بين حملة رسالة دين الله الخالد (الإسلام) وبين أعداء الله تعالى من أئمة الكفر والضلال وأتباعهم، صراعاً مستمراً حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وإضافة إلى استمراريته، يتميز هذا الصراع بتنوع أشكاله وأساليبه وأبعاده.. ولعل هذا التنوع اليوم هو على أشده، حيث تعاظمت قدرات التخطيط والتنفيذ عند أعداء الإسلام، وبالغوا في صدهم عن سبيل الله، ورصدهم للمسلمين، ولم يقصروا في البطش بهم، والانتقام منهم، كلما سنحت لهم سانحة.

وأمام هذا التفنن والتلذذ بضرب الإسلام وأهله (من قبل أعداء الله تعالى)، وجب على حملة راية الإسلام أن يأخذوا بالسنن الإلهية في دفع الباطل، وأن يكون لهم من الحصافة والرصانة والإبداع في مواجهتهم لخطط الأعداء وممارساتهم، ما يربك مخططات الكفر، ويجعل حربهم ضد الإسلام حرباً مرهقة ومكلفة لهم، تستنزف قدراتهم الشريرة شيئاً فشيئا. لا بل يجب أن ينتقل دعاة الإسلام من مرحلة رد الفعل إلى مرحلة الفعل نفسه، فيسبقون بنور الله تعالى، الذي ينير بصائرهم، مخططات الأعداء. ولا بد للمسلمين أن يبدؤوا بفرض ظرف وشكل المنازلة على أعدائهم فرضاً، ويقطعوا الطريق على كل من يريد استدراج المسلمين إلى معارك جانبية خاسرة.

وكل هذا لن يتم ما لم نترك الجمود على قوالب تنظيمية أو تخطيطية، أو على وسائل دعوية معينة، هي أصلاً لا تدخل في دائرة الثوابت الشرعية، بل هي من أكثر الأشياء خضوعاً للتغيير، ويحل بدلاً عنها أسلوب عمل للإسلام يجمع بين البساطة والبعد عن التنطع من ناحية، ونجاعة وعمق الإنجاز من ناحية أخرى، ويتولد عنه تفرعات وخطط متنوعة هي من صميم (استعمار المؤمن) للأرض وخلافته فيها، لكنها تكيد العدو المتربص وتربكه، وتجعل من الصعب عليه التكهن بالمسار المستقبلي للأمور والأحداث.. فتضيع فرصة السبق التخطيطي عليه. ويمكننا أن نمثل لهذا بتتبع جهاز الرادار (في التطبيقات العسكرية لرصد ومتابعة الطائرات في منظومات الدفاع ضد الجو) لحركة طائرة مقابلة. فإذا كانت حركة الطائرة نمطية، يمكن التنبؤ بمسارها في اللحظات اللاحقة، وكانت قدرتها على المناورة قليلة، يصبح استمكانها سهلاً، وإصابتها أو تدميرها مسألة وقت ليس إلا. وبعكس ذلك، عندما تكون طبيعة حركة الهدف غير واضحة، ومناورته عالية وغير متوقعة، يكون من الصعب إصابته بمقتل..

وقد حاول بعض مفكري الدعوة الإسلامية المعاصرة كسر حاجز الجمود والتقليد الذي أصاب أجزاء وجوانب مهمة من العمل الدعوي، وذلك من خلال التأصيل لقضية الإبداع والاجتهاد في تبليغ دعوة الله تعالى ونصرة الدين. وسنعرض هنا لبعض جوانب الإسهام النظري لنخبة من هؤلاء المفكرين، لكي نحاول مجدداً تفعيل الاستفادة منها، من خلال ربطها بما

نطرحه نحن في هذا الكتاب، حيث أننا نعتقد أن تلك الجهود في تحفيز الابداع والاجتهاد في العمل الدعوي لم تؤت لحد الآن ثمارها المرجوة، في الواقع التطبيقي للعمل الإسلامي المعاصر، الذي يبدو (والله تعالى أعلم) أنه قد سادته روح الجمود والتقليد في سنواته الأخيرة على وجه الخصوص.

فقد جعل أحد مفكري الدعوة القاعدة الأولى من قواعده العشر التي صاغها لما أسماه التكيّف الدعوي المرن مع البيئة، هي: (قاعدة الأصالة واستقلال التقدير، دون تقليد جزافي: فان التقليد عيب، إذ هو تكرار حرفي لا يقيم وزناً أو يعطي دوراً للفروق بين الأحوال المختلفة، وهو غير الاقتباس الواعي الذي تأخذ فيه أشياء، وتدع أخرى.. وأكثر ما يرد هذا التقليد في صيغتين:

الأولى: تقليد حركة إسلامية أخرى ذات مرحلة متقدمة، أو جزء آخر من الحركة في بلاد أخرى توغل في العمل، والمقلِّد ما زال مبتدئاً أو متوسطاً، فيبدأ من حيث انتهى الآخرون، دون رؤية مراحل الاستعداد والتحضير..

الثانية: تقليد بلاد أخرى ذات ظروف اجتماعية وسياسية وجغرافية تخالف ظروف بلادنا وتغايرها..

فإذا كانت هاتان الصيغتان من التقليد يحوطهما العيب لمجرد اختلاف المرحلة الخططية أو الظروف المحيطة، فان تقليد الأحزاب الكافرة في أساليبها أكثر بعداً عن الصواب وأولى أن نربأ بأنفسنا عنه، بل يجب أن ننقد أساليبها بمعيار شرعي من قبل دعاة فقهاء يعلمون حدود الحلال والحرام والشبهات،



ولا نقتبس منها إلا ما لا بأس به شرعاً أو أمكن تخريجه على أحكام مراعاة المصالح واستثناء الضرورات. وكما يعيب التقليد الأصالة التخطيطية، يعيب الأصالة الفكرية الاجتهادية أيضا، وتضمر قابلية الاستنباط المفترضة لدى الداعية..)[١٧١].

ومن ثم فهو يشير إلى خلل خطير أصاب الكثير من الدعاة، ذاك أنهم أصبحوا يهتمون بأخذ النتائج والحلول الجاهزة التي يطرحها بعض مفكري الدعوة، دون إعمال عقولهم في مقدماتها وضوابطها؛ كمثل التلميذ الذي لا يجهد نفسه كثيراً في حل المسائل والواجبات البيتية، ويعتمد على أساتذته في كل شيء.. ويقول في هذا الصدد: (إن الترف في التدريس يجعل التلامذة أهل حرص على النتائج الموضوعية فقط دون جذورها وضوابطها وأسبابها وشروطها، ويصبحون أصحاب علم غير مبرمج ولا منهجي، بل حصيلتهم شتات وأكداس متنوعة، مسموعة أكثر مما هي مقروءة بتتابع، ويصير احتفالهم بالمحاضرات وبفقه الدعوة وبما يطبع لهم، مستنداً على عاطفة وتجاوب روحي أكثر من ابتنائه على معاناة وتفاعل علمي وتأملي، ويكون لهم سمت إتكالي في التفكير، يبعدون معه عن هذه الأصالة المطلوبة.

وعلاج هذه السلبيات إنما يكون بتكثيف المطالعة الشخصية المنهجية المتدرجة، في أبواب الفقه والتاريخ والاقتصاد والسياسة، ولا ينهض الانشغال

---

[١٧١] محمد احمد الراشد، المسار ، ص ٢٠١ – ٢٠٢ .





الكثير بيوميات العمل الحركي عذراً لتقليل هذه المطالعات، فإن مصالح الدعوة مجتمعة، وكما أن مصلحتها واضحة في زيادة النشاط، فان مصلحتها أوضح في الارتفاع بالمستوى الثقافي الفكري لدعاتها، ولا بأس من تحديد حجم بعض هذا النشاط من أجل تمكين الدعاة من حيازة هذه الثقافة، وتمكينهم من التهام الكتب..)[١٧٢].

ولا يخفى أن الارتقاء بالمستوى الفكري للداعية المسلم، وإنماء بذور الإبداع والأصالة فيه، تسهم بشكل كبير في جعل حركته ونشاطه الدعوي أكثر نضجاً، وأسرع في الاقتراب من الأهداف. فالانتقال من موضع إلى آخر، يمكن أن يتم عبر سلوك العديد من الطرق المختلفة، ولكن من المؤكد أن بعضها أقصر من بعض، وبعضها يتطلب جهداً وتضحية أقل من البعض الآخر. وإنما نحن نبني عند الداعية الفقه الذي يمكنه من سلوك أقصر الطرق وأسلمها (شرعاً وعقلاً) لبلوغ هدفه.

إن من مستلزمات إعادة إعمال العقل المسلم، هو تغذيته بالثقافة الصحيحة، بكل عناصر الأصالة والمعاصرة فيها، تلك الأصالة التي جعل مفكر إسلامي آخر، في حديثه عن الثقافة العربية الإسلامية، أول المعاني التي تتطلبها هي: (المعرفة والفهم: فهم هذه الثقافة بخصائصها الذاتية ومكوناتها الأساسية. فهمها من مصادرها الأصلية، وليس من المصادر

[١٧٢] المصدر السابق ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .



الهامشية أو المدخولة، أو المنحولة، أو الواهية. فهمها من أهلها الثقات لا المجروحين، ناهيك بغير أهلها، من الدخلاء عليها، الغرباء عنها، فهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة، لا بأدوات ومناهج غريبة عنها، مفروضة عليها)[١٧٣]. وجعل من مكملاتها المهمة: (الحرص على التشبع بروح السلف الصالح لهذه الأمة. وعلى رأس السلف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وإحياء منهجهم في فقه أحكام الله في شرعه، وسننه في خلقه، وأؤكد هنا أن الذي نريده: منهج السلف الكلي، وليس أقوال السلف الجزئية، وفرق كبير بين الأمرين. منهج السلف يعني طريقتهم الكلية في فهم الدين والعمل به، والعمل له. ومنهجهم - كما يبدو من استقراء أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم — هو النظر إلى جوهر الدين لا إلى شكله، وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها، وإلى روح العمل لا إلى مادته، وتغليب اليسر على العسر، والتخفيف على الإعنات، و يبدو ذلك في مسلك الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أُمرنا أن نتبع سنتهم. أما الأقوال الجزئية، فهذه تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال. وهي تتغير بتغير موجباتها)[١٧٤].

أما المعاصرَة، فقد اعتبر أن أول مقوماتها هو: (أن نعرف العصر الذي نعيش فيه معرفة دقيقة وصادقة، فإن الجهل بالعصر، أو معرفته على غير حقيقته يفضي إلى عواقب وخيمة... ومن تمام معرفة العصر: معرفة الواقع المعيش،

---

[١٧٣] د. يوسف القرضاوي، الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص٤١.

[١٧٤] المصدر السابق ص٥٨.

الواقع المحلي (الوطني)، والواقع الإقليمي (العربي)، والواقع الإسلامي، والواقع العالمي. وهذه المعرفة لازمة لكل من يريد تقويم هذا الواقع أو إصدار حكم له أو عليه، أو محاولة تغييره.

وقد ذكر علماؤنا إن من واجب الفقيه أو المفتي أن يعرف الواقع قبل أن يفتي فيه بجواز أو منع، أو حل أو حرمة، فلا يكون كل بحثه وكل همه حول ما يجب أن يكون، مغفلاً ما هو كائن بالفعل، ولهذا قال العلامة ابن القيم: إن الفقيه هو من يزاوج بين الواجب والواقع)[١٧٥].

كما يرى هذا المفكر أن أهم مقتضيات المعاصرة هو: (العلم وتطبيقاته "التكنولوجية"، العلم بمعناه الحديث، القائم على الملاحظة والتجريب. العلم الطبيعي والرياضي، إلى آخر مدى وصلا إليه)[١٧٦]، مؤكداً أن الإسلام قد سبق العصر في التأكيد على أساليب الطريقة العلمية في معالجة الأمور، مثل الإحصاء والتخطيط والنظرة إلى المستقبل. فإذا (كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين، أو الغوغائيين من الناس، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة. فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي

---

[١٧٥] المصدر السابق ص٧٨-٨٣.

[١٧٦] المصدر السابق ص١٠٥.

الله عنه، قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: [أحصوا لي كَم يلفظُ الإسلامَ]..

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية، فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة. ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان... والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل..

وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاماً، لمواجهة أزمة غذائية عامة..)[١٧٧].

وكما أن الحاجة إلى التجديد الفقهي برزت عندما مرت الأمة والعالم بمتغيرات كبيرة، جعلت الجمود على آراء وفتاوى العلماء السابقين (في بعض الجوانب المستَحدَثَة) أمراً سهل لأعداء الإسلام التغلغل إلى الساحة، وتحجيم دور الفقه الإسلامي برمته.. كذلك فإن متغيرات عالم اليوم المتسارعة، والتي يستغلها الأعداء في ضرب الدعوة الإسلامية والروح الإيمانية بكل ما أوتوا

---

[١٧٧] المصدر السابق ص١١٢-١١٤.

من قوة، وبأسلحة متنوعة، تبرز ضرورة تمكين دعاة الإسلام من تجاوز العمل الآلي الجامد، إلى الفعل الأصيل الخلاق..

ولا يفهمنَّ أحد بأننا نريد تحول الدعوة الإسلامية إلى (تجمع فكري مجرد)، فالأمر ليس كذلك، لان الأصالة الفكرية والإبداعية التي نسعى إليها، لا تتحقق إلا من خلال الفاعلية الروحية والسير القلبي المنضبط، والممارسة المستمرة للعمل الدعوي في كل ميادينه الرحبة. فالمعاناة الدعوية الحقيقية هي التي توسع من أفق الدعاة بما يسمح لهم بان يبرعوا في الاجتهاد الدعوي وفقاً لقواعد المصلحة وسد الذرائع، وغيرها من القواعد الشرعية.

إن تحقيق الفعل الأصيل المبدع على كل مستويات العمل الإسلامي الجماعي، لا يمكن أن يتم إلا عبر إنشاء أسس العقلية الاجتهادية الأصيلة لدى الأفراد، ذلك (أن نقطة البداية لإيجاد صف قادر على تحقيق الأهداف هي في وجود الفرد الذي وضحت لديه الأهداف، ووضح لديه طريق تحقيقها، وامتلك القدرة على التلاؤم مع الصف..)[١٧٨].

إن صياغة نظرية متكاملة في الزاد الفكري والثقافي المطلوب لأبناء الإسلام (والدعاة منهم على وجه الخصوص) يتطلب أولاً ايجاد الأساس الرصين لها وهو بناء أسس العقلية الأصيلة المنظمة والمبدعة، مع مراعاة التدرج وقابلية الأشخاص. وإن نقصان القابليات الإبداعية المؤصلة لدى الدعاة، يفوت

---

[١٧٨] سعيد حوى، في آفاق التعاليم ، ص ٦ .

عليهم الكثير من الفرص، خصوصاً عند حصول متغيرات مهمة في ظروف العمل الإسلامي. والدعاة في ذلك بين إفراط وتفريط، صنف يندفع في كل فرصة يظنها سانحة دون مزيد من تدبر، وآخر متردد دائماً ينتظر التوجيهات والأوامر من قياداته (التنظيمية) قبل كل حركة..

إنّ سعينا لتحقيق التكامل على مستوى المجموع، لا ينبغي أن ينسينا أهمية تحقيق تكامل آخر على مستوى الداعية الفرد، وإن مدى حيوية وفاعلية المجموع يعتمد كثيراً على مقدار الحيوية والفاعلية التي يمتلكها الأفراد. لكل هذا فقد جاء نقد ذلك المفكر الإسلامي المعاصر[179] صريحاً لأخطاء طريقة في التربية مفضولة (عودت الداعية على انتظار التوجيه القيادي والدراسات النقدية والتعليمات التفصيلية، ودربته على أن ينشط من خلال المجموعة فحسب. ولم تتمكن تربيتنا وأساليبنا القيادية من إفهام كل داعية أنه يمكن أن يمثل نقطة بداية ونقطة نهاية في الدعوة بمفرده، وأن يوجه نفسه بنفسه إذا انقطع عنه التوجيه القيادي أو النشاط الجماعي بسبب المحن والكبت والإرهاب الذي يضطر الدعوة إلى الحذر الشديد. ولذلك شوهدت ظواهر الحيرة والفتور تسود الدعاة خلال الظروف الصعبة، مع أن بإمكان كل منهم أن يعمل عملاً بين الشباب ويربيهم على العبادة والأخلاق ويكسبهم الفقه والعلوم، ويظل يوسع دائرتهم حوله دونما اضطرار لموقف سياسي يستفز

[179] وهو الشيخ محمد أحمد الراشد

المراقب والحاكم، ويظل يواصل رعايتهم إلى يوم يتاح له فيه الأسلوب الشامل)[١٨٠] .

وبذلك يكون حيازة الصفات القيادية، بالقدر المناسب، لكل داعية مسلم أمراً مهما، لكي لا تضمر فاعليته، حتى عندما يكون في الساحة فرداً. وهذا ينبغي أن يتكامل مع تطوير الصفات الروحية والفكرية التي تبقى لروح الجندية في الإسلام ألقها، وتقي الداعية مصارع الفتن..

ولأن القوة القيادية لدى المسلم تجتمع من موارد ثلاثة: (صفات طبيعة وفطرية عالية يهبها الله تعالى لمن يشاء، من ذكاء وشجاعة وكرم؛ ثم الممارسة الخُلُقية والعبادية؛ ثم التثقف الكثيف في علوم الإسلام والتاريخ والسياسة..)[١٨١]، فيجب أن يتم الاهتمام برعاية هذه الموارد، وحسن تنظيمها، لكي يكون حيازة الصفات القيادية متوازناً ومتناسقاً، مع صفات الجندية لدى الداعية المسلم من ناحية، ومع القدرة الفعلية في الساحة الدعوية على التطور والاستيعاب من ناحية أخرى.

ورغم أن (لكل مرحلة جيلها وأهلها، وأن لكل حلبة رجالها، وأن هناك تفاعلاً متبادلاً بين كل ظرف والذين يعيشونه، يكفل استمرار التوالد

---

[١٨٠] محمد أحمد الراشد ، المسار ، ص ٣٥٩ .

[١٨١] المصدر السابق ص ٣٤٧





القيادي)[١٨٢]، فان (هذه النشأة التلقائية للعناصر القيادية لا تكفي، بل لا بد أن تصقلها معاناة مباشرة)[١٨٣]. وإن النشاط الكثيف الذي يتطلبه العمل الدعوي الإسلامي في بعض مراحله (قد يجعل معاناة جيل الدعاة الجديد كبيرة وذات آثار تربوية تحريكية جيدة، وقد يزداد تجربة، ويتعمق فهمه لطبائع الناس، ولكن علمه بالمقابل قد يكون أقل، وسكينته الإيمانية مختلطة بتشويش، وشمائله الخلقية يشوبها نقص، ويصعب عليه أن يربي نفسه بنفسه ذاتياً، وفي هذا من تعويق نشأة العناصر القيادية الكاملة ما فيه، مع أن استعدادها وافر جيد، ومع حصول نصف التربية اللازم لهم، المتمثل بالمعاناة والتجريب.

والمظنون أن حل هذا الإشكال كامن في اختصار وجوه النشاط العام، نوعاً وكماً، بغية توفير أوقات حرة للدعاة، يفيئون فيها إلى أنفسهم والى مربيهم من قدماء الدعاة ومستنبطي فقه الدعوة، فيكون هناك تعادل وتكافؤ بين متطلبات المسار المرحلي العام، ومتطلبات التربية الفردية)[١٨٤].

ولا شك أن حيازة الفكر القيادي، وبناء العناصر القيادية (التي تتكامل في داخلها روح الجندية)، لا يمكن أن تتم عبر عملية آلية (أو ميكانيكية)، يكون الداخل فيها نموذجاً مختاراً من أفراد المسلمين، والناتج عنها عنصراً

---

[١٨٢] المصدر السابق ص ٣٤٤

[١٨٣] المصدر السابق ص ٣٤٤

[١٨٤] المصدر السابق ص ٣٤٠ – ٣٤١





قيادياً!.. كلا ليس الأمر كذلك، ولكن العنصر القيادي ينشأ من خلال العمل الدعوي والممارسة الواقعية، والسير القلبي في طريق تزكية النفس من رعوناتها، والزاد الفكري والعلمي المنوَّع والرصين. ولا مناص من أن نحاول جميعاً توفير الظروف المناسبة لنشأة هذه العناصر القيادية بالحجم المناسب، ونعطي الأهمية لحيازة قدر معين من الصفات القيادية لكل واحد من الدعاة.

وهذه مسؤولية إسلامية جماعية ينبغي التصدي لها (فكما أن النجار لا يستطيع أن يعمل دون مطرقة ومنشار ومسمار، فكذلك القائد لا يستطيع أن يقود دون أعوان.. إن هذه القيادة قد يكون فيها من هو بارز، وأبرع من الآخرين، وله همة أبعد، وله حماسة أشد حرارة، ويمهر في الابتكار والتخطيط، فيحتل مركز الصدارة تلقائياً، ويكون رأس الجماعة، ولكن إن كان فرداً لا أعوان له فكأنه صاحب مهنة لا أداة له..)[185].

وبسبب شدة تعقيد الظرف الحالي الذي تمر به أمتنا، فلا بد من اذكاء التنوع المحمود في الأمر كله، فلا يمكن أن نكتفي بطبقة أو مجموعة قيادية (ليس لكل أعضائها إلا العلم الشرعي، إذ أنهم يصبحون آنذاك مثل جنود شجعان بلا تدريب، أو ليس لأعضائها إلا العلوم الأخرى، إذ يحل جفاف القلب ويسود الابتداع، أو كل أعضائها من المفكرين، فتضعف الإدارة

---

[185] المصدر السابق ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .



والمبادرات، أو كل أعضائها من المنفذين العمليين، فيضمر الفكر والاجتهاد. بل لا بد من تنويع المهارات، وترادف الاختصاصات، ليحصل التعادل والسير المتكافئ الجدي الساد لجميع الحاجات)[١٨٦].

وفي إطلالة راجية على المستقبل، ولغرض تحقيق وتوسيع الطبقة القيادية الدعوية، فقد قدّم مفكر الدعوة ذاك[١٨٧] مشروعه الذي أسماه (كليات أركان الدعوة)[١٨٨]، حيث اقترح (إنشاء كليات أركان الدعوة، بمدرسين ومحاضرين من أهل البلد ومن الزوار، وفق منهج شامل. وهي شبيهة بكليات أركان الجيوش التي تعد الفرد الضابط المتوسط الرتبة ليقود، فيعلمونه طريقة عمل كل أصناف الجيش وليس صنفه فقط، ويعلمونه الناحية السياسية وتأريخ بلده، يرويها له أهل الاختصاص... في مئات من المحاضرات التي تبني عقلية متوازنة لدى الركن، ومتكاملة، بعد أن كان محارباً فقط، ويخرج بمعلومات واسعة، مطلاً على أفق شامل، بحيث أنه إذا قاد معركة، عرف الموقف الشعبي المحتمل، ومقدار التجاوب السياسي، وحدود تحوير الإنتاج المدني إلى إنتاج حربي، وغير ذلك.

---

[١٨٦] المصدر السابق ص ٣٠٨- ٣٠٩ ، مع تصرف بسيط.

[١٨٧] وهو الشيخ محمد أحمد الراشد نفسه.

[١٨٨] وهذا هو المشروع الثالث الذي ذكرنا سابقاً أن فيه عناصر مهمة تنسجم مع عناصر من مشروع (إحياء الربانية) للشيخ سعيد حوى، ومشروع (الفطرية) للشيخ فريد الأنصاري.



كذلك دعاة الإسلام الذين اجتازوا مراحل البداية، لا بد من تمتين مستوياتهم بهذه الطريقة... فيتم تأسيس كلية مصغرة لأركان الدعوة في كل بلد أو بلاد متقاربة، تتناول تدريس فقه الدعوة بتوسع، ومكونات الوعي الحركي، و...، في مواضيع أخرى تزيد كفاية المجرب الوقور، ويقصى عنها المستعجل الذي يحب القفز إليها ويتجاوز المقادير الابتدائية الضرورية لكل داعية من العلوم القرآنية والحديثية، ومن العبادات ومكارم الأخلاق، وممارسة التجميع والتربية)[١٨٩].

وقد بين صاحب المشروع أنه ولأجل أن تؤدي هذه الكلية أو الكليات غرضها الذي أنشأت لأجله، فلا بد أن يعطى لطلابها تفريغاً جزئياً من أعمالهم الدعوية (أو التنظيمية حسب طرحه)، لكي يتوفر لهم الوقت اللازم للقراءات المنهجية المكثفة، التي تسير بالتوازي وتنسجم مع طبيعة الدروس التي تلقى عليهم، حيث يتم اختيار قائمة متنوعة من كتب التراث والكتب والدراسات الحديثة.. إضافة إلى مشاهدة الأفلام الحربية والوثائقية وما شابه. ومن ثم يكلف الطالب بإعداد بحث، يشبه بحوث الدكتوراه، يصلح للتوزيع الخاص أو العام، في موضوع يتعلق بالدعوة الإسلامية وما واجهته وتواجهه.

ثم انطلق حالماً في ذات الاتجاه ليصرح بأنه (مازالت تراود بعض قدماء الدعاة أحلام جميلة، نعمّا هي لو وجد مجال لتنفيذها: أن يتم اختيار ثلاثة

---

[١٨٩] محمد أحمد الراشد ، المسار، ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .



أو أربعة من الدعاة أصحاب شهادة الدكتوراه، في أي فن كان، في الشريعة أو القانون أو التأريخ أو علم النفس أو الأدب، وأن ينهوا دراستهم كطلاب في كلية أركان الدعوة هذه، ثم يفرغون -على نفقة الدعوة- ثلاث سنوات تفريغاً كاملاً.. ويجلسون معاً يومياً لساعات طويلة برياسة أمثلهم، أو بين أيادي المشايخ علماء القرآن والحديث والفقه واللغة، في بلدهم أو يرحلون مجتمعين للقائهم في أرجاء العالم الإسلامي، ويقرؤون في مجالسهم هذه مع أنفسهم أو بشرح المشايخ أمهات المصادر الإسلامية، حرفاً حرفاً، على طريقة القدماء الأولين التي انقرضت..

وبذلك يجمعون بين محاسن الطريقتين القديمة والحديثة في التعليم، مع حسن ثالث أكسبهم إياه وعيهم الحركي والسياسي، ويتجدد سمت طال اشتياق الناس إليه بعد (انقراض) الفقهاء والمحدثين اليوم، ويكونون هم علماء الدعوة ومفتيها وناقدي طرائقها التربوية ومناهجها التعليمية، ويقومون بدور أساسي في حفظ الأصالة الشرعية والصفاء العقائدي اللذين تقوم عليهما حركتنا قبل كل شيء آخر)[١٩٠].

[١٩٠] المصدر السابق ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .



ثم رد على من يمكن أن يعترض على تفريغ هؤلاء وتجريدهم للعلم، بان (الناظر لمصالح الدعوة مجتمعة يدرك التأثير القوي لوجود أمثال هؤلاء الدعاة العلماء، الذين هم أشبه بالموسوعات الحية، والغنم بالغرم)[١٩١].

ونحن وإن كنا اليوم لا ندري ما الذي تم تحقيقه من مشروع (كليات أركان الدعوة) هذا على أرض الواقع، لكن المراقب العام لوضع عموم الحركات الدعوية المعاصرة ومسارها يمكن له أن يخمن أن هذا المشروع (في غالب الظن) لم يجد صداه المطلوب على صعيد التنفيذ والتطبيق، لانشغال الحركات الإسلامية ومعاناتها المستمرة في سبيل الخروج من دوامة (ردود الأفعال) التي لم تزل تدور فيها..

ونحن نظن أن في مثل هكذا مشاريع إيجابيات كثيرة، لو أنها وجدت إلى عالم التطبيق سبيلاً، رغم ما نعتقده فيها من نقص وما نظنها تحتاجه من استدراك.. وظننا أن هذه التأملات والأحلام لو تتحققت، لكانت أهميتها كبيرة في معالجة الخلل الفكري والروحي، الذي شخصنا بعضاً من معالمه في هذا الكتاب، وإن هذه المعالجة لا بد منها في سبيل انطلاقة أشمل وأبعد تأثيراً في مسيرة العمل الإسلامي والدعوة إلى الله تعالى. وبعيداً عن كل التحزبات والتنظيمات، فإننا نرى أن صورة قريبة من هذا يمكن تحقيقه، بروح

[١٩١] المصدر السابق ص ٢٤٨ .



التكافل الجماعي بين بعض أهل الفضل والخير من المسلمين، وكما سيتم ايضاحه لاحقاً بإذنه تعالى.

الفصل الرابع عشر:

المُستدرَك على الحركات الإسلامية المعاصرة

بالرغم من أن كتابنا هذا يمكن اعتباره بجملته استدراكا على العمل الإسلامي المعاصر من حيث العموم، فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نجمع بشكل موجز شتات ما تفرق من ملاحظات لنا تشكل أساس هذا الاستدراك. وهناك نقاط تتعلق بعموم استدراكنا لا بد من تأكيدها، وهي:

- إن هذا (المستدرَك) إنما هو نصيحة في الدين، توجبها علينا الأخوة في الله تعالى، وإن اختلفنا في هذه المسألة أو تلك، وكما يقال (الاختلاف في الرأي لا يُفسد للود قضية).. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: (مَن وَعظَ أخاهُ بنصيحةٍ له في دينه، ونظرَ له في صَلاح دنياه، فقد أحسنَ صِلته، وأدّى واجبَ حقِّه، فاتقوا اللهَ، فإنها نصيحة لكم في دينكم فاقبلوها)[١٩٢].
- عندما نتحدث عن (الحركات الإسلامية المعاصرة) فإننا نعني عموم الجماعات والهيئات التي ترفع شعار الإسلام في عملها، الذي يتعلق بشأن الأمة العام من حيث العمق والاتساع، بغض النظر عن الاسم الذي تتسمى به سواء كان حزباً أو جماعةً أو حركةً أو هيئةً أو غير

[١٩٢] ذكره ابن الجوزي في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز.



ذلك.. المهم نحن نتحدث عن تجمع من المسلمين الذين يمارسون عملاً عاماً يتعلق بالشأن الدعوي الإسلامي (في أي من جوانبه)، ويستخدمون أطراً تنظيمية معينة لإدارة وتوجيه عملهم الجماعي هذا.

- ولا يعني هذا أننا نتهم حركة ما أو جماعة ما بأن كافة الأمور التي استدركنا عليها هنا هي موجودة فيها، ولكننا إنما نتكلم بشكل عام دون تخصيص أو تعيين، لأن الهدف الرئيسي من هذا الاستدراك هو الاسهام في بناء تصور واضح للتجديد المطلوب في مسار العمل الدعوي الإسلامي في المرحلة المقبلة، دون القدح بأحد أو الانتقاص من الجهود الكبيرة التي بُذلتْ مسبقاً.
- إنّ ذكرنا للنقاط التي نراها سلبية، لا يعني مطلقاً انكار وجود نقاط إيجابية عديدة بالمقابل، ولا يعني أبداً أننا ننكر فضل ذوي الفضل أو نتطاول على أهل العلم. لذلك فإننا لا نقول بنقض العمل الدعوي الإسلامي، ولكننا نقول بتجديده، باعتبار أن ذلك جزء رئيس من تجديد دين الأمة، الذي أخبر عنه نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وإن من يروم الاسهام في عملية التجديد الدعوي المقبلة (والتي نظن أنها أصبحت ضرورة ملحة الآن)، فلا بد له من أن يمر بالمراحل الخمسة الآتية:

١. ففي المرحلة الأولى فإن عليه أن يفهم الواقع الذي يحيط به جيداً، وما فيه من تصارع وتجاذب وتنافر، ويرسم خطاً تصورياً مستقبلياً لمآلات



كل هذا وتطوراته، مستعيناً بفهم عميق للسنن الألهية المودعة في هذا الكون، ومسترشداً بأحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو بجميع المؤمنين (على اختلاف الزمان والمكان) رؤوف رحيم، وخصوصاً ما يتعلق منها بتبدل حال الزمان وأهله، أو ما يسميه البعض (فقه التحولات) أو (سنن التغيير)، الذي هو مرتبط جذرياً بفقه (أشراط الساعة) الذي يشكل الدائرة الرابعة من أمر الدين، كما ورد في حديث سيدنا (جبريل) المذكور آنفاً..

٢. وفي المرحلة الثانية، ينبغي مقارنة المعطيات المستقاة من المرحلة الأولى مع الأنموذج الشرعي السليم لما ينبغي أن يكون عليه حال المسلمين، بالكيفية التي هي مظنة أن تَبيَضّ وجوههم (برحمته تعالى) يوم يقفون أمامه في يوم لا ريب فيه.. وبناءً على ذلك سيتم تشخيص الأمراض التي تفتك بجسد الأمة، والتي سببت انحراف مسار الأمة (قليلاً أو كثيراً) عن الصراط القويم، وترتيبها وفقاً لخطورتها ودرجة فتكها.

٣. أما المرحلة الثالثة، فستكون لتشخيص العلاج المناسب لكل داء، آخذين بنظر الاعتبار أولويات المعالجة، وتداخل الأعراض، والتاثيرات المتبادلة فيما بين الأمراض المختلفة..

٤. وأما المرحلة الرابعة فستكون هي التطبيق الفعلي للعلاج على مواطن الداء بما يقتضيه ذلك من (مستشفيات) و (أطباء) بدرجات وتخصصات مختلفة، و(كوادر طبية مساعدة) و (مستلزمات علاجية)



متنوعة، و(خطة عمل) يُرجى باتباعها أن نصل إلى توفيق الله تعالى لنا فيما تحملناه من أمانة.. وهذه مرحلة غالباً ما ستطول، (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (النساء: ١٠٠).

٥. والمرحلة الخامسة والأخيرة فستكون لتقويم المسار التجديدي لمراقبة سيره مع مرور الوقت (وهذا يكون بالتزامن مع المرحلة الرابعة)، واتخاذ الاجراءات المناسبة لتعديل أي انحراف (بالميزان الشرعي) يظهر.. حيث سيستمر الأمر هكذا، ليبلغ التجديد الدعوي مداه الذي أذن الله تعالى به، حتى يأتي زمان (بمشيئة الله تعالى) يكون لا بد فيه من بعثة تجديدية أخرى، يكمل فيها لاحقٌ دربَ من سبقه، وهكذا حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها..

والمتأمل لأحوال الأمة في عالم اليوم، ربما لا يجد وصفاً دقيقاً لها كمثل ذلك الذي ورد في الحديث النبوي الشريف عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قَصعتها، فقال قائل: ومن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاءِ السَّيل، ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوكم





المهابةَ منكم وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهنَ، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حُبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت)[١٩٣]..

والحديث لا يحوي وصفاً دقيقاً لحال أمتنا اليوم فحسب، بل أنه أيضاً يشخص لها الداء الدفين الذي كان سبباً لكل هذا (التداعي) وكل هذا الضعف، ألا وهو (حبّ الدنيا وكراهية الموت). وهذا الداء يعني أن الموازين قد انقلبت في عقل وروح المسلم في هذا الزمن، فبدلاً من أن تكون همته عليّة متعلقة بالله تعالى ونيل مرضاته والشوق إلى لقائه (على وفق مقضى الشرع الحنيف)، أصبحت همته متعلقة بالسفليّات من أمور الدنيا والحرص عليها..

إذاً (فحصوننا ليست مهددة من الداخل) فقط، بل أن العدو اخترق هذه الحصون، وهدم أسوارها، وبات يصول ويجول في عقر دارنا، يشوّه فطرتنا، ويسلبنا إيماننا، ويمسخ إسلامنا، ونحن عنه غافلون، وبالجري وراء سراب الدنيا لاهون.. فالأمر لم يعد يكفي فيه مجرد الوصول إلى كرسي حكم، أو منصب زائف زائل، ولا مجرد جمع مالٍ أو حشد أنصار لحملة إنتخابية، ولا مجرد بناء واجهة لا أصل لها أو (مرجعية) مقطوعة الجذور.. الأمر هو أن العدو استطاع الدخول إلى داخل كل مسلم (إلا من رحم ربي)، فقتل نفسه

---

[١٩٣] قال الشيخ الألباني أن هذا الحديث صحيح بطرقه وشواهده، حيث أنه ورد من طرق متباينة وأسانيد كثيرة، عن صاحبين جليلين هما ثوبان وأبي هريرة رضى الله تعالى عنهما، وقد رواه أبي داود في سننه، والإمام أحمد في مسنده، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، وغيرهم.



التوّاقة، وحذف من (قاموسها) السير في مراتب الإحسان، وكاد أن يطفئ فيها جذوة الإيمان، وبدأ بنقض عرى الإسلام فيها عروة فعروة..

ونحن هنا لا ننكر أهمية الدور الدعوي للمال أو السلطان، فهذا أمر لا تختلف عليه العقول، ولكننا نريد رصد حجم المرض في جسم الأمة، وبالتالي بيان أولويات علاجه.. ولأن المرض قد وصل إلى العمق القاتل، فلا بد لعلاجه من عودة إلى الأصول، واستمداد من الجذور، لا بد من عودة الدعوة إلى سمتها الأول، لبناء الإنسان بالإيمان والقرآن، ليكون مؤهلاً في مرحلة لاحقة (بإذنه تعالى) للنهوض ببناء العمران. ومن أراد العمران قبل بناء الإنسان فهو كالذي يقاتل بسيفٍ من خشب عدوَّه المدجج بالسلاح الفتاك..

وفيما يأتي رصد لأهم النقاط التي نستدركها على العمل الدعوي الإسلامي المعاصر، ونرى بموجب المستجدات العالمية الأخيرة، وفهمنا لواقع المسلمين في عالم اليوم وفق موازين الشرع، أن على الجماعات والحركات الإسلامية المتعددة (من حيث العموم) تجاوزها وتصحيحها. وهذه النقاط هي:

أولاً: ظهور التعصب الحزبي بشكل واضح لدى كثير من أتباع الحركات والجماعات الإسلامية، مما يناقض روح الأخوة التي ينبغي أن تكون سائدة بين عموم المسلمين، وفي هذا التعصب ما يقود إلى تفتيت الأمة واضعافها من ناحية، وإلى انحراف مسيرة تلك الجماعة أو الحركة التي انتشر التعصب



فيها من ناحية أخرى.. ومن الملاحظات المهمة في هذا الصدد أن كثيراً من الجماعات أو المؤسسات (بما فيها الإسلامية) قد تكون في بداية نشوئها بعيدة عن روح التعصب الحزبي، بفعل تأثير الثقافة والسلوكيات المنفتحة لبعض مؤسسيها.. ومع مرور الزمن، وتبدل الأجيال، يأتي إلى قيادة هذه الجماعات من لا يمتلك ألقَ أو روحية المؤسسين الأوائل، فيبدأ داء الحزبية بالظهور في جسد تلك المؤسسة أو الجماعة حتى يستفحل فيها. وعندها تبدأ المؤسسة بفرض ثقافتها (الحزبية) على أعضائها.. وهذا ما سيعيق ويقاوم أي تجديد أو تصحيح للمسار فيها.

ثانياً: إن وجود جماعات وحركات (إسلامية) متعددة في الساحة قد يكون أمراً طبيعياً من وجهة نظر معينة، لكن ما هو غير طبيعي أن تجازف أكثر هذه الجماعات بالإدعاء (أمام أعضائها أو أمام غيرهم) أنها هي وحدها على السنة، وكل ما سواها فهو على البدعة، ثم يتبادل أعضاء هذه الجماعات فيما بينهم تهم الضلال والانحراف والتخوين والتكفير، مما هو معلوم عند الناس اليوم. وهذا يربك عموم المسلمين (ومعهم بعض أهل الإنصاف من غير المسلمين)، ويجعلهم يزهدون بكل هذه الجماعات، بل ويضعف ارتباط كثير منهم بدينه بسبب سوء القدوات الذين انتصبوا أمامه لتمثيل الدين. فلا يتبقى للمسلم ملجأ سوى أن يفر بدينه منهم جميعاً، ولو أن يعض على أصل شجرة حتى يدركه الموت، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، فعن حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رضي الله عنه أنه



قال: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟.. قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟.. قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟.. قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟.. قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا.. قَالَ: نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟.. قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟.. قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ)[١٩٤]..

وهذا الحديث الصحيح يلقي بظلال خطيرة على الجماعات (الإسلامية) المنتصبة في الساحة الدعوية، فهي إن لم ترقب الله تعالى في عملها، وفي أتباعها، وفي عموم المسلمين، فستكون هي ذاتها فتنة تصد الناس عن الدين، فالحذار الحذار، من نقض الغزل بعد القوة، ومن سوء المنقلَب.

ثالثاً: إن أكثر الاختلافات (والصراعات أحياناً) التي حصلت بين الجماعات الإسلامية قد كان في جوهره لغايات دنيوية، تتعلق بالمواقف

---

[١٩٤] متفق عليه.

السياسية، من حشد الأنصار، أو ادعاء لحق (مرجعي) أو (تمثيلي) معين، أو ما شابه، وإن تم اعطاؤه بعداً دينياً من قبل البعض. وإذا أضفنا لذلك بعض الممارسات السياسية أو (الجهادية) غير الناضجة لهذه الجماعة أو تلك، والتي نجح من خلالها المحاربون للإسلام (من الداخل والخارج) بوضع كل من يدعو للإسلام (وليس الجماعات والحركات الاسلامية فقط) في خانة (الإسلام السياسي) تارة، وفي خانة (الإرهابيين والتكفيريين) تارة أخرى، وذلك لعزل الأمة عن دينها وعن من يعلمها أمر هذا الدين (وليس عن الحركات الإسلامية فقط)..

وهذه خطة جهنمية تعاضد عليها أبالسة الجن والإنس، لحرب الإسلام في عقر داره، ساهمت بعض الجماعات والحركات الإسلامية (من حيث تدري أو لا تدري) بنجاح جزء مهم منها، بسبب الأخطاء المنهجية والسلوكية التي ارتكبتها. ولأن حراب العدو أصابت جسد الأمة بهذا العمق، فلابد من تدارك ذلك بتجرد تام في الدعوة إلى الله تعالى وزهد بالدنيويات، والابتعاد عن التنافس المباشر عن الكراسي والمناصب فيها.. ولا مناص من إعادة وضع مسألة (الوصول إلى الحكم) إلى حجمها الطبيعي وفقاً لموازين الشرع، وأصول الدعوة، وسنن التغيير.

رابعاً: لقد ظن البعض أن مواجهة الباطل تقتضي استخدام نفس نمط الأسلحة التي يستخدمها هو (هكذا بشكل يكاد يكون استنساخاً تقليدياً أو مباشراً). ولأن أعداء الإسلام يستخدمون منهجاً منظماً ودقيقاً في حربه،

فقد توجهت بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة إلى تبني الأسلوب التنظيمي المفصّل في عملها، بل والمبالغة في ذلك أحياناً، رغم أن هذا الأسلوب مقتبس من الأحزاب غير الإسلامية، وتعود جذوره إلى الحركات السرية والباطنية.. وقد بدا للوهلة الأولى أن هذا الأسلوب التنظيمي (ولا أقصد المنظَّم) فيه من الإيجابيات ما يفوق سلبياته بكثير، خصوصاً أنه كان نقلة غير مألوفة في مسيرة العمل الدعوي الإسلامي.

لكن ومع مرور الوقت، وبدء الحركات والجماعات التي تبنته بدخول مرحلة من الشيخوخة، بدأت سلبيات كبيرة تظهر لأسلوب العمل هذا، وصار من الواضح أنه غير مؤهل لمواجهة التحديات الكبرى الأخيرة (وقد قدّمنا القول في ذلك مسبقاً). وإذا استرجعنا ما ذكرناه آنفا من امكانية (أو احتمالية) اختراق أي تنظيم (كبير) في بلادنا (سواء كان إسلامياً أو غير ذلك) من قبل أعداء الإسلام، بسبب تقدمهم المعلوماتي والإستخباري، فسيكون من باب المجازفة الكبرى، الاستمرار بهكذا أسلوب في عمل غايته رضوان الله تعالى.. فالله تعالى هو الغني عنّا وعن العالمين جميعاً، وهو اللطيف بعباده، وحاشاه أن يوردهم موارد الفتنة والهلَكَة. وأكرر هنا أنني لا أتهم جماعة أو تنظيم ما بأنه مخترَق، ولكن وجود هذه الاحتمالية النسبية تكفيني في هذا الطرح.

ويمكن للقارئ أن يلاحظ أنني هنا قد سلكت مسلكاً عقلياً (استقرائياً واستنتاجياً) بحتاً في رؤيتي لضرورة تجاوز الغلو التنظيمي والحزبي الحاصل في

العمل الإسلامي، ولم أتخذ مسلكاً نقلياً (معتمداً على النصوص الشرعية) في ذلك. والسبب في ذلك هو أنني لا أريد الخوض في جدل فقهي قد خاضه غيري من قبل.. فإذا جئنا إلى الأحاديث النبوية الشريفة بشأن قضية (التحالف في الإسلام)، وعمدتها الحديث الذي رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا حِلْف في الإسلام وأيما حِلْف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة)[195].. ومنها أيضاً حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته: (أوفوا بحِلْفِ الجاهلية فإنه لا يزيده – يعني الإسلام – إلا شدة.. ولا تحدثوا حِلفاً في الإسلام)[196]. فقد اختلف العلماء في نوعية النسخ الوارد في الحديث، أهو نسخ عام لكل حلف أم هو مقيد بنوع خاص؟.. واستدل القائلون بالمنع مطلقاً بالحديث نفسه، فظاهر الحديثين مطلق المنع، وقالوا بأنه ليس هناك ما يخصص هذا الإطلاق.. وقالوا عن حديث أنس رضي الله عنه في هذا الباب[197] أن كلمة (حالف) التي وردت فيه، إنما تعني (آخى) فقط. وقد نقل المباركفوري في تحفة الأحوذي عن القاري أنه قال: (فإن الإسلام أقوى من الحلف فمن استمسك بالعاصم القوي استغنى عن العاصم الضعيف).

---

[195] رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه.

[196] أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح.

[197] عن عاصم بن سليمان الأحول قال: قلتُ لأنس: أبلغك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا حِلْفَ في الإسلام)؟ فقال: قد حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار في داري.. أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود.

كما أن هناك خلاف معلوم بين المعاصرين في الاستدلال بهذا الحديث على النهي على (التحزب) أو إنشاء (حزب) في الإسلام، بالمعنى السياسي الحديث للكلمة.. ورغم أنني أظن (والله تعالى أعلم) أنه يصعب الجزم بقطعية استدلال من هذا النوع هنا، إلا أن في الحديث ظاهر حجة لمن قال بذلك..

وفي شأن قريب من هذا فأني قد وجدت مؤخراً أن أحد مفكري الحركة الإسلامية المعاصرة[١٩٨] قد نشر في موقعه على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) دعوة (مؤصلة ومفصلة) إلى تغيير أسماء الأحزاب الإسلامية في العالم الإسلامي، ذكر فيها أنه بناء على تجربته الشخصية الطويلة (وعلى دراسة التجارب المشابهة في العالم الإسلامي في تأسيس أحزاب سياسية باسم الإسلام الصريح، انتهيت إلى أنه لا يجوز أن يسمى حزب باسم (الحزب الإسلامي)، وإنما يمكن أن تؤسس أحزاب بأسماء معاصرة وبمرجعية إسلامية، أي أن تلك الأحزاب يمكن أن تصوغ مناهجها لتحقيق التنمية والتقدم دون مخالفة الأصول والقواعد والمقاصد العامة في الشريعة الإسلامية).. وقد أورد عدة أدلة لرأيه هذا، نختصر منها الآتي:

- (إن حمل اسم الإسلام في صراعات زماننا المعقد، والشاردة عن الدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً، تبنى عليه مآلات خطيرة جداً، لأن الإسلام

---

[١٩٨] وهو د.محسن عبد الحميد، في مقالة منشورة على موقعه الألكتروني بتأريخ ٢٠١٠/١٢/٢٥م

وحي إلهي، فتعريضه إلى الاجتهادات البشرية اليومية من لدن حزب سياسي في إطار تلك الصراعات فيه ضرر كبير عليه. إذ يفهم الناس أن تلك الاجتهادات هي الدين نفسه، لأنها صادرة من حزب إسلامي، مما يؤدي الأمر إلى الاستهانة بهيبة الإسلام وفقدان الاحترام لها في نفوس الناس من خلال الصدامات الفكرية المستمرة المتشابكة، ومن المعلوم أن مراعاة المآلات في تنفيذ الحكم الشرعي من القواعد المعروفة في مقاصد الشريعة.

- إن الإسلام يجب أن يبقى سقفاً عاماً لجميع المسلمين مهما اختلفت الظروف الزمانية والمكانية، والأحزاب العلمانية تقر بذلك من حيث العموم، على الرغم من تجاوزاتها لأحكام الشريعة جهلاً أو قصداً، فالصراع السياسي اليومي لا يوقف تلك القضية عند العلمانيين بل يؤججها.
- إن إدعاء أي حزب إسلامي بأنه إسلامي- لا سيما في زمن السقوط والفتنة، فيه نوع استعلاء على المسلمين الآخرين، كأن قادة الحزب يقولون للناس أنتم لستم مسلمين، دون أن يقصدوا ذلك مما يؤدي إلى ردود أفعال عند كثير من المنتمين إلى الأحزاب الدنيوية ويحملهم على عداوة الإسلام نفسه تدريجاً في حومة الصراعات المصلحية من حيث يقصدون أو لا يقصدون.

- إن الأخطاء السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي يقع فيها حزب إسلامي ويرفضها الآخرون نتيجتها تسري إلى الاعتقاد بأن الإسلام لا يستطيع رفد المجتمع بالحلول الناجعة.
- إن الفهم المنحرف لكثير من الجماعات والأحزاب الإسلامية، من حيث عدم الرسوخ في فهم الشريعة مع عدم التعمق في متغيرات الحياة المعقدة ينتهي في كثير من الأحيان إلى اصطناع الصدامات الدموية، بل إلى إرهاب المجتمع كله. وقد أساء هذا المنهج السقيم إلى سمعة تلك الأحزاب وبالتالي إلى سمعة الإسلام.
- إن المنتمين إلى أي حزب في هذه الدنيا هم أفراد من مجتمعهم، فمنهم المخلصون لمبادئهم في خدمة أهداف شعبهم، وهم قلة دائماً ومنهم النفعيون والانتهازيون الذين يستغلون فرصة وجودهم في الحزب لاقتطاع المنافع والتزاحم على المكاسب، ولا يمكن أن يستثنى أي حزب إسلامي من ذلك، إذ هو يحمل بعض الأمراض البشرية، فالنفعية والانتهازية والتدافع على المصالح لا يندر بين المنتمين إليه، وقليل من الخبث الباطن والظاهر يفسد كياناً كاملاً.

ولكي نبعد الإسلام النظيف الصافي عن مثل هذه المطاعن، لا يجوز لنا أن نعرض اسمه الشريف إلى الهجوم تحت مظلة تسمية الأحزاب بالإسلامية في الوقت الذي نستطيع أن نصل إلى ما نريد بغير هذا الطريق، لا سيما في زماننا المضطرب..



ونستطيع أن ندلل على ذلك ببعض القواعد الشرعية مثل: دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة. فالمفسدة التي حصلت وتحصل من إطلاق اسم الإسلامي على حزب سياسي أكبر بكثير من المصلحة التي نحققها من وراء ذلك.. ومثل: المقارنة بين مصلحتين أيهما أولى بالأخذ، فمصلحة تأسيس الأحزاب بأسماء مدنية وبمرجعية إسلامية أكبر بكثير من مصلحة تسمية تلك الأحزاب بالإسلامية.. وكذلك قاعدة النظر بين مفسدتين أيهما أولى بالترك، فلا شك في رأيي أن المفسدة الكبرى التي تنتج من تسمية الأحزاب بأسماء إسلامية أولى بالترك، هذا زيادة على ما ذكرنا من المآلات الخطيرة التي تترتب على ذلك)[١٩٩]..

ورغم أنه قد أكد في مقالته على أنه لا يريد بل ويرفض أن يلغي (التنظيمات الإسلامية في عصر التنظيمات)، كما ذكر، فإن الدلائل التي أوردها نستطيع إضافتها نحن إلى ما طرحناه سابقاً لتأصيل وتبرير رميتنا الأبعد لتجاوز قيود أسلوب (التنظيمات) النمطية (الكلاسيكية) في عصر التجديد والابتكار.. وبهذا تكون قد جمعنا أدلة وإشارات مختلفة، هي كالشواهد يقوي بعضها بعضاً، ليكون من مجموعها مستنداً قوياً لخطوة التجديد المقبلة، بإذنه تعالى.

---

[١٩٩] نقلاً باختصار عن الموقع الألكتروني للدكتور محسن عبد الحميد.



خامساً: إن الإسلام يسعى لتنمية القدرات والطاقات المختلفة للإنسان على مستوى الفرد ومستوى المجموع، وذلك لغرض القيام بواجب الخلافة في الأرض على وجهها الشرعي. إلا أن الذي استقر عليه حال أكثر الحركات الإسلامية العاملة في الساحة هو المبالغة في التركيز على معاني التربية الجماعية والعمل الجماعي، إلى درجة كاد أن يضيع فيها الاندفاع والاشعاع الذاتي المنضبط لدى الافراد..

وهذا يعود إلى الآلية الميكانيكية (أو أنموذج الآلة) الذي لا زالت تتبناه الحركات الاسلامية من حيث تشعر أو لا تشعر (على الأقل من الناحية العملية)، رغم كونه أصبح أنموذجاً قديماً فاقته نماذج أخرى في الهندسة والإدارة.. والمشكلة الكبرى فيه (من حيث العقل والنقل) هو أنه يضع قيوداً كثيرة على معظم الأفراد الذين يعملون وفقاً له حيث يجعلهم يتصرفون بشكل شبه آلي، ينتظرون دوماً الأوامر والتوجيه من قياداتهم، فيفقدون زمام المبادرة وقدرة الإبداع.. وفي نهاية المطاف، يفقد أكثرهم حريته الفكرية (ضمن حدود الشرع) وطاقته الروحية الكامنة، فينكفأ على نفسه حسيراً، إذا تعطلت الآلية الجماعية التي كانت تحركه، لسبب من الأسباب. وهذا الأمر ذاته هو ما يجعل عموم الحركات الإسلامية المعاصرة غير قادرة على تفعيل أو استيعاب أكثر الأفراد عبقريةً، ممن لا يستطيعون العمل بتلك الآلية (أو الميكانيكية)، فيفوت على المسلمين خير كثير.



سادساً: ونتيجة للثقافة (المؤسَّسية) الصارمة التي تتبلور مع مرور الوقت ضمن الحركات والجماعات الإسلامية، تحصل لدى أفرادها (وقياداتها) حالة من الانغلاق الفكري على الذات، والترفع عن سماع رأي أو نصيحة الآخرين، في مفارقة كبرى يحكمها الفهم الخاطئ لقضية (استعلاء المؤمن). وينتج عن هذا فقدان الصلة الحقيقية الفاعلة بين أفراد هذه الجماعة أو تلك وبين بقية المسلمين.. ويتفرع من هذا أن يشيع في أفراد كل حركة أو جماعة التعصب والتمسك الجامد بآراء علمائها ومؤسِّسيها ومفكريها، رغم أن ما قدموه يقع ضمن دائرة الاجتهاد والفكر الاسلامي، القابل للتغيير مع تغير الوقائع والأحوال، والذي يقبل الخطأ والصواب.

سابعاً: بقاء ظاهرة الضعف العلمي والفكري (بالعمق والشمول الذي ذكرناه في موضوع أصول الفقه السياسي) باديةً في عموم أفراد وقيادات أغلب الجماعات والحركات الإسلامية، رغم كل ما كُتب عن الموضوع لحد الآن. وكان من نتائج هذا الضعف الانجراف المتهور في الابتعاد عن المنهج الرصين للسلف في التشديد في قضية الخروج على السلطان (وإن كان ظالماً)، وذلك تأثراً بآراء بعض الفرق الإسلامية (التي خرجت عن منهج أهل السنة والجماعة) وبعض الأحزاب العلمانية، وتسرعاً في قراءة ناقصة للواقع العالمي المعقد.. مما سبّب فتناً وزاد في محنة الأمة ألماً.



ثامناً: ولعل الجانب الأكثر خطورة في هذا الاستدراك برمته هو الضعف والهزال الروحي الذي يمر به عموم المسلمين اليوم، ولم ينجُ منه عموم أفراد الحركات والجماعات الإسلامية ولا حتى قادتهم، والمشتكى إلى الله تعالى.. فمن انتصب للدعوة إلى الله تعالى، فهو يحمل نفسه مسؤولية (ضمنية) عن سبل الارتقاء الروحي والإصلاح القلبي لعموم الأمة، وهو أولهم..

ومن أكبر النقص الذي رافق عموم العمل الإسلامي المعاصر هو عدم قدرته على صياغة نظرية متكاملة أو رؤية واضحة لمنهج التربية الروحية في هذا العصر، رغم أن هذا هو من أخطر المواضيع في حياة الدعاة على وجه الخصوص.. فبدون سمو الروح وصلاح القلب الذي ينتج عنهما الإخلاص لله تعالى وحده، يصبح العمل كله هباءً منثوراً.

وبتقديري فإن أنموذج (الخوارج) الذي ذمّه رسول الله صلى الله عليه، وحذر منه، في روايات عديدة، يبغي أن يقلق منام كل عامل للإسلام مخافة أن يقع هو في مسلكهم الضال، أو يشابههم في صفة من صفاتهم الذميمة. فقد جاء في الحديث الصحيح عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: إذا حدَّثتُكم عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلأن أَخِرَّ من السماءِ أحبُّ إليَّ من أن أقولَ عليه ما لم يقُلْ. وإذا حدَّثتُكم فيما بيني وبينكم فإنَّ الحربَ خَدعةٌ. سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: (سيخرجُ في أخرِ الزمانِ قومٌ أحداثُ الأسنانِ، سُفهاءُ الأحلامِ، يقولون من خيرِ قولِ البريَّةِ. يقرأون القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهم. يمرُقون من

الدِّينِ كما يمرقُ السَّهمُ من الرَّميَّةِ. فإذا لقيتُموه فاقتُلوهم. فإنَّ في قتلِهم أجرًا لمن قتلهم عند اللهِ يومَ القيامةِ)[200]. وفي رواية صحيحة أخرى عند غير الإمام مسلم: (لا ترونَ جهادَكم مع جهادِهم شيئًا، ولا صلاتَكم مع صلاتِهم شيئًا، ولا صيامَكم مع صيامِهم شيئًا، يمرُقونَ منَ الدينِ كما يمرقُ السهمُ منَ الرميةِ)..

فأي منهج ضال، وأي مسلك بائر سار به هؤلاء الخوارج، حتى استحقوا كل الذم وكل هذا السخط من الله ورسوله، وهم يكثرون من الصلاة والصيام، وقراءة القرآن، بل ومن الجهاد!.. وفي هذا نذارة شديدة لكل داعية مسلم أن يكون عمله على المنهج القويم لئلّا تزل قدم بعد ثبوتها.. ونحن لا نتهم أحداً بشيء من هذا المسلك والعياذ بالله تعالى، ولكننا أردنا أن نؤصل بمثل واضح لأهمية التزكية والتربية الروحية (ومدارها الإخلاص) لمن انتصب للعمل في سبيل دينه..

فعندما يجد الداعية المسلم أن عمله لم يؤت ثماره المرجوة، فإن أول ما عليه هو أن يتهم نفسه بالتقصير، ويفتش في قلبه عن وجود سر الإخلاص لله تعالى فيه. وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: (لا ينفعُ القلبَ إلّا ما خرجَ مِن القلبِ)[201].. وكم من أعمال إغاثية ومساعدات مختلفة قامت بها جماعات إسلامية، وما وجدت لها قبولاً أو أثراً في نفوس كثير من الناس.

---

[200] رواه الإمام مسلم في صحيحه.
[201] ذكره ابن الجوزي في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز

ووجود خلل في المفاهيم عند بقية الناس أمر لا مناص منه، والدعاية المضادة لا مهرب منها، ولكن ألا يمكن أن يكون تخليط النية وفقدان حقيقة الإخلاص لدى تلك الجماعات هو من أسباب ذلك؟! فالمسلم إنما يطلب بعمله وجه الله تعالى، لا رضا الناس، ولكن الإخلاص لا بد أن تظهر ثمرته عاجلاً أو آجلاً.. وفي هذا ميزان دقيق حساس يعرفه أصحاب القلوب، ولا ينفع كثرة الكلام فيه.

وقد دفعت بعض الحركات والجماعات الإسلامية ضريبة باهظة بسبب الهزال الروحي الذي ساد فيها على مستوى المجموع، وعلى مستوى القيادات، فكان لتشتت القلوب في غير محبة خالقها جل وعلا، أثره الواضح في تضييع (الفراسة الايمانية)[٢٠٢] الضرورية لإدراك التحولات المضطربة للمواقف الدولية، فوقعت تلك الجماعات والحركات بسهولة في فخاخ الاعداء، لأنه لم تتمكن من امتلاك الميزان الوهبي الذي ذكره الله تعالى في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً..) (الأنفال:٢٩).

---

[٢٠٢] عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لله عباداً يعرفون الناسَ بالتوسُّم)، رواه الطبراني في "الأوسط"، وابن جرير الطبري في "التفسير". قال الهيثمي في "مجمع الزوائد": رواه البزار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وحسَّنه الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة".. كما أخرج الإمام الحافظ ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اتقوا فراسةَ المؤمن، فإنهُ ينظرُ بنور الله عز وجل). وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تحسينه، رغم أن هناك من خالف في ذلك.

تاسعاً: ومما جازفت به كثير من الجماعات والحركات هو المغالاة في قضية السمع والطاعة، والبيعة (شكلاً أو مضموناً)، لقادتها وأمراءها. ورغم أن موضوع السمع والطاعة، في المنشط والمكره، في غير معصية الله تعالى، أصلها معلوم من السنة النبوية المطهرة، إلّا أن ممارسة البيعة أو شكل من أشكالها لشخص ما يقود تلك الجماعة، وهو ليس أميراً ظاهراً اجتمع حوله الناس وله سلطة وإمارة فعليّة على الأرض، فيه من مخافة الفتنة ما فيه.

وفوق ذلك إذا ما قلنا أن أسلوب أخذ البيعة هذا قد تم نقله عن بعض مشايخ السلوك والتصوف، الذين يأخذون (العهد) من مريديهم بأسانيدهم المعروفة في هذا الشأن (وإن كان بعض أهل الحديث لا يسلّمون لهم بصحة اتصال هذه الأسانيد)، فإن قيام قائد (أو أمير) في جماعة إسلامية معاصرة معينة بأخذ البيعة (أو شكل منها) من أتباعه يعني بالضرورة زعمه لمقام الوراثة المحمدية، بلسان الحال، إن لم يكن بلسان المقال. وهذا يحتاج إلى دليل وبرهان..

ومجازفة أخرى مشابهة (تحتاج إلى دليل وبرهان) هو قيام البعض بتقديم أنفسهم لمناصب القيادة داخل تنظيماتهم، أو مناصب الدولة والحكومة في الانتخابات وما شابه، من غير بناء إيماني وروحي عميق. فيعرضون أنفسهم على الفتنة مستشرفين، فلا يكادون يثبتون لها، ويصبحون سُبّة على الدين. وينبغي أن لا يفوت أحد أن القياس على حالة سيدنا يوسف عليه السلام في تصديه للمنصب، مثلاً، هو قياس مع الفارق. فسيدنا يوسف عليه

السلام نبي، ونفسه مزكاة، ومقامه أعظم من أن يفتنه منصب أو جاه. أما غيره من أمثالنا فلا..

وقد وردت أحاديث نبوية عديدة في النهي عن طلب الإمارة أو الحرص عيها. ومنها عن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عبدالرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإن أُعطيتها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنتَ عليها)[٢٠٣]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنِعْم المرضعة وبِئْست الفاطمة)[٢٠٤]. وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومي فقال أحد الرجلين: أمِّرنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله، فقال: (إنا لا نوليِّ هذا من سأله ولا من حرص عليه)[٢٠٥].. ورغم أن في كلام العلماء حول هذه الأحاديث مخرج لمن كان أهلاً للأمر (مع بقاء مشكلة تقرير هذه الأهلية)، أو من تعين عليه، فإن المسلم الفطن لا يجازف بدينه وآخرته طواعية.. ومن راقب انتكاسة كثير من (الإسلاميين) بعد وصولهم إلى المناصب، يدرك خطورة مثل هذه المجازفة.

---

[٢٠٣] متفق عليه
[٢٠٤] أخرجه الإمام البخاري
[٢٠٥] متفق عليه



عاشراً: هناك خلل لا يخفى في فقه الأولويات لأغلب الجماعات والحركات الإسلامية العاملة، من الناحية التطبيقية في الأقل. فرغم أن أكثر هذه الجماعات متفق على ضرورة بناء الإنسان المسلم قبل الانتقال إلى بناء الدولة (مرحلة العمران) بناء على المنهج النبوي والسيرة المحمدية، إلا أن ضوابط بناء الإنسان وعلامات الانتقال إلى مرحلة العمران كانت مضطربة لدى أكثرها.. لذلك حاول بعضها طي المراحل طياً، على غير (هدىً منهاجيّ). وبعد سنين طوال، وتجارب عديدة، لازلنا نعتقد بأن علينا أن نحسن بناء الإنسان، من جديد.. فالجماعات التي تسرعت ورشحت نفسها لمهام الحكم والدولة، دون بناء ناضج لأفرادها ومجتمعاتها، أثقلت نفسها بما هو فوق طاقتها، فأضاعت في شهور ما استغرق بناؤه سنين طوال..

حادي عشر: ومما تؤاخذ به الحركات الإسلامية المعاصرة هو عدم تمكنها من انضاج خطاب متفاعل مع الآخر. فكثيراً منها وصل إلى ما يشبه الانغلاق في مجتمعاتها، بل أن بعضها بلغ مرحلة التقاطع مع تلك المجتمعات.. وتبقى مسألة عدم قدرة هذه الحركات والجماعات على تطوير لغة عالمية للإسلام، تخاطب بها العالم غير الإسلامي، رغم الانفتاح العالمي الكبير وثورة الاتصالات والمعلوماتية، أمراً مستغرباً جداً.

فقضية الحكام والطواغيت، الذين كانوا في الماضي يشكلون حصوناً بوجه تبليغ دعوة الإسلام إلى أقوامهم، فكان لا بد من محاربتهم لأجل ذلك



(وليس لغرض فرض عقيدة الإسلام بالقوة أو بالإكراه على أحد)[٢٠٦]، قد تغيرت كثير من معالمها في هذا الزمن.. وظهرت قنوات ووسائل لنشر وتبليغ دعوة الإسلام لم تكن معروفة في السابق، يجدر بالمسلمين الاستفادة منها بشكل منهجي فاعل..

ولو استمعنا إلى بعض الخطب التي يدلي بها (المبشرون) أو (القساوسة) النصارى في أوروبا وأمريكا، لوجدنا أن جلها يدور حول مفاهيم الحب والسكينة الروحية والطمأنينة النفسية، وسبل الوصول إليها (من وجهة نظرهم). فهم يدركون الفراغ الروحي والصراع النفسي اللذين يعانيهما عشرات بل مئات ملايين البشر في عالم اليوم، ويحاولون الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم من هذا المدخل. ولو أن المسلمين فهموا ذلك، وقدموا أنموذجاً نظرياً وتطبيقياً متكاملاً لبناء الروح وتزكية النفس، بلغة عالمية واضحة، لأوصلوا (بإذن الله تعالى) الإسلام إلى قلوب ملايين الحيارى، ولسقوا به بقاعاً عطشى.

ثاني عشر: وأخيراً فلم تتمكن الجماعات الإسلامية المعاصرة من الاستفادة الكافية من الثروة الحديثية للأمة في مجال (الفتن والتحولات) و (علامات الساعة وإرهاصاتها) للدخول بعمق في الدراسات (الإستراتيجية المستقبلية). ومن المفارقات أن تتجه قوى عالمية كبرى إلى هذا النوع من الدراسات

---

[٢٠٦] قال تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ..) (البقرة: ٢٥٦)

معتمدة في جوانب مهمة منه على موروثها العقائدي المنحرف، ليصل إلى بعضها إلى أفكار (نهاية التأريخ) ونظرية (صدام الحضارات) ذات الخطل الواضح؛ في حين يقصر المسلمون في فهم أحاديث الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم والاستنارة بها. فالجماعات الإسلامية المتعددة ليست فقط بعيدة عن انضاج (فلسفة إسلامية للتأريخ) أو (فلسفة إسلامية للحضارة)، بل أن بعضها يعاني من فشل منهجي في وضع الأحاديث النبوية (التي تتحدث عن الوقائع المستقبلية) في سياقها الزمني المناسب. وعلى سبيل المثال فإن جمع الأحاديث والروايات ذات العلاقة مع بعضها، يرجح كثيراً أن الخلافة التي (تكون على منهاج النبوة)[٢٠٧] ومؤازة الحجر والشجر للمسلمين في حربهم مع اليهود[٢٠٨]، والتي وردت في الصحاح، إنما ذلك سيكون في سيدنا الإمام المهدي عليه السلام وليس قبل ذلك.. ومع هذا فإن كثيراً من الدعاة لا زالوا يتحدثون عن أمثال هذه الأحاديث ويضعونها خارج سياقها الملائم.

---

[٢٠٧] تم إيراد هذا الحديث آنفاً

[٢٠٨] ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه يهودي: تعال يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله)، وفي لفظ مسلم: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد).. قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري": وفي رواية لأحمد من طريق أخرى عن سالم عن أبيه: (ينزل الدجال هذه السبخة -أي خارج المدينة- ثم يسلط الله عليه المسلمين فيقتلون شيعته، حتى إن اليهودي ليختبئ تحت الشجر والحجر، فيقول الحجر والشجر للمسلم: هذا يهودي فاقتله).



وينبغي أن يلاحظ أن كلامنا هنا لا يصح فهمه بأي حال على أنه دعوة للتقاعس عن الدعوة إلى الله تعالى أو لترك العمل لأجل الإسلام، بل على العكس، ولكننا نريد وضع العمل والجهد في المسار الصحيح، بعيداً عن التشتت، والعواطف الساذجة.. كما أننا ومع إيماننا بما جاء من أخبار صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حوادث آخر الزمان؛ غير أننا لا نسلّم لما يقوم به البعض من اسقاط متسرع هذه الأخبار على واقع معين، وتأريخ محدد، لم تنص عليه تلك الأخبار صراحة..





الفصل الخامس عشر:

مسار التجديد الدعوي القادم

جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)[٢٠٩]. (وقد تنوعت عبارات العلماء في تعريف التجديد، وتعددت صيغهم لكنها لم تخرج عن محاور ثلاثة:

- المحور الأول: إحياء ما انطمس واندرس من معالم السنن ونشرها بين الناس، وحمل الناس على العمل بها.
- المحور الثاني: قمع البدع والمحدثات، وتعرية أهلها وإعلان الحرب عليهم، وتنقية الإسلام مما علق عليه من أوضار الجاهلية، والعودة به إلى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.
- المحور الثالث: تنزيل الأحكام الشرعية على ما جد من وقائع وأحداث، ومعالجتها معالجة نابعة من هدي الوحي.

[٢٠٩] رواه أبو داود، وغيره، وصححه السخاوي والألباني، وقال السيوطي في مرقاة الصعود: (اتفق الحفاظ على تصحيحه، منهم الحاكم في المستدرك والبيهقي في المدخل، وممن نص على صحته من المتأخرين الحافظ ابن حجر).





ومن مجموع هذه التعريفات للتجديد، يمكننا صياغة تعريف جامع له على الشكل التالي: **التجديد هو إحياء وبعث ما اندرس من الدين، وتخليصه من البدع والمحدثات، وتنزيله على واقع الحياة ومستجداتها.**

ومن هذه التعريفات نستنتج أن كل المحاولات التي تهدف إلى تطويع الدين وجعله مسايراً أو تابعاً لما فرضته قوى الكفر بسطوتها من أعراف وقيم غريبة ومنكرة، تحت شعار التجديد والتطوير والاصلاح، ليست من الدين في شيء.. هذا وإن الذي يقع عليه التجديد هو علاقة الأمة بالدين، وفكرها المتفاعل مع نصوصه، وليس الدين نفسه، إذ هناك دين وتديّن. أما الدين فهو المنهج الألهي الذي بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنزل به كتابه، من عقيدة وعبادة وأخلاق وشرائع. فالدين بهذا المعنى، ومن حيث أسسه وأصوله، ثابت لا يقبل التغيير ولا التجديد.

أما التدين فيعني الحالة التي يكون عليها الناس في علاقتهم بالدين، فكراً وشعوراً، عملاً وأخلاقاً. وفي هذا المعنى يقال "فلان ضعيف الدين أو قويّه". فهذه الحالة هي التي يقع عليها التجديد، وتقبل الإصلاح والتغيير.. ولهذا أضاف كلمة الدين إلى الأمة في قوله صلى الله عليه وسلم [مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا]، بمعنى تجديد دين الأمة، وليس تجديد الدين نفسه)[٢١٠].

[٢١٠] عدنان محمد أمامة، التجديد في الفكر الإسلامي، مع الاختصار وتصرف بسيط





وهذا الحديث هو من البشارات العظيمة بحفظ هذا الدين إلى يوم القيامة، وهو من تجليات الرحمة الإلهية الكبرى بهذه الأمة.. وبعيداً عن اختلاف العلماء رحمهم الله تعالى في التحديد الدقيق للمراد من (الرأس) بهذا الحديث وما إلى ذلك من تفريعات، فإن الحديث (يشير إلى أن نهاية القرن هي التوقيت الزمني لكل دورة من دورات التجديد. يقول الطيبي: [تخصيص الرأس إنما هو لكونه مظنة انخرام علمائه غالباً، وظهور البدع، وخروج الدجالين]. فلا بد عندها من تحقق الوعد الإلهي بظهور من يعيد تجديد الإسلام، ونفي ما لحق به مما ليس منه)[٢١١]..

كما وإن العلماء اختلفوا في مدلول لفظة (مَن) في قوله صلى الله عليه وسلم (مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)، هل هي تشير إلى فرد واحد من الأمة يجدد الله تعالى به للأمة دينها، أم أن المراد بها ما هو أوسع من ذلك فتشمل أفراداً متعددين أو جماعات؟.. والذي يظهر لنا (والله تعالى أعلم) أنه حتى ولو قلنا بأن (مَن) يُقصد بها فرد واحد يكون قطب رحى التجديد في كل قرن، فإنه ومن الناحية الواقعية ولكي يأخذ هذا التجديد مداه في الزمان والمكان، فلا بد من أفراد كثيرون وجماعات يوفقهم الله تعالى لتبني منهج التجديد هذا ونشره في الأمة ليتحقق المقصود.


[٢١١] المصدر السابق ص ٦٠-٦١





ولذلك كان هذا الكتاب هو جهد المقل الذي نقدمه، متوسلين إلى مرضاة الله تعالى بواسع رحمته وكرمه، لعله يوفقنا للإسهام ولو باليسير لخدمة هذا الدين وأهله، راجين منه القبول.. وكتابنا يتناول جانباً مهماً من جوانب التجديد في الدين (أي دين الأمة على ما بيّناه آنفا)، ألا وهو التجديد الدعوي، أو التجديد في أسلوب ومنهجية الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم خلال المرحلة المقبلة بإذنه تعالى. وخصوصاً بأننا لمسنا قصوراً دعوياً واضحاً في السنوات الأخيرة في العراق (وربما في غيره أيضاً). نسأل الله تعالى أن يستعملنا جميعاً في مرضاته..

وبعد أن أوضحنا في الفصل السابق أهم ما نستدركه على العمل الدعوي الإسلامي المعاصر من حيث العموم، فسنقوم في هذا الفصل (إن شاء الله تعالى) برسم الخطوط العريضة والعامة لمسار التجديد الدعوي القادم، بإذنه تعالى..

وأول ما نبدأ به هو أن نسأل الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبنا. ففي الحديث الشريف عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ الإيمانَ لَيَخلقُ في جوفِ أحدِكم كما يَخلَقُ الثوبُ فسلوا اللهَ تعالى أنْ يجدّدَ الإيمانَ في قلوبِكم)[٢١٢]. ونسلك في

---

[٢١٢] قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧/١): إسناده حسن.



ذلك إلى الله تعالى طريقاً في إخلاص التوحيد له بمفتاح (لا إله إلا الله)[٢١٣].. فمن لم يكرمه الله تعالى بتجديد الإيمان في قلبه، فأنّى له أن يتحدث عن تجديد في دين غيره؟!.. والموفق من وفقه الله تعالى.

وإن أي تجديد في مسار العمل في الدعوة إلى دين الله تعالى لا بد له أن يتناول الدوائر الأربعة للدين التي وردت في حديث جبريل (الذي سبق إيراده) وهي: الإسلام والإيمان والإحسان وعلم أشراط الساعة. فبعد أن سادت الضبابية في الفهم والسلوك لدى أكثر المسلمين فيما يخص الركنين الأخيرين (الإحسان وعلم أشراط الساعة)، كانت النتيجة الحتمية أن يحول العدو معركته (الأزلية) معنا إلى ضرب عرى الإسلام والتشكيك بأركان الإيمان. وبهذا يكون تناول التجديد لهذه الدوائر الأربعة أمراً لازماً.

ورغم أن كل مسلم يُفترض به أن يحوز شيئا من فقه كلٍّ من هذه الدوائر الأربعة، فإن من ينتصب للدعوة إلى الله تعالى حريٌّ به أن ينال قصب السبق في ساحات الاحسان. وأما من انتصب لمهام التوجيه والقيادة والافتاء في الشأن العام للأمة، فيتوجب عليه فوق ذلك، أن يكون الفارس الذي لا يجارى في ميدان فقه التحولات وعلم أشراط الساعة..

---

[٢١٣] أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (جددوا إيمانكم)، قيل يا رسول الله: وكيف نجدد إيماننا؟ قال: (أكثروا من قول لا إله إلا الله). قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وإسناده جيد.



ومن أمعن النظر في المتغيرات العالمية الكبرى التي ظهرت بقوة مع وقُبيل بداية الألفية الميلادية الجديدة، وأبصر حال الأمة والوهن الذي أصابها، والفتنة العظيمة بين أبنائها، بينما الأعداء يتكالبون عليها لينهشوا من لحمها، وكما وصفهم الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، في حديث تداعي الأمم على المسلمين كتداعي الأَكَلَةُ على قصعتها (الذي أوردناه سابقا)؛ لا بد له أن يدرك من ذلك أن الكارثة الكبرى التي حلت بالمسلمين اليوم سببها الأول والرئيس هو ضعف البناء الروحي الإيماني، واضمحلال معاني تزكية القلوب ومعالجة أمراضها، وإهمال تهذيب النفوس والسير بها في طريق مرضاة خالقها تعالى، عند عموم المسلمين أفراداً وجماعات..

ولذلك، ومع وجود هذا الخلل العظيم والداء الدفين، لم ينفع المسلمين كثرة التنظيرات والتقعيدات، ولا كثرة الأحزاب والجماعات، ولا حشد الأنصار، ولا الصيغ والفعاليات التنظيمية أو الحركية، ولم يكن الكثير من الأعمال الظاهرة ليجدي نفعاً، لسبب وحيد مهم هو فقدان شرط الإخلاص فيها، لأن الإخلاص لا يتأتى من قلبٍ مخلَّط تفرقت به الهموم في أودية الدنيا.. وقد دفعت الجماعات الإسلامية المعاصرة ثمناً باهضاً لذلك المنهج الذي جعلها تتيه في أساليب تجميع الأنصار، ومجادلة الخصوم، مقدِّمةً الكم على النوع.. ولا بد للتجديد الدعوي المقبل أن يعيد تصحيح ذلك كله.





وسنستلهم في رسم المسار التجديدي الدعوي الذي نراه، أنموذجين رئيسيين، مع محاولة استيعاب الزمان وأهله. فبالمقام الأول نحاول استلهام أنموذج التربية النبوية لكبار أهل البيت والأصحاب في صدر الإسلام، إذ أنه يمثل المرجع الأساس لنا في فهم أي عملية تجديد أو بناء للحضارة منشود.. وسنركز على حالة (الأنصار) من أهل المدينة المنورة شرفها الله تعالى، في هذا الجانب..

وبالمقام الثاني، نحاول أن نستفيد من فهم عملية التغيير والاصلاح، والبناء الروحي، الذي حدث في الأمة في زمن الدولة الزنكية-الأيوبية، والذي قاد الأمة (بعد مرحلة من التشتت والهوان) إلى الإمساك بزمام المبادرة من جديد، وتحرير بيت المقدس. ونحن نعتقد أن هذا الأنموذج الذي تم تحقيقه في تلك الحقبة التأريخية، هو استلهام ناجح لأنموذج التربية والإعداد النبوي في صدر الإسلام الأول.. ولا مانع شرعاً ولا عقلاً من الاقتداء به مع فهم خصوصيات عا لم اليوم.

وقد بين أحد الدارسين[٢١٤] لظهور جيل صلاح الدين الأيوبي، الذي تم على يديه تحرير القدس من الصليبيين (عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م)، خلل محاولة القفز على المراحل في العمل لدين الله تعالى، وخطأ الاهتمام بالأعراض الخارجية للمرض في جسد الأمة دون المرض نفسه، وضرورة التوازن في بناء

[٢١٤] وهو د.ماجد عرسان الكيلاني في كتابه (هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس).





الفرد والجماعة بمنهجية سُنيّة رشيدة. وبين خطورة تشكل فهم عند بعض المعاصرين لا يأخذ كل هذا بنظر الاعتبار، وذلك لسببين رئيسيين:

(السبب الأول: إن هذا الفهم يصرف الأنظار بعيداً عن الأمراض الحقيقية التي تنخر في جسم الأمة من داخل فتفرز فيها القابلية للتخلف والهزيمة، ويشغلها بالأعراض الخارجية الناجمة عن تلك الأمراض، أي أن هذا الفهم يضع العاملين أمام خطوة من العمل يستحيل انجازها لأن الأمة الضعيفة من الداخل يستحيل أن تتغلب على الخطر من الخارج. ولكن الخطوة الممكنة في حالة الضعف هي معالجة الضعف نفسه، فإذا شُفيت الأمة من أمراضها صارت الخطوة المستحيلة ممكنة.

والسبب الثاني: إن هذا الفهم يوجه إلى العمل الفردي ويحول دون العمل الجماعي، ويفرز صورة خاطئة قاتلة لدور كل من القادة والأمة في تحمل المسؤوليات مواجهة التحديات. فهو فهو ينمي في نفوس القادة روح الفردية والانفراد بالتخطيط والتنفيذ، فيقودهم إلى الارتجال ويزجهم في صراع مع كل من يحاول المشاركة في الرأي أو العمل.. أما الأمة، فإن هذا الفهم يستبعد دورها في المسؤولية ويطمس في عقولها مفهوم المسؤولية الجماعية، ويشيع التواكل على القيادات وحدها)[٢١٥]..

---

[٢١٥] ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ١٣-١٤



وقد بين الباحث أن المصادر التأريخية الأصلية التي أرّخت لأحداث مرحلة تحرير القدس وما سبقها، والآثار التي تركها الذين عاصروا تلك الوقائع وشاركوا فيها، (تبين بوضوح أن صلاح الدين لم يكن في بدايته سوى خامة من خامات جيل جديد مرّ في عملية تغيير غيرت ما بأنفس القوم من أفكار وتصورات وقيم وتقاليد وعادات، ثم بوأتهم اماكنهم التي تتناسب مع استعدادات كل فرد وقدراته النفسية والعقلية والجسدية، فانعكست آثار هذا التغيير على أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وسددت ممارساتهم ووجهت نشاطهم.

والذين قادوا عملية التغيير هم أناس عاشوا قسوة الأحداث، وتجرعوا مرارة التجارب والأخطاء والانحراف في الفكر والممارسات العملية، وذاقوا حلاوة الإصابة وخلصوا من ذلك كله إلى تغيير ما بأنفسهم أولاً، ثم إلى بلورة تصورات معينة واستراتيجية خاصة انتهت بهم إلى وجوب تكامل الميادين والتخصصات وإلى تظافر جميع الهيئات والجماعات. وبعد ذلك كله مضوا في تنفيذ هذه الإستراتيجية طبقاً لخطوات مرحلية متناسقة مقدرة حتى انتهوا إلى الخطوة الأخيرة وهي إعلان التعبئة العامة والجهاد العسكري. وكان مقدار النجاح الذي حققوه في جهادهم متناسباً مع درجة الصواب والإخلاص في استراتيجياتهم)[٢١٦].


[٢١٦] المصدر السابق ص ١٤-١٥



وقد بين الباحث في رصده التأريخي التحليلي المهم وجود كثير من الشواهد والإشارات الصريحة التي تدل على التعاون الوثيق بين مدارس الاصلاح التي ظهرت في تلك الحقبة، وعلى رأسها المدرسة القادرية (نسبة إلى مؤسسها سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى)[٢١٧] في بغداد. حيث (قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي. فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة. ولقد عُرف هؤلاء الطلاب باسم "المقادسة" نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. كما اشتهر بعضهم فيما بعد في ميدان الفقه والسياسة.. ومن أمثلة هؤلاء هو موفّق الدين عبد الله بن قدامة، الذي عمل في التدريس في زمن صلاح الدين، والذي كان قد رحل إلى بغداد مع ابن عمه الحافظ عبد الغني، وتخرجا من المدرسة القادرية.

ويبدو أن السنوات التي قضاها الموفّق في بغداد تركت أثراً كبيراً في حياته فظل متعلقاً بها، وزارها مرات عديدة بعد تخرجه واشتهار أمره. كما ظل

---

[٢١٧] الشيخ عبد القادر الكيلاني أو عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ هـ - ٥٦١ هـ)، إمام عمت شهرته الآفاق.. قال عنه الإمام الذهبي : (الشيخ عبد القادر الشيخ الامام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الاسلام، علم الأولياء، محيي الدين، أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله ابن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد).. وقال عنه الإمام ابن تيمية: (والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشائخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع، والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشائخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية).. وقال عنه الإمام النووي : (ما علمنا فيما بلغنا من التفات الناقلين وكرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلاني، كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد وانتهت إليه رياسة العلم في وقته)..



متأثراً بالشيخ عبد القادر ينوّه بفضائله ويروي كراماته. ولقد أصبح الموفق هذا مستشاراً من مستشاري السلطان صلاح الدين، وصار علَماً من أعلام الفقه الحنبلي، يحرص الكل على التفقه على يديه ودراسة كتبه)[٢١٨].

وقد خلص ذلك الباحث في نهاية كتابه إلى مجموعة صياغات أو (قوانين)، كما أسماها، لعل الأهم بينها فيما نحن بصدده الآن من مسار للتجديد الدعوي، هو الآتي:

(عندما تفشل جميع محاولات الإصلاح، وتتحول الجهود المبذولة إلى سلسلة من الإحباطات والانتكاسات المتلاحقة، فإن المطلوب هو القيام بمراجعةٍ تربوية شاملة جريئة وصريحة وفاعلة، يكون من نتائجها إعادة النظر في كل الموروثات الثقافية التي تلي نصوص القرآن والحديث الصحيح، وإعادة النظر في كل العملية التربوية ابتداءً من فلسفة التربية ومروراً بأهدافها ومناهجها وطرائقها ومؤسساتها وإداراتها والمربين العاملين فيها حتى الانتهاء إلى تطبيقاتها السياسية والاجتماعية والإدارية)[٢١٩]..

وبناءً على كل ماتقدّم، نصيغ الحدود والأطر الآتية لمسار التجديد القادم بإذنه تعالى في مجال الدعوة إلى الله تعالى:

---

[٢١٨] ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ص ٢٤٩-٢٥١ مع الاختصار وتصرف يسير.
[٢١٩] المصدر السابق ص ٢٩٦-٢٩٧

أولاً: المرحلة الدعوية التي يشملها مسار التجديد هذا:

هذا المسار التجديدي في مجال الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ دينه، هو لتجاوز مرحلة الوهن والضعف التي تمر بها الأمة الإسلامية حالياً، وعلامتها الكبرى هي شيوع (حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت)، كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لغرض نقل الأمة إلى مرحلة لاحقة للفعل الحضاري البناء، الذي ابتعدت عنه حالياً بسبب حالة الوهن التي تمر فيها.

ثانياً: المدى الوظيفي الذي يستوعبه:

تجديد الفعل الدعوي على مستوى الفرد والمجموع، بإحياء الوراثة النبوية في وظائفها الرئيسية الثلاث: تلاوة الآيات (بمنهج التلقي)، التزكية النفوس (بمنهج التدبر والتفكر والتذكر)، تعليم الكتاب والحكمة (بمنهج التدارس).. وكما ورد في قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (آل عمران: ١٦٤).

ثالثاً: هدف هذا المسار التجديدي:

لهذا المسار (أو المشروع) هدفين مترابطين بإحكامٍ، هما:



١. أن يسعى كل مسلم لأن يكون هو أولاً من (أهل الله تعالى)، كما جاء في الحديث النبوي الصحيح، قال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ للهِ تعالى أَهلينَ مِنَ النّاسِ: أَهلُ القُرآنِ هُم أهلُ اللهِ، وخاصَّتُهُ)[٢٢٠]..

٢. وأن يسعى المسلم لجعل غيره من (أهل الله تعالى) كذلك، بنشر هذه الثقافة، وتبليغ هذا المنهج، خالصاً لوجهه تعالى. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[٢٢١].

رابعاً: منهجية مسار التجديد الدعوي:

يقوم هذا المسار على منهجيتين متكاملتين، هما:

١- التفاعل مع القرآن الكريم وتلقي رسالاته وبلاغاته، بحسب ما تم تفصيله في برنامج (الفِطريّة) للشيخ فريد الأنصاري، في كتابه الذي يحمل ذات العنوان، والذي ألحقنا مختصراً يمثل جانبه العملي في آخر كتابنا هذا.

---

[٢٢٠] رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

[٢٢١] متفق عليه.



٢- بناء وتوطيد وإدامة الصلة الروحية القلبية مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم حتى يكون أحب إلينا من أنفسنا ومن الناس أجمعين، لتتم لنا بذلك حقيقة التأسي المطلوب شرعاً.

أما عن مشروع أو برنامج الفِطريّة، (فالفطريّة حدّها: إِقَامَةُ الوَجْهِ لِلدِّينِ حَنِيفاً، خَالِصاً للهِ؛ وذلك بِمُكَابَدَةِ القُرْآنِ ومُجَاهَدَةِ النَّفْسِ بِهِ تَلَقِّيّاً وبَلاَغاً؛ قَصْدَ إِخْرَاجِهَا مِنْ تَشَوُّهَاتِ الْهَوَى إِلَى هُدَى الدِّينِ الْقَيِّمِ؛ ومِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلاَلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ بِاللهِ.

وبناء على هذا التعريف؛ تكون الفِطْرِيَّةُ عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية. لذلك فهي دائرة من حيث المنهج على تلقي رسالات القرآن، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً، إذ لا تَخَلُّقَ للنفس إلا بمعاناة! ولا تخلص لها من أهوائها إلا بمجاهدة!)[٢٢٢]..

وأما الصلة الروحية والقلبية برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنحن نظن أنه قد أصابها كثير من الضعف عند المسلمين اليوم، بعكس حال سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من الأكابر.. فحب الله ورسوله

---

[٢٢٢] فريد الأنصاري، الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، مع تصرف يسير



صلى الله عليه وسلم من أعظم الواجبات، لأن الله تعالى أوجب علينا ذلك وتوعد من خالف فيه بقوله: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة: ٢٤).

ومن المعلوم أنه لا يتحقق أحد بالإيمان ما لم يقدم حبَّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على كلِّ محبوب، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[٢٢٣].

وفي حديث صحيح آخر ينبغي بكل مسلم أن يتوقف مليّاً عنده، ويتأمله حق التأمل، قال عبدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ رضي الله عنه : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي-وما كانوا يكذبون رضي الله عنهم- فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ). فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (الْآنَ يَا عُمَرُ)[٢٢٤].

---

[٢٢٣] متفق عليه واللفظ لمسلم.
[٢٢٤] رواه الإمام البخاري.





قال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: (قال الخطابي: حبُّ الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. قلت: فعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: «الآن يا عمر». أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب)..

بل أن محبة الله ورسوله هي من أعظم أسباب دخول الجنة، ومجاورة أهل السعادة فيها، ففي حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: (وماذا أعددت لها). قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. فقال: (أنت مع من أحببت). قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت مع من أحببت)؛ أنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[٢٢٥]..

---

[٢٢٥] متفق عليه



وإنما قلنا بضرورة اعتبار (تفعيل الصلة القلبية والروحية بالنبي صلى الله عليه وسلم) منهجية موازية لمنهجية (تلقي رسالات القرآن الكريم وبلاغه) استنباطاً من حال الصحابة رضي الله تعالى عنهم في تربيتهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذهم القرآن عنه، فكان حبهم له وشوقهم إليه وهو بين أظهرهم ما يعجز البيان عن وصفه، مما تواترت به كتب السنة والسيَر..

فكيف ينبغي أن يكون بنا الحال، ونحن الذين لم ننل شرف الصحبة الذي نالوه؟ ألا يليق بقلوبنا أن تتوقد شوقاً إليه وحبّاً له؟.. وانظر لو أن أحدنا صلى وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أي مكان، وبأيٍ من الصيغ الواردة في ذلك، مستحضراً وموقناً تماماً بأن صلاته وسلامه تبلغان رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه، فكيف سيكون حال قلبه عند ذاك؟ ولو كان له نصيب يومي من هذه الصلاة والتسليم عل تلك الحالة، كيف سيكون تلقيه للقرآن الذي نزل على قلب حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم؟!

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ للهِ ملائكةً سياحينَ في الأرض يبلغوني مِن أمَّتي السلامَ)[٢٢٦].. وفي الحديث الصحيح أيضاً: (لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا،

[٢٢٦] رواه النسائي، ومن طريقه الطبراني في الكبير، وابن عساكر، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب".



وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)[٢٢٧]، وفي لفظ: (فإنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[٢٢٨].

ولا ريب أن اتّباع السنة المطهرة هي دليل المحبة الأكيد ومظهرها الجلي، غير أن حقيقة هذا الاتّباع لا تدرك بغير هذه المحبة (التي هي في أصلها انبعاث من القلب يشرق له باقي الجسد).. فكم رأينا، للأسف الشديد، أناس يحفظون من القرآن، ويطبقون من السنن الظاهرة، الشيء الكثير (ونحن لا نقلل من شأن ذلك مطلقاً)، لكنهم في أماكن العمل والدراسة، وفي تعاملهم مع الآخرين، يتصرفون بتناقض عجيب مع القرآن والسنّة!!.. وما ذلك إلا لتضييعهم حقيقة المحبة اللازمة لحسن التأسي والاتّباع.

خامساً: أركان هذا المسار التجديدي:

وأما أركان هذا المسار التجديدي فهي ذات الأركان الستة لبرنامج (الفطرية)، وهي[٢٢٩]:

١- الإخلاصُ مجاهدةً

٢- الآخِرةُ غايةً

٣- القرآنُ مدرسةً

٤- الربانيةُ برنامجاً

---

[٢٢٧] أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في "صحيح الجامع".

[٢٢٨] أخرجه أبو يعلى.

[٢٢٩] يرجى الرجوع إلى الملحق في نهاية هذا الكتاب لبيان وشرح هذه الأركان.

٥- العلمُ طريقةً

٦- الحكمةُ صبغةً

سادساً: المسالك التربوية لمسار التجديد الدعوي:

وأما المسالك التربوية لهذا المسار فهي أربعة (الثلاثة الأولى منها هي مسالك برنامج الفطرية ذاتها)، وهي:

١- مجالس القرآن لتلقِّي حقائق الإيمان، والتخلق بمقتضياتها.

٢- بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليه.

٣- رباطات الفطرية، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية.

٤- صحبة ومجالسة الصادقين من أرباب القلوب، والحرص عليها.

فأما المسلك الأول، وهو مشروع (مجالس القرآن) فقد وصفه الشيخ فريد الأنصاري بتفصيل في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته. حيث بيّن أن مجالس القرآن هي: (مشروع دعوي تربوي بسيط، سهل التنفيذ والتطبيق، سلسل الانتشار؛ غايته تجديد الدين، وإعادة بناء مفاهيمه في النفس وفي المجتمع!.. بعيدا عن جدل (المتكلمين الجدد)، وبعيدا عن تعقيدات التنظيمات والهيآت!.. بعيدا عن الانتماءات السياسية الضيقة، والتصنيفات الحزبية

المرِبكة!.. لكن؛ قريبا من فضاء القرآن الكريم، بل في بحر جماله النوراني العظيم! وتحت شلال روحه الرباني الكريم!)[٢٣٠].

(هكذا كانت مجالسُه صلى الله عليه وسلم ثم مجالسُ أصحابه في عهده، ومن بعده، عليه السلام مجالسَ قرآنيةً، انعقدت هنا وهناك، وتناسلت بصورة طبيعية؛ لإقامة الدين في النفس وفي المجتمع معا على السواء، وبناء النسيج الاجتماعي الإسلامي من كل الجوانب، بصورة كلية شمولية؛ بما كان من شمولية هذا القرآن، وإحاطته بكل شيء من عالم الإنسان! وذلك أمر لا يحتاج إلى برهان)[٢٣١].

وأما المسلك الثاني (بلاغ الرسالات) فإنه مرتبط بوجوب البلاغ الدعوي على كل مسلم، بحسب وسعه، امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم في أمر مطلق لكل الأمة: (بَلِّغُوا عني و لو آيةً!)[٢٣٢].

والمسلك الثالث (رباط الفطرية) هو (أعمالٌ واجبات، وتروكٌ لازمات، وأذكارٌ مندوبات، مما صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم التزمه وداوم عليه. فالرباط الفطري هو معراج المؤمن الدائم إلى الله، وحصنه المنيع من كل فتنة أو آفة)[٢٣٣].. فما أجمل بالمسلم إذ يتخذ له ساعة من الليل أو

---

[٢٣٠] فريد الأنصاري، مجالس القرآن

[٢٣١] المصدر السابق نفسه

[٢٣٢] أخرجه البخاري.

[٢٣٣] فريد الأنصاري، الفطرية: بعثة التجديد المقبلة

النهار، يختلي بها بنفسه، وينقطع إلى ربه، متفكراً في نعم مولاه وآلائه، ذاكراً له بقلبه ولسانه، محاسباً لنفسه قبل أن يحاسبه الله تعالى.. قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: ١٩٠-١٩١). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الأحزاب:٤١-٤٢). وفي الحديث القدسي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم.)[٢٣٤]..

وقد أجاد الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى في بيان هذه المسالك الثلاثة، وباقي ما يتعلق ببرنامج (الفطرية) ومشروع (مجالس القرآن)، بما لا مزيد عليه، لذا ندعو القارئ الكريم للرجوع إلى الملحق في نهاية هذا الكتاب في ذلك.. ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتابي الشيخ الأنصاري (الفطرية بعثة التجديد المقبلة) و(مجالس القرآن). كما يمكن الاطلاع على موقع (الفطرية) على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) والذي يحوي أكثر مؤلفات الشيخ الأنصاري، إضافة إلى معلومات قيمة أخرى كثيرة، وخصوصاً نماذج من المجالس القرآنية.

---

[٢٣٤] رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وأما المسلك الرابع في صحبة الصادقين من أرباب القلوب، فهو امتثال للأمر الرباني في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة:١١٩).. وأيُّ صدقٍ أعظم من الصدق مع الله تعالى؟ وذلك شأن الذين رضوا بالله تعالى رباً وإلهاً وخالقاً، حقيقة الرضا، فأسلموا زمام أنفسهم له، وزهدوا بكل ما سواه، فتطهرت قلوبهم من كل شيء لا يليق بمحبته تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم.. فأصبحت صحبتهم مغنماً، فإنهم (هُم القومُ لا يَشقى بِهِم جَليسُهم)[٢٣٥]..

وقد سبق أن تحدثنا في ذلك، وبينّا أهمية وجود المرشد العالم المربي، الملتزم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن لم يوجد، فهي الصحبة الصادقة مع أهل الزهد والصلاح، مع كثرة الصلاة والسلام على شيخ وإمام كل موحّد وعابد، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، على الحال الذي أشرنا إليه آنفاً..

سابعاً: مستلزمات هذا المسار التجديدي:

وهذا المسار (أو المشروع) له مستلزمان أساسيان هما:

١- اجتناب الخوض في العمل السياسي المباشر، والابتعاد عن الصراعات على الكراسي والمناصب، لتحقيق خلوص النية لله في العمل، واجتناباً للفتنة.

---

[٢٣٥] متفق عليه، واللفظ لمسلم.

٢- ترك التحزبات الضيقة ومجانبة المبالغات التنظيمية التي شابت عمل أكثر الجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة، وذلك بالعودة إلى السمت الدعوي البسيط (الفطري) والجميل الأول.

فأما تركنا للفعاليات السياسية المباشرة، وابتعادنا عن فتن السياسة والمناصب، فهو لا يعود مطلقاً إلى فهم مجتزأ للدين، كالذي يحاول إشاعته من يريدون أن ينطلقوا في عالم السياسة من غير إلتزام ديني ولا ضابط شرعي، كلا فإن الدين قد جاء لتحقيق كافة مصالح العباد الدنيوية والأخروية، والسياسة يتعلق بها كم كبير من هذه المصالح، وبذلك فهي من حيث الأصل الصحيح ينبغي لها أن تخضع لضوابط الشرع، لا أن تُحاول اخضاع الشرع لمصالح دهاقنتها..

وهذا من حيث ما ينبغي أن تكون عليه الأمور لو أن الناس إلتزموا بالهدى الذي جاءهم من ربهم جل وعلا، وأما من حيث واقع الحال في عالم اليوم، فالأمر مختلف تماماً، حيث أن السياسة والمناصب العليا في بلدان العالم المستضعفة، صارت خاضعة بشكل شبه كامل لإملاءات ورغبات الدول الكبرى.. كما أن عموم الناس قد عظمت فتنتهم بالجري وراء الدنيا وحطامها، فيكون دخول أهل الدعوة إلى الله تعالى في هذا المعترك معهم، في مثل هذا الظرف العالمي، فيه مفاسد أكيدة تفوق كثيراً مصالحه المظنونة.

ويكفي أن نذكر من هذه المفاسد هو أن أهل الدين سيكونون في أعين الناس مجرد منافسين لهم على أمر الدنيا، فيتفاقم أمر الفتنة عندهم، ولن يكون لأهل الدين سبيل لإصلاح حال الأمة على هذا المنوال..

لكن الأهم من هذا كله هو كيف سيستطيع أهل الدعوة إلى الله تعالى، وهم في هذا الطور الإبتدائي من معالجة عناصر الوهن في أنفسهم وفي عموم الأمة، أن يمحصوا ويصححوا الإخلاص في النية في دعوتهم إلى الله تعالى إذا دخلوا في الصراع حول المناصب والمكاسب الدنيوية منذ الآن؟؟

وأعتقد جازماً أن خير أنموذج نقتدي به في هذا المسار التجديدي هو أنموذج ساداتنا من (الأنصار) من أهل المدينة المنورة بنور ساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام، رضي الله عنهم جميعاً، إذ هم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه، ويحاربوا عدوه، ويبذلوا المهج دونه، لا لأجل شيء من أمر الدنيا، ولكن ثمن ذلك كله هو (الجنة) فقط!

ولعل العلة في ذلك تكون (والله تعالى أعلم) هو أن ساداتنا المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، قد مرّوا في المرحلة المكية من الدعوة، بما يليق بمقاماتهم العالية من البناء الإيماني النفسي الذي يكون بإذن الله تعالى عاصماً لهم يوم تفتح عليهم الدنيا، وقد كان الأمر كذلك.. وأما ساداتنا من الأنصار فلم يمروا بتلك المرحلة، بذات الصورة والعمق، بل أن بناء الدولة الإسلامية الفتية في المدينة



المنورة سرعان ما بدأ بعد وقت قصير (نسبياً) من دخولهم في الإسلام. ولذلك كان مسارهم الذي ارتضاه لهم الله تعالى ورسوله هو في غير مناصب الإمارة والحكم، بل كان لهم شأن عظيم آخر خصهم الله تعالى به.. قال النبي صلى الله عليه وسلم (كلٌ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَه)[٢٣٦].

وأما ترك صيغ عمل الأحزاب والهيكليات التنظيمية المعقدة، فأعتقد أننا بيّنّا بقدر كاف في هذا الكتاب خطورة الاستمرار به، وأنه إن كان له مبرر واقعي في بداية تبنيّه في العمل الإسلامي المعاصر، فقد جعلته متغيرات الزمان والحال غير مناسب للمرحلة الدعوية المقبلة.

ونحن هنا لا نقول مطلقاً بترك العمل الجماعي أو ترك النظام في العمل والتحول إلى العشوائية، فهذا لا يقول به عاقل.. فديننا هو دين الجماعة، وصيغ الأعمال التعبدية الجماعية تكفي للتدليل حول هذا الأصل. وأما النظام والتناسق فهما من سنن الله المودعة في هذا الكون وفي هذا الدين.. وإنما نحن نقول باجتناب الهياكل التنظيمية بمعناها الحزبي الحديث أو المعاصر. والبديل الطبيعي الذي سيحل محلها هو المجموعات الدعوية ذات

---

[٢٣٦] عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعدة من النار ومقعده من الجنة)، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له). متفق عليه. وعن أبي بكر الصديق قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، نعمل على ما فرغ منه أم على أمر مؤتنف؟ قال: (على أمر قد فرغ منه)، قال: ففيم العمل يا رسول الله؟ قال: (كل ميسر لما خلق له). رواه أحمد، والبزار، والطبراني.

السمت المنسَّق العفوي (الفطري)، والتي يعمل في كل منها أشخاص يسكنون في حي أو قرية ما، أو يجمعهم مكان عمل معين، وسيبرز في قيادتهم بشكل تلقائيٍّ من حاز التأهيل الأكبر من الصفات المطلوبة، وربما دون تنصيص على هذه القيادة، وإنما يكون ذلك ضمنياً.. ولن يكونوا بحاجة إلى الجدل والتصارع على مناصب الأمرة والقيادة، لأنها غير موجودة أصلاً بسبب تخلصنا من الهياكل التنظيمية المعقدة. وسيكون لهذا السمت البسيط في العمل الجماعي فوائد عديدة منها:

- رفع قيود الهياكل التنظيمية المعقدة عن كاهل الدعوة عموماً، وعدم اثقال الدعاة بجهود مضافة لإدامة هذه الهيكليات، وتحريرهم من الاستمرار بانتظار الأوامر والتوجيهات من القيادات التنظيمية العليا (التي لم تعد موجودة)، وبالتالي السماح لمبادرات الإبداع الدعوي بالانطلاق.
- تجنيب الدعوة وأهلها تخوفات الحكام وشكوك بقية الناس. فكل حاكم سيسعى للحفاظ على كرسيه والدفاع عنه ضد أي تهديد يتوقعه، فإذا ما رأى تنظيماً واسعاً واضح المعالم، فهو لا شك سيتخوف منه وربما يسعى لتصفيته أو إلحاق الأذى بأهله.. كما أن عموم المسلمين الآن يشككون بالتنظيمات (حتى ما يفترضونه منها) في العمل الإسلامي، وخير بأهل الدعوة أن يترفقوا بهم، لا أن يزيدوا من حيرتهم..



- وفي اجتنابنا للمركزية التنظيمية، بصيغها التحزبية، تقل احتمالات ومخاوف حصول انحرافات واسعة في الفهم والسلوك لدى الأفراد، والتي تنتج غالباً من قصور التوجيه القيادي (التنظيمي) أو انحرافه.. وإنما هذا الأمر دين، فلا مجال فيه لعاقل بالمجازفة بتسليم أمره إلى غيره من الناس، ممن لا تُؤمَن فتنتُه.
- ولعل الأهم هو أن هذا السمت من العمل البسيط هو مدعاة لصدق أكبر من الدعاة مع الناس، فلا يضطروا لكتمان أو إخفاء أسرار تنظيمية أو حزبية عنهم (إذ لم يعد لمثل هذه الأسرار وجود)، فيكون هذا أحرى بقبول قولهم وعملهم عند الناس.. خصوصاً وأنه لن يعود هناك حاجة لتجميع الناس أو لحشد الجماهير لأغراض سياسية أو اقتصادية، فكل ما هنالك دعوة خالصة لوجه الله تعالى.

وأذكر أني سمعت منذ سنين من بعض فضلاء الدعوة عن أسلوب (تكتيكي) يمكن أن يتخذه العمل (الحركي) الدعوي في ظروف المحن (التي ينقطع فيها التوجيه القيادي)، يكون فيه الدعاة مجاميع كالجزر الصغيرة المتناثرة (ولعلي أيضاً قرأت شيئا عن مثل هذا في أحد الكتب).. وهذا كان يتعلق بإسلوب العمل التنظيمي الحركي. أما في المسار التجديدي الذي نصِفه هنا فسيكون ذلك هو الحالة الطبيعية للعمل، من غير تكلف، ومن غير أسرار، فلا هياكل تنظيمية مصطنعة، ولا مراكز قيادية متكلّفة.





وسيقول قائل (متحمس للعمل التنظيمي الحزبي) إن مسارنا التجديدي هذا ارتداد إلى الخلف، وأنه أسلوب متخلف للعمل. وهذا القائل لا يزال متأثراً بنموذج إدارة المصانع (لأغراض الإنتاج الكمي) الذي ساد في بداية الثورة الصناعية الحديثة قبل زهاء قرنين من الزمن..

ولكننا نجيب بأننا ننشد أسلوبا أكثر تقدماً مما يتحمس له ذاك القائل. فنتجاوز قيود المركزية الإدارية المصطنعة إلى آفاق العمل (الفطري) الموزَّع المنفتح، حيث تذوب الحدود بين مواصفات القيادة وضوابط الجندية، فالكل قائد والكل جندي في الوقت ذاته، وإنما مجريات العمل تميّز المواهب والكفاءات، من غير طلب أو حرص.

وهنا قد يرد علينا استدراك منطقي مفاده: إذا أنتم ضحيتم بالهياكل التنظيمية والصيغ الحزبية التي تنشأ منها المركزية، والتي (يُفترض بأنها) تضمن بدورها استمرار توجيه العمل برمته في اتجاهه المحدد، فما الذي سيمنع عملكم الدعوي الفطري والموزَّع والمنفتح (الذي تزعمونه) من التشتت والاضطراب، بل ومن التناقض والتضاد؟..

وهذا استدراك وجيه، إجابتنا الصريحة عليه هي أنه هناك شيء واحد فقط يمكن بوجوده أن نضمن (بإذن الله تعالى وتوفيقه) عدم حصول ذلك، وهو التربية الروحية العميقة والتزكية القويمة لأنفس الدعاة، التي من خلالها يتخلصون من أمراض القلوب الباطنة، فتصفو قلوبهم، وترق أفئدتهم، وتشرق



أنوار البصيرة في صدورهم.. ونحن أمة الإسلام وحدنا فقط، نستطيع (بإذنه تعالى) تطبيق أنموذج النظم (الإدارية أو الهندسية) الموزَّعة بصورة فعالة وإبداعية، لا مثيل لها في الغرب ولا في الشرق، بروابط الإيمان النقية، وبالعمق في التواصل الروحي والقلبي بين الأنفس المهذبة المزكّاة.. (وهذه الجادّة، فأين السالك؟).

ثامناً: الضابط العلمي للمسار:

إن أي مشروع دعوي إسلامي يتوجب فيه وجود ضابط علمي شرعي، يرقب السير ويحدوه، لئلا تتفرق به السبل.. وإنما الضابط في مسارنا هذا هم ثلة من الدعاة الذي لا يُكتفى بتربيتهم وفق مسالك هذا المشروع فحسب (والتي يمكن لها أن تكون لكل الناس)، بل يكون لهم فوق ذلك منهجهم الخاص في الإعداد، ليكونوا فيما بعد (بإذنه تعالى) علماء الدعوة ومفتيها. والمنهج الخاص هذا هو ما نسميه بـ(**مدرسة الربانيّة**)، (والربانيون هم الأمناء على هذا المنهاج الدعوي، والقائمون به في المجتمع، والحاملون رسالته، تربيةً ودعوةً، على ما قرره القرآن الكريم في غير ما آية، من مثل قوله تعالى: (وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ.)(آل عمران:٧٩))[٢٣٧].

[٢٣٧] فريد الأنصاري، الفطرية بعثة التجديد المقبلة



وبرنامج (مدرسة الربانيّة) الذي نقترحه هنا (إضافة إلى كافة المسالك التربوية التي وصفناها في هذا المشروع التجديدي) هو تحوير وتطوير لمشروع (كليات أركان الدعوة) الذي مرّ ذكره سابقاً. ويقوم هذا التطوير أساسا على ما أكدناه من حاجتنا لبناء العقلية التكاملية الشمولية، المتسقة داخلياً والمتناغمة مع العالم الخارجي، والشخصية القيادية المتزنة، من خلال تطوير مناهج البناء العلمي الثقافي، وتفعيل أساليب التربية الروحية، بشكل يتناسب ومع ثقل المهمة الشرعية التي ستُلقى على عاتق من ينتصب للدعوة الإسلامية عالماً ومفتياً. والمعالم الرئيسية لبرنامج (مدرسة الربانية) تتضمن ما يأتي:

١- يتم الاهتمام بأسلوب القراءة على المشايخ، في مختلف العلوم الشرعية. وسبب ذلك هو لإعطاء رصانة أكبر وهيبة أعلى للدرس، على أن يتم اختيار الأمثل من المشايخ في ذلك. وتكون هذه الحلقات في المساجد ما أمكن ذلك، حيث أن للمسجد والمشيخة هيبة، تعطي آثارها التربوية والروحية فضلاً عن العلم الشرعي الرصين.

٢- ويسير بالتوازي مع ذلك المنهج الثقافي الذي يتضمن الدراسات الإسلامية المعاصرة والمطالعات الفكرية الحديثة. ويتم تفعيل هذا المنهج الثقافي بالاستفادة من آراء وخبرات العلماء والمفكرين، ويمكن استكتاب بعض المشايخ والعلماء لأعداد مؤلفات منهجية مما تكون الحاجة ماسة إليه.



٣- يتم تفعيل نظرية متكاملة، وأساليب عملية فعالة لتطبيقها وتقويمها في مجال التربية الروحية، مع مراعاة تجنب الوقوع في مزالق الابتداع والانحراف. ويتم تأليف كتب وإعداد دراسات معاصرة في هذا المجال، تراعى فيها الجوانب النظرية والعملية للتربية الروحية. وتقام حلقات مستمرة لتدارس أمهات المعاني والقيم الروحية، يتم فيها إحياء الرقائق والمواعظ القلبية فيها. ويفضل لهذه الحلقات أن تكون في المساجد، وعلى أيدي من هو مؤهل من المشايخ والمربين. ولا بد من التأكيد على أهمية الأساليب ذات الطبيعة الفردية والجماعية معاً، لأن لكل منها ميزاته.

٤- ويمكن أن يستفاد من طرق التدريس الحديثة، والتعليم عن بعد، وما تتيحه شبكات المعلومات الدولية من تسهيلات. ويتم الاهتمام بإعطاء جرعات مركزة من علوم التخطيط والإحصاء والإدارة الحديثة، وآلياتها المنهجية. وينبغي التركيز على العلوم الإنسانية والاجتماعية وإسلاميتها، ذلك أن العلوم الشرعية – لوحدها – (قد تكون أداة فنية لمعرفة الحكم الشرعي (المراد الإلهي)، لكنها قطعاً غير كافية لتنزيل الحكم على الواقع البشري الذي يقتضي إدراك هذا الواقع من خلال أدوات خاصة للتحليل والدراسة، ومعرفة العوامل الاجتماعية التي شكلته وأثرت فيه. لذا فمعرفة العلوم الاجتماعية ضرورة شرعية

وفكرية لا تقل أهمية عن اكتساب العلوم النقلية أو الشرعية حتى لا يصبح الفقه والفكر الإسلاميان خارج إطار الحياة)[٢٣٨].

٥- يمكن أن يكلف البعض ممن يمتلكون الرغبة والأهلية أن يواصلوا دراستهم لأجل نيل الإجازة العلمية العامة من المشايخ المعتبرين. ويمكن أن يكتفى بالتفرغ الجزئي في ذلك بدلاً عن التفرغ الكلي. ويمكن أن يكلف هؤلاء بعد ذلك بقراءة وتدارس كتب أخرى، على ذات الطريقة القديمة، وهذه الكتب قد لا تكون من متطلبات الإجازة العامة، ولكننا نشعر بأهميتها في بناء العقلية التكاملية الرصينة للداعية العالم، وتجاوز التراكمات المعرفية التي تربك انطلاقته. ونحن نطمح أن يكون عدد أمثال هؤلاء مؤثراً نسبة إلى مجموع الدعاة. ويراعى في هؤلاء الذين ينتدبون لهذا الأمر (على افتراض كونهم من حملة الشهادات العليا من الجامعات) أن يكون هناك توازن في تخصصاتهم، بين الدراسات العلمية والإنسانية، لأن كل واحد من هذه التخصصات ينمّي (بطبيعته) اتجاهات وقابليات عقلية معينة لدى دارسه، ما بين تركيز وشمول، وعمق وانفتاح، وتدقيق ومرونة، وشدة وتساهل.

---

[٢٣٨] طه جابر وعمر عبيد حسنة، إصلاح الفكر الإسلامي، ص٦٣.

ورغم أننا نؤكد أهمية أن يتوزع الدعاة على تخصصات مختلفة، وننقد الفهم الاجتماعي الخاطئ الذي يثبط همم الطلبة ويمنع توجه النابهين منهم نحو الدراسات الإنسانية، فلا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا مزايا أكيدة للدراسات العلمية في توطيد رصانة عقلية مهمة لدارسها، وقدرة أكبر على فهم تطور التقانات الحديثة، وسبل التعامل مع ذلك.

ولأن وجود شخص ذو شهادة أكاديمية عالية، وإجازة علمية شرعية، بين أقران آخرين قد لا يمتلكون كل هذه الألقاب، ربما يثير في نفسه عوامل العجب والكبر والغرور، مما يدفعه لأن يرى لنفسه أفضلية عليهم، يكون لزاماً علينا أن نعمق قضايا التربية الروحية لمثل هذا الشخص، لكي لا تنسيه النعمة شكر المنعم..

٦- ولا ننسى أن نشير هنا إلى أهمية السفر والسياحة في الأرض، في تطوير مفاهيم الداعية المسلم وتوسيع آفاقه. ويمكن لهؤلاء الاطلاع على جوانب من تجارب العمل الإسلامي في مختلف البلدان، وأن يتبادلوا الأفكار والآراء مع أصناف أهل الرأي والخبرة في بلادهم والبلاد التي يزورونها.

٧- يتم تنظيم كل ما سبق وفقاً لرؤية شاملة واضحة، تؤدي إلى تحقيق البناء الفكري والروحي المتوازن، وبناء العقلية التكاملية، التي تمتلك مزايا الأصالة وقدرات الإبداع، وسبل الاجتهاد الدعوي، والنظر



المصلحي السديد المنطلق من ثوابت التشريع ومقاصده العامة، المتدبرة لمآلات الأفعال، والمستهدية بفهم دقيق لسنن الله تعالى في خلقه، والمستوعبة لواقعها وظروفها المحيطة وإمكانيات التغيير، والتحولات التي يمكن أن تطرأ عليه.

تاسعاً: أفق الإنجاز لمسار التجديد الدعوي:

الذي نَصِفه هنا يمثل مرحلة الأساس التي لا بد منها لأن يصلح كل فرد (أو أسرة أو مجموعة متقاربة من الناس) حاله مع الله تعالى (بإعادة تلقي القرآن، وبتفعيل الصلة القلبية والروحية بالنبي الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام).. فمن تحقق بذلك، فالانطلاقة مفتوحة له في العمل النافع للناس مما يناسبه، على وجه إخلاص النية، وتمحيص القصد الدعوي فيه، بشرط تمسكه بمستلزمات مشروع التجديد هذا (وهي اجتناب العمل السياسي المباشر، وترك الصيغ التنظيمية الحزبية في العمل).

وينبغي الانتباه إلى الفرق في طبيعة الدعوة إلى الله تعالى بين المجتمعات الإسلامية وغيرها. فالمجتمعات الإسلامية قد وصلها أصل البلاغ الدعوي من حيث هو إخبار عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيكون المطلوب فيها هو معالجة الوهن الذي أصابها بسبب ضعف الصلة بكتاب الله تعالى وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم. وأما المجتمعات غير الإسلامية (كما في أوروبا وأمريكا مثلاً) فإن أصل بلاغ الإخبار عن دين الله تعالى لم





يصل أغلبها بالصورة الصحيحة لحد الآن (بحسب ما نعتقد)، مما يستوجب ملاحظة ذلك مع أخذ طبيعة أهل تلك البلاد وحاجاتهم الحقيقية بنظر الاعتبار.

عاشراً: ملاحظات عامة:

إن منهجية مشروع التجديد هذا إنما تقوم على أصلين هما: إعادة بث روح القرآن الكريم في الأمة تلقياً لرسالاته وبلاغه المبين، وتفعيل صلة الأمة بنبيها الكريم صلى الله عليه وسلم وهديه الشريف. وقد بنينا كثيراً من جوانبه على أساس منهج (الفطريّة) ومشروع (مجالس القرآن) للشيخ فريد الأنصاري رحمه الله تعالى. فليس الهدف هو تكثير المشاريع (الإصلاحية أو التجديدية)، ولا يهم نسبتها إلى فلان أو غيره، ولكن المهم هو أن يحدث الإصلاح والتجديد الحقيقيان فعلاً.

وما قدمناه هنا هو عبارة عن خطوط عريضة وأطر عامة أكثر مما هو منهج تفصيلي. فنحن نعتقد بوجود مرونة كبيرة بتطبيق تفاصيل مسارنا التجديدي هذا، ومعه تفاصيل مشروعي (الفطرية) و (مجالس القرآن) أيضاً، وذلك حسب حال وإمكانيات الناس في كل مجتمع من المجتمعات. فالإلتزام الحرفي بالتفاصيل غير مطلوب، وهو يتناقض مع دعوتنا للإبداع الدعوي المنضبط، والإعمال المفتوح للعقل في ضوء مقاصد الشرع ومقتضياته.





ومسار التجديد المقترح هذا ليس حكراً ولا ملكاً لشخص ما أو حزب ما أو جماعة ما، بل هو دعوة خير لكل المسلمين لأن يجددوا العهد الأول في إصلاح قلوبهم وتزكية نفوسهم وتبليغ دعوة ربهم جلّ جلاله، بعيداً عن التنظيمات والتحزبات.. وحتى لو حاول بعض المتحزبين (على سبيل الفرض) توظيف عمل يقوم على أساس هذا المسار التجديدي لأغراض ضيقة، فإن ظننا بالله تعالى أن هذا الطريق ينفض الخَبَثَ عن نفسه، لأنه طريق إلى الله تعالى وإلى مرضاته، وما عند الله تعالى لا يُنال إلّا بطاعته.

ويبقى أساس الانطلاقة الرصين في كل تجديد مؤمَّل هو المسجد، ويا حبذا مجالس القرآن وحلقاته في المساجد.. وياحبذا العودة إلى دروس المشايخ وحلقات العلم ومجالس التربية والتزكية الرشيدة، بعد أن فتكت بنا غثائية كثير من المدارس والجامعات الحديثة!

وإنما كان هذا اجتهادنا في الامر، ولا نزايد في ذلك على أحد، ولا نزعم لأنفسنا العصمة من الخطأ والزلل، والمجال مفتوح لمزيد من الاستدراك، والرأي البنّاء ممن يرجو الله تعالى واليوم الآخر، وذكَرَ الله كثيراً..



الفصل السادس عشر:

إذكاء التنوع في العمل

إن من أكثر الامور جمالاً وخطورة في الوقت ذاته هو (التنظير)، أو بالأحرى محاولة التنظير، لقضية ما. وذلك يعود إلى أن العقل البشري يُدفع إلى حافاته، دون إدراك دقيق منه لحدود هذه الحافات التي تكاد تشبه أطراف شراع سفينة بالٍ توالت عليه العواصف.. فتكون هناك لذة الإبحار في مياه شبه مجهولة، ونشوة المغامرة التي قلَّ من يقوم بها من ملاحي السفن، مثلما تكون هناك بشاعة الظلام ومخافة الهلاك.. هذا الهلاك الذي يكون أهون جوانبه أحياناً هو الهلاك المادي أو الجسماني..

ولست أدعي بأنني أتيت هنا بما لم تستطعه الأوائل، فأحدنا تنضج أفكاره عبر تلاقح مستمر مع محيطه، فهو يحاور هذا، ويقرأ لهذا، وينتفض من كلام هذا، وينفعل لهذه الصورة، ويُستفز من ذلك المنظر، ويحس مشاعر متضاربة في داخله تكاد تودي بحياته؛ وهو في كل هذا تنضج أفكاره وأحاسيسه، ثم يتطاول بغرور ويدّعي إبداعاً، متناسياً الإبداع الأعظم لخالق هذا الكون وسننه ونواميسه، التي ما هذا الإنسان سوى مجرد جزء بسيط منها.. فسبحان الذي يهب ما شاء من فضله لمن يشاء من عباده.



وبعد طرحنا لإطار مسار التجديد المقبل (بإذن الله تعالى) في الدعوة إلى دين الله القويم، يمكن لنا هنا أن نذكر بعض الأسس المنطقية، التي نقيم عليها جسر العبور إلى استنتاجاتنا، بشأن الفعل اللازم في قضيتنا العراقية (وفيما يمكن فيه التعميم على أساسها من قضايا إسلامية أخرى). ومع الأخذ بعين الاعتبار كل ما ذكرناه سابقاً، يمكننا أن نتدرج في طرح هذه الأسس ببساطة كما يأتي:

١- إن قوى الباطل تستخدم أسلوباً متقدماً ومعقداً في التخطيط الماكر في حربها على الإسلام وأهله.. وبذلك فهي لا تتصرف وفقاً لخطة ثابتة لا تقبل المراجعة؛ إنما هناك مخططات بديلة متعددة، يمكن مراجعتها في أي من مراحلها، للإنتقال من مخطط إلى آخر حسب افرازات الخطة وردود الفعل الناتجة على الساحة. وفي أغلب هذه المخططات قد لا يُتَّبع أقصر الطرق للوصول إلى الهدف، بل تكون هناك حركات متعاقبة في اتجاهات مختلفة تشتت ذهن المراقب، بحيث أنه لا يكتشف التوجه الحقيقي لتلك الحركات إلا في مراحل متأخرة، يكون الأوان قد فات فيها لتدارك الامر غالباً.

٢- التضارب في التخطيط والتنفيذ داخل معسكر الباطل أمر لازم لذلك المعسكر، وهو وجه للتناحر بين أطرافه، وتبدلات مراكز القوى فيه، وقد ذكرنا ذلك سابقاً، ولكننا نعيد التذكير به لأهميته البالغة ونسيان الكثيرين له.



٣- وبناءً على ما سبق فإن محاولة تحديد طبيعة المخطط الذي تنفذه قوى الشر في العراق (أو في غيره من بلاد الإسلام) في وقت ما، وبدقة عالية، أمر قد يعز علينا في أحيان كثيرة. ويعزز هذا الطرح تخلفنا في فنون التخطيط والتعامل مع السنن الضابطة لحركة الحياة (وهذه حقيقة لا داعي لإنكارها).

٤- إن استمرارنا في التصرف برد الفعل لما يقوم به المقابل هو حسم مبكر للمعركة لصالح العدو، ولا بد لنا من أن نتجاوز ذلك إلى مرحلة الفعل المبادر. وبذلك فإننا ومع استمرار بذل الوسع في التعرف على مخططات العدو وعلى ما يريده، فلا داعي لأن نبالغ في ذلك، لأن هذه المبالغة هي متأتية (في الحقيقة) من عدم قدرتنا على كسر الطوق الذي فرضه العدو علينا، وارتضيناه نحن لأنفسنا (لا شعورياً) من أننا لا نتجاوز ردود الافعال على ما يقوم به العدو تجاهنا، أو ما يوحيه لنا من ذلك.. والأَولى والأجدى لنا هو الانطلاق من قواعدنا الراسخة في الفعل المبدع، المنبثق من أصول ديننا وعقيدتنا، والمستلهم بذكاء لميراث وانجازات سلفنا الصالح، والمنفتح على واقع الحياة وحاجات المجتمعات الانسانية في عالم اليوم. وإن مراقبتنا لمخططات العدو وحركاته، إنما هي للإستفادة منها في إغناء فعلنا المبادر المرسوم مسبقاً، وتعديل ما يجوز تعديله منه، وفقاً للمستجدات في أرض الواقع فحسب.



٥- علينا أن نضع في حسابنا دائماً أن ليس كل إيحاء يظهر في الساحة، أو يلوح في الأفق، ينبغي التعامل معه على أنه حقيقة واقعة؛ ففي كثير من الأحيان يكون ذلك مجرد سراب سرعان ما يزول. وبذلك فإن التعديلات التي يمكن أن نجريها على خطة سيرنا يجب أن لا تمس ثوابتنا الشرعية والعقلية، كما أن علينا أن لا نقوم بالتعديل أو التغيير إلا مع توفر غلبة الظن، التي تقرب من اليقين، في تبرير ذلك.

٦- إن الشمول صفة لازمة لديننا، وعلى ذلك فهو أصل في عملنا لا يمكن إغفاله.. وعلى هذا الأساس ينبغي أن يقوم منهج سيرنا في دفع الباطل، واستعمار الأرض.

٧- إن الأصل في قوى الكفر والباطل هو عداوتها للإسلام وأهله؛ وذلك أمر لا نظن أننا بحاجة لمزيد من التدليل عليه أو اثباته. ولكن علينا أن ننتبه إلى أن قولنا بذلك لا يستلزم مطلقاً أن ننظر إلى غير المسلمين كلهم بدون تمييز للفروقات التي بينهم.. لا بل من الخطأ أيضاً أن نغفل عن الفروقات الموجودة حتى فيما بين من يحارب المسلمين منهم.. وهذا يتطلب منا اختيار منهجية وأسلوب التعامل الذي يوافق حال كل منهم، والسلاح الناجع الذي يثخن في كل محارب فيهم.





وبذلك يكون الفعل الحضاري الإسلامي المرتقب في القضية العراقية (وما شابهها من قضايا بلاد الإسلام) يقوم على ركن أساسي محدد ندعوه (**إذكاء التنوع**). وفي مبدأ هذا الركن نستكشف ظاهرة مهمة من ظواهر الحياة وسننها، تلكم هي ظاهرة التأثير اللاواعي الذي ينتقل من معسكر الحق إلى معسكر الباطل وبالعكس، من غير ضرورة وجود رغبة من أي منها في انتقال ذلك التأثير.. وقبل أن أفقه هذه النكتة اللطيفة في الحياة، كنت لا أفهم (بشكل كامل) ما يُروى من تسامح المسلمين مع غيرهم الذين أساؤوا لهم في السابق، كمثل ما فعله صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله تعالى) مع الصليبيين بعد انتصاره عليهم، أو مع أسراهم قبل ذلك؛ وكيف كانوا هم قد عاملوا المسلمين الضعفاء وكيف عاملوا أسراهم!..

وكنت أظن أن مثل هذه السلوكية قد تكون جنوحاً نحو مثالية لا مبرر لها، أو هي قد تكون ضرباً من السذاجة في فهم نفوس أولئك الأقوام ومعاداتهم المستمرة للمسلمين.. ولكني سرعان ما اكتشفت سذاجتي أنا في هذا الفهم الناقص، وعمق الفهم الذي امتلكه سلفنا الاوائل في التعامل مع سنن الحياة ودقائقها.. وعرفت كيف أن هناك كمّاً هائلاً من الأفكار والمفاهيم والسلوكيات التي يمكن نقلها بأسلوب الايحاء غير مباشر إلى غير المسلمين فتسبب تغييراً في نفوسهم، تقريباً إلى فهم الاسلام، أو تحييداً للعداوة ضده على الأقل؛ وكيف أن هذه الوسيلة تكاد تعادل كل وسائل الدعوة المباشرة إن لم تزد عليها أهمية..



وبمقابل هذا، توسع فهمي أيضاً لخطورة أن أعداء الإسلام أدركوا هذا الأسلوب، وبدأوا باستخدامه والتعويل عليه في حربهم للإسلام منذ فترة ليست بالقصيرة من الزمن، رغم غفلة كثير من المسلمين عن التبدلات التي تحدث لديهم في الفكر والسلوك نتيجة لهذا التأثير، وقصور الرصد العلمي الدقيق لهذا التغيير من قبل كثير من علماء المسلمين ودعاتهم.

ولنوضح جانباً خطيراً من ذلك.. فلو أننا أمعنا النظر في داخل معسكر أعداء الإسلام الآن لرصدنا حالة من التطرف (التلمودو-إنجيلي)، الذي بلغ مرحلة (الهيستيريا) والجنون، يمثله بوضوح في أمريكا من يسمون بـ(المحافظين الجدد) أو (اليمين المتطرف). وإذا ما انتقلنا سريعاً إلى ساحتنا الإسلامية اليوم، لوجدنا ظواهر مقابلة بشكل لا يكاد يصدق، ولكنه واقع نعيشه جميعاً.. فنحن نرى تطرفاً (يسمى إسلامياً)، وتنطعاً واضحاً في جوانب عدة، يتمثل فيها فكر هو أقرب ما يكون إلى أفكار بعض الفرق الضالة منه إلى فكر الإسلام الصافي الذي حمله السلف الصالح..

ونرى فوق ذلك أيضاً تأرجحاً عاطفياً وانفعالياً لدى قطاع كبير من المسلمين أمام هذا التطرف، بالدرجة التي تثبطهم عن المساهمة الجادة في بناء الحياة على أسس إسلامية رصينة، في حالة من الإزدواجية التي لم يسبق لها (حسب تقديري) في تاريخ الأمة مثيل. ذلك كان هو الإشكال في الموضوع، وأما الكارثة فيه فهي أن كثير من المسلمين اليوم يضعون العربة أمام الحصان (كما يقولون)، فيضعون نتيجةً ما، ثم يشرعون في إيجاد أو



إثبات الأسباب الموصلة لها، في مسلك معكوس، لا يمكن قبوله عقلاً ولا شرعاً، إلا ربما في حالة واحدة هي أن تكون تلك النتيجة يقينية لا تقبل الشك، والأمر ليس كذلك..

وهذا (من وجهة نظري) تهرُّبٌ منا نحن المسلمين، تحت ضغط المواجهة، وشعورنا بتفوق العدو علينا بالأخذ بأسباب المعركة، والإمساك بزمام نتائجها؛ فنلجأُ مهزومين إلى نوع من التفكير المعكوس، نخدر به أَلمنا الداخلي الصارخ بحقيقة عدم قدرتنا على التعامل بكفاءة مع سنن الحياة وفق الطريقة التي أمرنا ديننا بها..

إن وضع نتائج مسبقة مظنونة، ومحاولة ترتيب الفعل الإسلامي حشراً بالطريقة التي تؤدي إليها، هو جانب من خلط التعامل بين السنن الكونية والخوارق الربانية.. فعندما يحاول المسلم (بلا جدوى) ترتيب الأسباب المؤدية إلى حدوث الأمر الخارق للعادة، بدلاً من محاولة الأخذ بأسباب السنن الكونية، التي يدركها بمقتضى الشرع أو العقل، والتي أُمر أن يتصرف وفقاً لها؛ فذلك يشكل انتكاسة تطيح بكل الانجازات التي حققها الفكر الإسلامي المنضبط في معركته الموروثة ضد الأفكار الهدامة..

ولكي لا نفقد شموليتنا هذه، ولكي لا نقع في دوامة النظرات الاجتزائية، والحركات (المقولبة) الجامدة، كان لا بد من (إذكاء التنوع).. ذلك إننا وطالما نواجه عدواً تتعدد مخططاته ووسائل تنفيذها، وتتداخل، بل وتتضارب





أيضا، فمن الجمود الاقتصار على نوع واحد من الفعل الإسلامي وأساليبه. فمهما بدا هذا النوع ناجعاً ومؤثراً في وضع معين، فانتقالات العدو المفاجئة بين خططه وأساليبه تعطينا النصيحة بالحذر من الجمود على نسقٍ واحد في العمل، وقبل ذلك فشمولية إسلامنا هي الواعظ..

لكن إذكاء التنوع يستلزم خطوتين أساسيتين متداخلتين ومتفاعلتين، هما:

١- تكوين مجموعات أو مؤسسات (محدودة الحجم) مستقلة عن بعضها، ومختلفة في نطاق اهتمامها وأساليب عملها.

٢- وضع الأسس اللازمة لضمان التفاعل التكاملي بين أداء هذه المجموعات، وضبط مسارها ضمن الأطار الذي يحترم المصالح الإسلامية الكبرى ويعززها.

والخطوة الأولى واضحة في مدلولها ومستلزماتها إلى حد كبير.. ومن خلالها نؤكد عدم جدوى محاولة العمل بأسلوبين لم يعودا يناسبان الوضع العالمي الجديد عموماً. وأول هذين الأسلوبين هو العمل من خلال صب كافة الجهود (أو معظمها) في مؤسسة أو هيئة (كبيرة) واحدة، تعمل بأسلوب معين ينبع من رؤى وأولويات محددة تماماً. أما الأسلوب الآخر فهو أسلوب قيام هيئة كبيرة واحدة بإدارة واجهات متعددة (لا تملك الاستقلالية الحقيقية أو الكافية)، ومن ثم تضطر إلى الزج بذات الوجوه للعمل ضمن أكثر من واجهة منها (وكلا هذين الأسلوبين نابع من التصورات التنظيمية الحزبية)..



والاعتراض على الأسلوب الأول يأتي من سهولة قيام أعداء الإسلام، بمخططاتهم ومؤسساتهم المتنوعة، بإرباك عمل المؤسسة الواحدة، بسبب نمطية أدائها. وأما الأسلوب الثاني فإنه يثقل كاهل المؤسسة الرئيسية بالتفكير والتخطيط نيابة عن واجهات متعددة تابعة (أقل ذكاءً) – إن جاز التعبير تأثراً بمصطلحات علم الحاسوب ونظم السيطرة –، ويشتت جهود العاملين في توجهات مختلفة تقلل الحصيلة النهائية، لأنه لا يتيح فرصة التخصص الحقيقية، وبالتالي تضعف قابلية الابداع وتقل القدرة على تجاوز أسلوب الأداء النمطي..

أما ما هو أكثر غموضاً وصعوبة في موضوع إذكاء التنوع فهي الخطوة الثانية، وهي توفير الأسس اللازمة لضمان فاعلية الموضوع، ضمن إطارها الصحيح الذي يجعل من الاختلاف بين هذه المؤسسات اختلاف تنوع وتكامل وليس اختلاف تضاد وتناحر.. ويمكن للمرء هنا أن يفكر بطريقة (نمطية!) للعمل، وهو أن تمارس إحدى هذه المؤسسات (أو المجموعات محدودة الحجم) دور المؤسسة الرقابية الضابطة لسير المؤسسات الأخرى ضمن أطار معين.. لكن يرد تحفظان مهمان على هذه الطريقة، هما إحتمال تجاوز هذه المؤسسة لدورها الرقابي المفترض إلى ما يخل باستقلالية المؤسسات الأخرى؛ ومدى استمرار تقبل المؤسسات المستقلة للتعامل الجاد المنضبط مع هذه المؤسسة الرقابية.

وتجاوز هذين التحفظين (وتجاوز أسلوب التفكير النمطي هذا برمته) لا يمكن إلا من خلال تبني قفزة نوعية في أساليب الدعوة الإسلامية، من خلال بناء نماذج متميزة من الدعاة، تمتلك أرقى مواصفات القيادة، وأبهى خواص الجندية، وأفق فكري بعيد، ومدى روحي عميق، وبما يؤهل كل منها لأن ينشئ أو يقود عملاً مستقلاً بمفرده، مثلما تمكنه من العمل ضمن مجموعة في آخر الصفوف. وهذه النماذج هي التي نتفائل بتسمية كل واحد منها باسم (**الداعية الدعوة**).

ونحن نظن واثقين بالله تعالى أن من مزايا المسار التجديدي الذي وصفناه هو أن إذكاء التنوع سيكون (بإذنه تعالى) نتيجة مباشرة له. فعندما يستنير عقل الداعية المسلم بتلقي رسالات القرآن، ويشرق قلبه بحب الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وتتحرر نفسه من قيود الصيغ التنظيمية الحزبية البالية، ويستريح جسده من مجازفات السياسة والصراع على المناصب الدنيوية، تكون الانطلاقة في كل عمل ينفع الناس، ويفرح قلوب قوم مؤمنين، عملاً يصب في رصيد الدعوة إلى الله تعالى، ويرغم أنوف أعداء الإسلام..

ولن يكون لحاقد متربص بالدين وأهله سبيل لنقض كل تلك الأعمال النافعة المتنوعة، البسيطة إذا نظرنا إليها فرادى، والتي تثقل ميزان الدعوة الإسلامية بمجموعها. ولن يعطي أهل الدعوة غطاءً أو مجالاً لذلك المتربص باستهدافهم، إلا إن بلغ المتربص رعونة (أصحاب الأخدود) الذين غاظهم



أصل العبودية لله تعالى والتوحيد له، قال تعالى: (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (البروج:٨)؛ وعندئذ تكون قد أزفت ساعة الخلاص، واستعجل الظالمُ بطشَ ربه الشديد، وحان موعد الظفر بإحدى الحسنيين، وكفى بالله تعالى هادياً ونصيراً.

ولنا أمثلة قريبة بما جرى من خروج بعض المؤسسات أو الهيئات التي أنشأتها بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة، عن الأطر المرسومة لها (بل وربما عن جميع الأطر الإسلامية)، نتيجة لعدم إلتزام تلك الجماعات بأسس إذكاء التنوع التي ذكرناها، فاستطاع بعض الانتهازيين من طلاب الصدارة أن يقفزوا إلى قيادة تلك المؤسسات، ثم يقلبوا ظهر المجن لمن أوصلوهم إلى تلك المكانة، في أمثلة فشل متكررة.

إن من أشد ما يؤرق أعداء الإسلام في تعاملهم مع هذا الدين العظيم هو ذلك الرفض الإيجابي الذي يرفعه الإسلام بوجه كل طاغية.. فكيف لأحد أن يواجه ديناً ذروة سنامه الجهاد؟.. ديناً يربي أبناءه على مرضاة الله حتى ولو اقتضى ذلك إتلاف المهج؟.. ديناً لا يوازي ثبات أصوله إلا مرونة تفرعاته، مما يفتح الأفاق واسعة لاجتهاد العقل المسلم، في دفاعه عن حصونه، ودكّه لحصون الطغاة..

لكن نقطة الضعف الكبرى التي عوّل عليها أعداء الإسلام في حربهم له هي ضعف الفهم الشرعي السليم عند أكثر المسلمين، في زمن الفتنة هذا.. ومن



هنا كان المدخل لضرب أهل الإسلام في العراق وغيره. فأمام ظلم بيّنٍ واعتداء صارخٍ، وبوجود عاطفة قوية وغيرة تجيش بها النفوس، التي تأبى الظلم وتنتصر للمظلوم وتغار على الشرف، وفي زمن بدأت الكلاب فيه تتحدث بلكنة الأسود.. بوجود كل هذا كان لا بد للعواطف أن تثور، وللمشاعر أن تنفجر، بوجه الظالم المعتدي، دفاعاً عن الأرض والعرض..

وعند إلتهاب العواطف واشتعال المشاعر، غالباً ما يخفت صوت العقل ويخبو نوره.. وتكون تلك هي اللحظة المناسبة للعدو المتربص أن يخترق الصفوف، ومن ثم ليغيّر إتجاه السَير!.. وإستراتيجية اختراق العدو لبعض الحركات والجماعات الإسلامية المؤثرة في الساحة هي أمر معروف، تحدثنا عنه في السابق. وكل عمل جهادي المنتهى، لا يستند على عمل تربوي المبدأ، وتمحيصي المسار، هو عمل محكوم عليه بالاختراق من قبل الاعداء، وبأنه قد يفسد أكثر مما يصلح، حتى ولو حسنت عند غالب أفراده النوايا..

أن أحد المحاور الكبرى التي ينبغي أن يتطور العمل الإسلامي الدعوي برمته على أساسها، هي حتمية الإنتقال من مرحلة رد الفعل إلى مرحلة الفعل المبادِئ؛ لكن ذلك يستوجب سرعة الأخذ بأسبابه، ونحن لا زلنا نرى العدو متقدماً علينا في كل مرحلة بخطوة واحدة في الأقل!.. وعليه فإن السير في طريق التجديد الدعوي صار محتماً على كل واحد منّا، ليعذر نفسه أمام الله تعالى يوم يلقاه..



فلا يحق لنا بعد اليوم كمسلمين، أن نجامل أحداً، أفراداً أو جماعات أو جماهير، إذا علمنا أن تلك المجاملة ستؤدي إلى مفسدة تفوق مصلحة تأليف القلوب التي نسعى إليها. وعلينا أن لا نتردد أو نخجل من استئناف السير، فتجارتنا إنما هي مع الله تعالى، وكل تجارة معه جلّ شأنه هي تجارة رابحة، فمالنا ألّا نتوكل عليه تعالى، وننطلق في الدعوة إلى دينه القويم، مركزين على الأطفال والناشئة الذين تمتلئ قلوبهم محبةً وألَقاً؟..

فلنعد لتلقي رسالات القرآن، في مجالس القرآن، ولنحيي في القلوب محبة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ولنذكي التنوع في المرابطة على ثغور الإسلام.. وحريٌّ بنا أن لا يغيب عن أذهاننا أن القول بوجود دليل شرعي يؤيد خَياراً معيناً الآن، لا يعني بالضرورة تفعيل هذا الخيار حالياً (وانظر ما نقله الشيخ الأنصاري عن الإمام الشاطبي حول ذلك في الملحق آخر الكتاب)، بل قد يعني الإعداد المثابر له.. وإنّ تركنا العمل بخيار ما الآن، لا يعني بحال أننا قد لا نحتاجه في وقت أقرب مما نتصور.



الخاتمــة

إن تحقيق الخلافة في الأرض يقتضي من المسلم أن يأخذ بسنن الله تعالى في هذا الخلق. وفي الوقت الذي سبقَنا فيه غيرنا للأخذ ببعض هذه السنن، فحقق منجزات علمية وتقانية واقتصادية، أهَّلَتهُ لأن يتفوق علينا في مجالات التخطيط والتنفيذ ووسائلهما المختلفة؛ كان لا بد لنا (تنفيذاً لأمر الله تعالى أولاً، واستجابة لتحدي العدو ثانياً) أن نتلمس ما يمكننا من أسباب النصر في سنن التدافع. وإننا نعتقد جازمين بأن ضرورات المرحلة تدفعنا نحو إحداث تغير جذري شامل في مرتكز الصراع بين الخير والشر، إلا وهو الإنسان، عقلاً وروحاً وسلوكاً..

وإن ضراوة المواجهة مع الأعداء تجعلنا نسعى إلى الأخذ بكل سبب يؤدي إلى إعادة التوازن إلى كفة الصراع بيننا وبينهم. ونرى أن أهم الأسباب التي نستطيع من خلالها مراغمة الأعداء، وتقليل فرص وإمكانيات تفوقهم علينا، ومواجهة كيدهم، هو تفعيل البناء العقلي والفكري، والروحي والسلوكي، للفرد المسلم، وصولاً إلى بناء الشخصية الشمولية التكاملية المتوازنة.

إن وجود مثل هذه الشخصية المتكاملة، نراه أصبح من ضرورات تفعيل العمل الدعوي الإسلامي، ليرتقي إلى مستوى التحديات. ذلك أنها تتيح له أساليب مؤثرة وعميقة في العمل، والتعامل مع الآخر، بما يفعّل من مستوى الأداء، ويزيد مرونة الاستيعاب، ويقلل مخاطر كيد الأعداء، ويقي من الفتن

وأهلها. ولقد بينا في هذا الكتاب جانباً من أزمات العقل والقلب المسلم في عالم اليوم، التي نعتقد أن بناء أنموذج الشخصية الإسلامية المنشود، لابد أن يمر من خلال إصلاحها وأمثالها، من خلال تطوير وسائل التربية ومناهج التثقيف والتعليم التي نتبعها.

وقولنا بضرورة تحقيق التكامل في الرؤية والفهم والسلوك على مستوى الداعية الفرد، لا يعني أبدا إهمالنا لقضية بناء التكاملية على مستوى المجموع، كما لا يعني أيضا تقليلنا من أهمية التخصص لدى الأفراد والمجاميع. بل أننا نزعم أن بناء العقلية التكاملية للداعية المسلم، يسهم كثيراً في تعزيز التكامل على مستوى المجموعة الدعوية، كما أنه يعزز دور التخصص، طالما أن محدودية القدرات العقلية الفردية تلزمنا بتوجيه جهد الفرد في دائرة محددة لتحقيق العمق المطلوب، فتكون هذه الانطلاقة التخصصية العميقة أكثر اتزاناً ونفاذاً عندما تنطلق من رؤية تكاملية للأشياء.

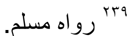
إن التفوق التقاني الذي حققه الآخرون على حسابنا، وعملهم المستمر الدؤوب لأجل توسيع هوة هذا التقدم، وضع كثيراً من جوانب العمل الإسلامي أمام تحديات كبيرة، وخيارات صعبة، نعتقد انه لا سبيل إلى تجاوزها والتغلب عليها، إلا من خلال إنضاج مشروع تجديد دعوي متكامل. وقد وصفنا الخطوط العريضة لمشروع التجديد هذا، والذي يرتكز على إعادة تلقي البلاغ القرآني، وتفعيل آصرة المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم. كما يستلزم هذا المشروع التخلي عن الصيغ التنظيمية الحزبية في

العمل، واجتناب العمل السياسي وصراعاته المباشرة، وصولاً إلى إذكاء التنوع في سد ثغور الإسلام ومنفعة الناس.

وأنا أعرف مسبقاً أن هناك أخوة لنا سيخالفوننا الرأي، وإنما هذا جهدنا بذلناه نصيحة لهم، تحقيقاً لواجب الأخوة في الدين، وكما أمرنا بذلك سيدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه، فعن أبي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بنِ أوْسٍ الدَّاريِّ رَضِي اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ). قُلْنَا: لِمَنْ؟ قالَ: (للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)[٢٣٩].. فما كان من صواب فهو فضل من الله تعالى، وما كان من خطأ فمن نفسي الأمارة بالسوء، واللهُ تعالى ورسولُه بريئان منه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



[٢٣٩] رواه مسلم.

المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم.**

٢. **كتب الحديث النبوي الشريف والسنّة المطهرة.**

٣. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: **سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٤. أمامة، عدنان محمد: **التجديد في الفكر الإسلامي**، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥. الأنصاري، فريد: **البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي**، ٢٠٠٣.

٦. الأنصاري، فريد: **مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ**، الطبعة الثانية.

٧. الأنصاري، فريد: **الفطرية: بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٨. حوى، سعيد: **إحياء الربانية.**

٩. حوى، سعيد: **تربيتنا الروحية**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٩٩م/١٤١٩هـ

١٠. حوى، سعيد: **جند الله ثقافة وأخلاقا**.

١١. حوى، سعيد: **في آفاق التعاليم**، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان – الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

١٢. حوى، سعيد: **المستخلص في تزكية الأنفس**، دار عمار، بيروت.

١٣. الراشد، محمد أحمد: **المسار**، دار المنطلق، الإمارات العربية المتحدة؛ الطبعة الثالثة، ١٤١٢ هـ/١٩٩١م.

١٤. الريسوني، أحمد: **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٥. صافي، لؤي: **إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٦. عبد الحميد، محسن: **تجديد الفكر الإسلامي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٧. العزي، عبد المنعم صالح العلي: **تهذيب مدارج السالكين**.

١٨. العلواني، طه جابر وعمر عبيد حسنة: **إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات**، ورقة عمل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

١٩. العلواني، طه جابر: **الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات وعلاج**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة ، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢٠. القرضاوي، يوسف: **السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢١. القرضاوي، يوسف: **ثقافة الداعية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٢. القرضاوي، يوسف: **الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

٢٣. قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٤. الكيلاني، ماجد عرسان: **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.





ملحق:

مدخل إلى الفطرية
من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام

الشيخ الدكتور فريد الأنصاري





بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى الفطرية

من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

((بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ. فَمَن يَهْدِي مَن اَضَلَّ اللهُ؟ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ! فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ. وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ!)) (الروم:٢٩-٣١).



إهداء..

إلى حُمَّالِ رِسَالاَتِ القُرآن..

السَّالِكِينَ بِهَا إلى اللهِ، تَعَبُّداً وبَلاَغاً..

الْمُكَابِدِينَ بِهَا مِحَنَ هذَا الزَّمَان!

إلى بَلاَبِلِ اللَّيالِي الْخُضْر..

الْمُرَتِّلَةِ خَوْفَهَا ورَجَاءَهَا بِمَحَارِيبِ السَّحَر!

إلى طَلاَئِعِ الْخُيُولِ الغُبْر..

الْمُورِيَةِ بِسَنَابِكِهَا لَهِيبَ الفَتْحِ الْمُبِين

سَلاَماً وأَمَاناً للعَالَمِين!

إلى أجْيَالِ الشَّبَابِ الصَّادِقِ الْمُؤْمِنِ.. ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ! وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً!﴾[٢٤٠]

إِلَيْكُمْ سَادَتِي.. أُهْدِي هَذِهِ اللَّوَعَات..!

خادمكم المحب: فريد الأنصاري.

---

[٢٤٠] الأحزاب: ٣٩.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى أتاه اليقين.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد، فهذه خلاصة عملية مأخوذة من كتابنا الموسوم بـ: "**الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام**"، اقتصرنا فيها ههنا على الجانب العملي دون التنظيري؛ وذلك قصد تيسير التطبيق لحقائق "المنهاج الفطري"، للراغبين في الدخول بمدارج التزكية القرآنية بهذا المشروع الدعوي. وبيان ذلك هو كما يلي:



الفطرية دراسة في المفهوم والأركان

الفِطْرِيَّةُ: مصدر صناعي أخذناه من الفطرة. وهو دال – بمصدريته تلك – على معنى دعوي. أي على "فِعْلٍ" واقع في الفطرة ومن أجلها، سواء في النفس أو في المجتمع. ومن هنا سَكَكْنَاهُ مصطلحاً نعبر به عن مشروع دعوي عام، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي، نرجو أن يوفقنا الله إليه. وهو ما نتوسل إلى محاولة ضبطه – في هذه الورقات – بمسمى الفطرية.

ولذلك جعلنا لها حَدّاً، وستةَ أركانٍ، وثلاثةَ مَسَالِكَ.

فأما حَدُّهَا فهو:

إِقَامَةُ الوَجْهِ لِلدِّينِ حَنِيفاً، خَالِصاً للهِ؛ وذلك بِمُكَابَدَةِ الْقُرْآنِ ومُجَاهَدَةِ النَّفْسِ بِهِ تَلَقِّيّاً وبَلاَغاً؛ قَصْدَ إِخْرَاجِهَا مِنْ تَشَوُّهَاتِ الْهَوَى إِلَى هُدَى الدِّينِ الْقَيِّمِ؛ ومِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلاَلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ بِاللهِ.

فبناء على هذا التعريف؛ تكون "الفِطْرِيَّةُ" عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية.

ذلك مقتضى الآيات – عِبَارةً وإشارةً وسياقاً – من قوله تعالى، الجامع المانع في هذا المعنى العظيم: ((بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي





مَن اَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ. وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.))(الروم:٢٩-٣١).

و الفِطْرِيَّةُ دائرة من حيث المنهج على تلقي رسالات القرآن، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً، إذ لا تَخَلُّقَ للنفس إلا بمعاناة! ولا تخلص لها من أهوائها إلا بمجاهدة! فالقرآن هو خطاب الفطرة، من حيث هي راجعة إلى "إقامة الوجه للدين"، (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا). وقد كان ذلك - منذ كان - بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها، بناءً وتربيةً وتثبيتاً، على مُكْثٍ من الزمان.

ذلك هو المنهج الدعوي الأصيل الذي يصرح به القرآن: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)(الفرقان: ٣٢). (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً)(الإسراء: ١٠٦). وتلك هي الحكمة الأولى من تنجيم القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة!



والمصطلح المفتاح لمنهج التعامل مع القرآن، في مدرسة "الفطرية"، هو مصطلح: "**التلقي**". لأن التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا **بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات!** تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى الله صلاحا وإصلاحا.

فمن قرأ سورة الإخلاص ولم يتخلق بالإخلاص، ولا هو تحقق به، فمعناه أنه لم يَتَلَقَّ سورةَ الإخلاص! ولا هو ممن تلاها حقّاً، ولو ظل يرددها آلاف المرات! (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ!)(البقرة: ١٢١). وكذلك من قرأ المعوذتين ولم يتحقق بما فيهما من أمان، ولا نزلت عليه سكينتهما، فإنه لم يتلق شيئا من السورتين! ومن قرأ سورة الفاتحة ولم يجد نفسه قد تخلق بالحمد، ثم اندرج بمدارج "إياك نعبد وإياك نستعين"؛ طلباً لهداية الرضى والتثبيت، فإنه لم يتلق الفاتحة بعد!

بهذا المنهج إذن تتلقى عزيمتُك رسالةَ الكلمات، فتشعر بمعاناتها، ويتلقى قلبُك هدايةَ الآيات، فيشعر بمكابداتها، وتجد نفسَكَ أنك تترقى حقيقة بمدارج الإيمان، تشاهد ذلك وتبصره! فلا يمضي عليها إلا وقت وجيز حتى تراها — بإذن الله – قد تحولت إلى منزلة أعلى من منازل الصلاح



والإصلاح؛ فتتحول المعاناة إلى لذة، وتصير المكابدة إلى حلاوة! ويصير الخوف إلى أمان. وإنما الموفَّق من وفقه الله.

تلك هي الفطرية، وذلك هو منهاجها لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً!

وأما **أركانها فستة** - هي مصطلحاتها المفتاحية - وهي:

١- الإخلاصُ مجاهدةً

٢- الآخِرةُ غايةً

٣- القرآنُ مدرسةً

٤- الربانيةُ برنامجاً

٥- العلمُ طريقةً

٦- الحكمةُ صبغةً

فأما الركن الأول، وهو:

- **الإخلاصُ مجاهدةً**: فهو فَصُّ الفطرية، ومُخُّهَا الذي تنطوي عليه، بما هي محاولة لإعادة بناء النفس على ما بُنيت عليه أول ما خُلقت، وقد كان أول بنائها على الفطرة، وقد سبق أن أصل الفطرة الإنسانية إنما هو إخلاص التوحيد لله رب العالمين. فكان مدارُ الفطرية - دعوةً وتربيةً - إنما هو على إفراد الله جلَّ جلالُه بالعبودية، وحده دون سواه، ونبذ سائر ضروب الشرك



والشركاء، ظاهرا وباطنا. فسائر الأعمال والعبادات في الإسلام إنما هي خادمة لهذا الركن الركين، وفروع لهذا الأصل العظيم. هو غايتها، وهو مقياس صحتها وفسادها. ولذلك وجب أن يُجعل الإخلاصُ – كما جعله الله في كتابه، وبَيَّنَهُ الرسولُ في منهاجه – مدارَ الدين والدعوة جميعا، وإلا صار العمل الإسلامي كله إلى انحراف وضلال!

إلا أن إخلاص التوحيد ليس مجرد معلومات تُلَقَّن، ولا منظومات تُستظهر، بل هو حقيقةٌ إيمانيةٌ عظمى، وخُلُقٌ قرآني عميق، لا يُنال إلا بمجاهدة ومكابدة! ولذلك قيدنا ركنيته ببيان طريقة التحقق به؛ بقولنا: "الإخلاصُ مجاهدةً". إذ مقتضاه راجع إلى معنى السير إلى الله على طريق الفناء في طاعته؛ لتحقيق خالص العبدية له وحده جل علاه، حتى لا يبقى منك شيء لسواه! فتجعل كل رغائبك وكل أهوائك وكل ذراتك، الظاهرة والباطنة، فانية في قصده هو جل جلاله، حتى يتحقق لك دوام الشهود لعبديتك الكاملة له، فلا تكون في شيء من عبادتك وعاداتك إلا بالله وله! (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِيَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)(الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

هذا هو المقصد الأساس من المدرسة القرآنية، والغاية الكبرى لبرنامج الربانية، والجامع المانع لمفهوم الفطرية. فمن أراد الإخلاص حقيقةً، وجب أن يتحقق بطريقة التخلق بمقامه، ومعراج الرقي إلى منزله، وإلا كان ممن يتمنى



على الله الأماني! وليس لذلك دون مكابدة القرآن ومجاهدة النفس به من سبيل! وإنما الموفق من وفقه الله.

وأما الركن الثاني، فهو:

- **الآخِرةُ غَايةً**: وهو ميزان الداعية المؤمن لتقويم صفاء دينه، وبوصلته لضبط مسار دعوته. وما ارتبط شيء في كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما ارتبط ركن الإيمان بالله بركن الإيمان باليوم الآخر! على نحو ما في قوله تعالى: (ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)(البقرة: ٢٣٢). وهو في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى! إذ الإيمان بالآخرة هو حادي العبد إلى تحقيق منزلة الإخلاص في إيمانه بالله جل علاه. ولذلك كان هذا البيان النبوي العجيب في رسم طريق الآخرة للمؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وجمعَ له شملَه، و أتته الدنيا وهي رَاغِمَةٌ! ومَنْ كَانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ جعلَ اللهُ فَقْرَهُ بين عينيه! وفَرَّقَ عليهِ شَمْلَهُ! ولم يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ!)[٢٤١].

فالحضور الأخروي الدائم في وجدان المؤمن يجعله آمنا من فتن الشهوات، ومن بريق الإغراءات، التي تفسد الدعوات وتدمر الحركات! وعدمُ العض

[٢٤١] أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم : ٦٥١٠ في صحيح الجامع.



على هذا المعنى العظيم في الإسلام بالنواجذ مُلْقٍ بالمرء - أنى كان موقعه الدعوي في العلم والعمل - إلى متاهات الضلال! ذلك أن قضية الحياة الآخرة هي جوهر العقيدة الإسلامية، ومآل العالم الوجودي كله! (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ!)(العنكبوت: ٦٤).

وإنما المؤمن الصادق بهذا الدين — بله الداعية إليه — رَجُلٌ أخروي بالقصد الأول! (أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ!)(التوبة: ٣٨).

وتتميز الفطرية بأنها تجعل لكل حقيقة من حقائق الدين ما جعله الله لها من الحجم والقَدْرِ، في الصورة الكلية للإسلام ديناً ودعوةً. لأن ذلك من خصائص الفطرة، ومن صفاتها الذاتية، بما هي الهيأة الأولى للدين، قبل أن يصيبها التغيير والتحريف. ومن هنا كان الركن الثاني من أركان الدعوة الفطرية: "**الآخِرةُ غايةً**"، وقَيَّدْنَا بالغاية؛ حتى لا يبقى هذا المعنى حبيس التصورات النظرية في الجدل الكلامي، بل ليصبح هدفا محددا واضحا، لكل عمل إسلامي يُرْجَى به نيلُ رضى الله، والفوز بالنعيم المقيم في جنات الخلد، والنجاة من عذاب الجحيم. ألاَ جعلني الله وإياك يا صاح من الفائزين بنعمته، الداخلين في رحمته! (يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ!)(الشعراء:٨٨-٨٩).



وأما الركن الثالث، فهو:

– **القرآنُ مدرسةً**: وهو الصبغة العامة للفطرية، بما هي قائمة أساسا على تلقي رسالات القرآن، سواء عبر برامج الربانية أو عبر مجالس القرآن. وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن، لأنه إنما أُنْزِلَ أساسا لهذا القصد الرباني العظيم. فالقرآن – بما هو كلامُ خالقِ الإنسان، العليم بأسرار تكوينه – هو كتاب إصلاح الفطرة الإنسانية وصيانتها. ومن هنا كانت الفطرية مدرسة قرآنية بالدرجة الأولى.

وأما الركن الرابع، فهو:

– **الربانيةُ برنامجاً**: وهو أحد مسالكها التربوية الرئيسة، الهادفة إلى تخريج طبقة الدعاة المربين، وهم طائفة الربانيين الحاملين لرسالة القرآن، المشتغلين بدعوته في الناس أجمعين، بما يقتضيه مفهوم الربانية من مقام إيماني عظيم، وفقه دعوي متين. ولذلك جعلنا لها برنامجا قرآنيا خاصا، استقريناه من مجموع الآيات الدالة على أخلاق الربانيين، وخصوص منازلهم الإيمانية، وما تقتضيه من العلم والحكمة، معزَّزاً بالبيانات النبوية، الرامية إلى تخريج أئمة الهدى في الدين.

وأما الركن الخامس، فهو:

– **العلمُ طريقةً**: وهو راجع إلى كون العلوم الشرعية أساسا، ومناهجها الاستدلالية والاجتهادية، وقواعدها النقدية والتأصيلية، هي المسلك الأساس



لبناء علم الناس بالله وبدينه، عقيدةً، وشريعةً، وتربيةً وسلوكاً. فلا مكان في الفطرية للخرافية، ولا للأهوائية الشخصانية. ومن هنا وجب أن تحمل رسالات الفطرية، لكل المسلمين، الحد الأدنى من العلم الشرعي، الذي لا يُعبد الله إلا به، عقيدةً وشريعةً. وذلك هو المسمى عند العلماء بـ"المعلوم من الدين بالضرورة"، أو "ما لا يَسَعُ المسلمَ جهلُه". ثم تحرض - في الوقت نفسه - نبغاء الشباب على تحقيق واجب الوقت، من التفرغ لطلب العلم الشرعي، بشروطه التخصصية؛ وذلك لمد الأمة بأجيال العلماء الربانيين، على ما بيناه في كتابنا "مفهوم العَالِمِيَّةِ". فذلك هدف استراتيجي، وجب أن يكون عمودا فقريا، في كل مشروع دعوي، انتصب لتجديد الدين بصدق وبجدية. وما التوفيق إلا بالله.

وأما الركن السادس، فهو:

- **الحكمةُ صبغةً:** وهو صمام الأمان لسير العمل الدعوي. وقد كان غياب الحكمة سببا رئيسا في هلاك كثير من الدعوات واندثارها، أو انحرافها. والحكمة في العمل الدعوي هي: "اتخاذ الإجراء المناسب، في الوقت المناسب، بالقَدْرِ المناسب". فهي إذن راجعة - في النهاية - إلى كلمة واحدة جامعة هي: حُسْنُ التَّقْدِيرِ والتدبير.

ويُتَحَقَّقُ منها بأمرين، أحدهما كسبي والآخر وهبي. فأما الكسبي فهو: الفقه في الدين بمعناه المنهجي، وخاصة منه ما يسمى عند الأصوليين بفقه "تحقيق

المناط" عَامِّهِ وخاصِّه[٢٤٢]، ويدخل فيه فقه الأولويات وفقه الموازنات، وما يندرج فيهما من قواعد التدرج والتلطف والتترس.

وأما الوهبي فهو: راجع إلى التخلق بمقامات التقوى والورع، إذ هي سبب وضع المؤمن في منزلة التعرض لنفحات الله، التي تفتح البصائر وتنير السرائر. وهو معنى الفرقان في قوله تعالى: (يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)(الأنفال: ٢٩). وكذا قوله تعالى: (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(البقرة: ٢٨٢). وفي هذا السياق أسند الله تعالى فعل إتيان الحكمة لنفسه تعالى؛ لنفي مطلقِ كسبيتها عن الإنسان، وهو قوله تعالى: (يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)(البقرة: ٢٦٩).

وقد كان شيخ المقاصد أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله – بما فتح الله له من العلم والحكمة – من أمهر العلماء الربانيين فقهاً لهذه الحقائق وتعبيرا عنها، بشقيها الكسبي والوهبي. وقد وردت عنه في ذلك إشراقات عجيبة، في نصوص شتى من كتابه الرائد الموافقات. ولنا أن نختار منها هذا النص الفريد، قال – رحمه الله – في وصف العالم الرباني الحكيم أنه: (لاَ يَذْكُرَ للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي! بل يربي بصغار العلم قبل كباره.

[٢٤٢] انظر تفصيل ذلك – إذا تشاء - في كتاب الموافقات للشاطبي: ٩٧/٤.



وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحة في نظر الفقه! (...) وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها؛ **فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله! فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم. وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية!)**[٢٤٣].

وهذه منزلة من العلم الرباني، وجب على الداخل في مدرسة الفطرية أن يحرص على التحقق بأسبابها، والتخلق بشروطها؛ عسى أن يكون من أهلها، ولو على مستوى المنهج في المجال الدعوي، إن لم يكن من أهل الاختصاص الشرعي والاجتهاد الفقهي. ومدرسة القرآن بما هي مَشْرَبٌ رباني صاف، كفيلة بتحقيق ذلك للصادقين من طلابها، بما يجعل الحكمة – بإذن الله – صفة جوهرية في التصرفات الدعوية لأبنائها؛ ولذلك جعلنا الركن الأخير من أركانها: (الحكمة صبغةً). كذلك، والله الموفق للخير والمعين عليه.

---

[٢٤٣] الموافقات: ٤/١٩٠-١٩١



تلك إذن هي أركان الفطرية الستة. ونحسب أن الدخول في برامجها القرآنية، من خلال مسالكها التربوية، كفيل بالتحقق التلقائي بها، ركنا ركنا. وإنما ذكرناها ههنا معزولة من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ حتى تكون تلك عونا على حسن تطبيق هذه. والله المستعان.

المسالك التربوية للفطرية

وأما **المسالك التربوية للفطرية فثلاثة**، وهي:

١- مجالس القرآن لتلقِّي حقائق الإيمان، والتخلق بمقتضياتها.

٢- بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليه.

٣- رباطات الفطرية، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية.[٢٤٤]

وبيان ذلك هو كما يلي:

---

[٢٤٤] جعلنا ذلك فيما كتبنا من قبل – بكتابنا بلاغ الرسالة القرآنية - في ثلاث خطوات، بصيغة: (اغتنام المجالسات، والتزام الرباطات، وتبليغ الرسالات). وكان الكلام عن "الرباطات" مقصورا على التزام المساجد، لكننا توسعنا ههنا بجعلها متبوعة بأعمال أخرى من أوراد الفطرة الضرورية للمؤمن فعلاً وتركاً، على ما يقتضيه قوله تعالى: ((أُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ! إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ! وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ! وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ!))(العنكبوت: ٤٥). وبالله تعالى التوفيق.

الْمَسَالِكُ التربويةُ لتجديدِ بناءِ الفِطْرَةِ، هي: مجموعة من المسالك التعبدية التي تقود العبد إلى الله، فَتُقَوِّمُ مَا شَاءَ من أخلاقه وطباعه، وتُصلح ما فسد من مزاجه وأفكاره؛ ليستقيم على خالص فطرته، وصفاء سريرته، عبداً خالصاً لله، ثم ترتقي به عبر مدارج الربانية؛ إلى أن يتخلَّقَ بِمَقَامِ الصِّدِّيقِيَّةِ – إن شاء الله – ويتَحَقَّقَ بِه.

وهي ثلاثة مسالك، نوردها كما يلي:

– المسلك الأول: الدخول في مجالس القرآن

وهي مجالس تربوية لِتَلَقِّي آيات القرآن، والتخلق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية، والتحقق بها، تعلما وتعليما، وتدبراً ومدارسةً. وهي تقوم على وظائف النبوة الثلاث، التي هي:

١– التلاوة بمنهج التلقي

٢– التزكية بمنهج التدبر

٣– تعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس[٢٤٥].

ويستعان على إعداد القلب وتهيئته للتلقي بقيام الليل، ولك أن تختار لنفسك ليلة – على حسب ظروف عملك – تقوم فيها بنحو مائة آية من

[٢٤٥] قد بينا ذلك مفصلا في كتيب "مجالس القرآن": ٣٥-٤٤

القرآن[٢٤٦]، مرة كل أسبوع على الأقل، عسى أن يصير ذلك لك عادةً يومية، تتنقل خلالها عبر منازل القرآن. وإذا أمكن أن نتحدث — في بداية الطريق – عن "تحقيق المناط التربوي"؛ فإنه يحسن الإكثار من القيام بسورة الفرقان في الركعة الأولى، وبسورة الحديد في الركعة الثانية، أو بسورة الملك؛ وذلك لما لهذه السور وأمثالها من ترياق عظيم لأمراض هذا العصر العصيب!

كما يحسن أن تكون سورةُ الفرقان خاصة، مما يُبدأ بتعلمه من القرآن الكريم، حفظاً ومدارسةً وتدبراً؛ لأنها باب عظيم من أبواب القرآن، ومدخل فسيح من مداخله الكبرى. مَنْ تَخَلَّقَ بحقائقها الإيمانية، وتحقق بمنازلها الربانية؛ نال من كنوزه الوفيرة فضلا عظيما! إذ فيها من الأسرار العَجَبُ العُجَابُ، عيونا تتدفق بالأنوار واللطائف والبركات، من بدايتها إلى نهايتها؛ بما يكفي السالكَ ويُمَكِّنُهُ – بعد تخلقه بأخلاقها وتحققه بمنازلها — أن يلج إلى مسالك القرآن جميعها! ويكون من (عباد الرحمن) حقيقةً![٢٤٧]

---

[٢٤٦] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قام بعشر آيات لم يُكْتَبْ من الغافلين! ومن قام بمائة آية كُتِبَ من القانتين! ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطرين!) رواه أبو داود وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

[٢٤٧] يكفيك من ذلك إشارةً أنَّ اسمها هو أحد أهم أسماء القرآن! ولا سورة سميت بمثل اسمها، مع أن أسماء القرآن الواردة بنصه كثير. ثم إن موقعها منفتح على أواسط القرآن، ولذلك فهي تدخل بصاحبها إلى ساحاته وباحاته؛ وتفضي به إلى معارجه ومقاصده. ومن هنا كانت آياتها كلها تدور على محاور القرآن الكبرى، بدءا بأصول الإيمان وحقيقة التوحيد والإخلاص، فدلائل النبوة، وحقائق البعث ومشاهد القيامة، والوعد والوعيد، وموازين العدل، وعِبَرِ القصص، ثم حِكَمِ التشريع وجماله. ولذلك

ويلحق بهذا المسلك فرع أصيل، وهو مجالس قرآنية لتخريج الدعاة القائمين على مجالس القرآن في الناس، والمؤطرين لها. يعتمدون فيه برنامجا تربويا خاصا، منتقى من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو:

- برنامج الربانية لتخريج الدعاة

إذ **الربانية**: هي **مرتبة الإمامة في مجاهدة النفس بالقرآن، على الالتزام بحقائقه الإيمانية، والتخلق بِحِكْمَتِهِ الرحمانية؛ إخلاصاً للهِ أولاً؛ حتى تفنى في دعوتها عن كل حظوظها، فلا يقوم شيء منها إلا لله وبه! ثم شهادةً بذلك على الناس، تربيةً ودعوةً، ثم صبراً واحتساباً.**

و**الربانيون** هم الأمناء على هذا المنهاج الدعوي، والقائمون به في المجتمع، والحاملون رسالته، تربيةً ودعوةً، على ما قرره القرآن الكريم في غير ما آية، من مثل قوله تعالى: (**وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ** بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ.)(آل عمران:٧٩). وقوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ **وَالرَّبَّانِيُّونَ** وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً)(المائدة:٤٤).

كانت خاتمتها تحمل من ثمار الإيمان ومدارجه ما يرتقي بالعبد إلى منازل الأولياء والصدِّيقين! وما التوفيق إلا بالله.





وكذا قوله سبحانه: (لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ **الرَّبَّانِيُّونَ** وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)(المائدة: ٦٣).

وقد أورد الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه قولاً تفسيريا لابنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قال: ("كُونُوا رَبَّانِيِّينَ": حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ). وقال الإمام البخاري بعد ذلك شارحا: (وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ: الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ.)[٢٤٨].

ومن هنا فالأمة في حاجة ماسة إلى تخريج طائفة عريضة من هذه النماذج الدعوية، وبثهم في كل منطقة وقطاع؛ للقيام بدور تجديد الدين، على موازين العلم والحكمة[٢٤٩].

– المسلك الثاني: بلاغ الرسالات.

وهو راجع إلى واجب الالتزام الدعوي للإنسان المسلم. وذلك لِمَا تعلق به من أهم صفات ما انتسب إليه من الإسلام: "الرسالية". قال – صلى الله عليه وسلم – في أمر مطلق لكل الأمة: (بَلِّغُوا عني و لو آيةً!)[٢٥٠]. ومن هنا كان المجتمع الإسلامي كله جماعة دعوية بطبيعته، وحياة إصلاحية بفطرته. إنه مذ أعلن أنَّ محمداً رسول الله، تقلد – بمقتضى عقيدة الاتباع – مهمة

---

[٢٤٨] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

[٢٤٩] قد أوردنا بعض المعالم المنهجية؛ لتكوين شخصية الداعية الرباني، في تمهيد "برنامج الربانية".

[٢٥٠] أخرجه البخاري.



الدعوة إلى الله. فليس عبثا أن يحض النبي صلى الله عليه وسلم - بكل وسائل التحريض والتشجيع - على الدعوة إلى الخير والهدى، كما في قوله: (فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ!)[٢٥١].

ومن هنا شهادة الله بالخيرية لهذه الأمة، في قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)(آل عمران:١١٠). إنها صفة عامة في كل من أسلم لله الواحد القهار، كل ينال منها على قدر طاقته ومسؤوليته.

لكن لا بد من بيان أن البلاغ اليوم في المسلمين ليس بلاغ (خبر) هذا الدين. فذلك أمر قام به الأولون. وما بقي اليوم صقع في الأرض لم تبلغه قصة الرسالة الإسلامية، على الجملة. وإنما المسلمون اليوم في حاجة إلى "إبصار". إبصار الحقائق القرآنية التي تتلى عليهم صباح مساء، وهم عنها عمون، على نحو ما وصف الله سبحانه في قوله: (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)(الأعراف:١٩٨)، وقوله سبحانه: (وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)(يوسف:١٠٥). فالبلاغ الذي نحن في حاجة إليه إنما هو بلاغ التبصير، لا بلاغ التخبير.

وأما مادته فما ذكرناه من أصول الرسالة القرآنية، وبلاغات القرآن[٢٥٢]: من اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى الله والتعريف به، واكتشاف الحياة

---

[٢٥١] متفق عليه.

الآخرة، واكتشاف روح الصلوات وحفظ الأوقات، وحقيقة الدعوة إلى الخير، وحكمة اتباع السنة؛ تزكيةً وتعلماً وتحلماً. ومفاتيح ذلك كله في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتلك هي وظيفة مجالس القرآن.

ومعلوم أن من أهم الوسائل الدعوية ذات الأثر العميق، خاصة في هذا العصر، إنما هي تأسيس "مجالس القرآن" كما وصفنا وبينا، وتكثير حِلَقِهَا وسوادها في الأمة؛ حتى تصبح جزءا أساسيا من حركة النسيج الاجتماعي العام، وتلون كل شرائحه الاجتماعية، على اختلاف طبقاتها وقطاعاتها. فالداعية المسلم يدعو إلى الله كلَّ الناس، وفي كل مناسبة، ومن على كل منبر! لكن "**مجلس القرآن**" في النهاية، هو أساس التزكية والتعليم، ومحضن التربية والتكوين، وضمان السير إلى الله. ومن هنا كان مسلك "بلاغ الرسالات" إنما يتم بالرجوع إلى مسلك "مجالس القرآن" تأسيساً وتوسيعاً.

– المسلك الثالث: رِبَاطُ الفِطْرِيَّةِ، بما يتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية. وما يلزم عن ذلك كله من فعل الصالحات وترك الموبقات.

فرباط الفطرية: هو أعمال واجبات، وتروك لازمات، وأذكار مندوبات، مما صح أن الرسول - صلى الله عليه وسلم – التزمه وداوم عليه. فالرباط الفطري هو معراج المؤمن الدائم إلى الله، وحصنه المنيع من كل فتنة أو آفة!

---

[٢٥٢] هي فصول كتابنا "بلاغ الرسالة القرآنية".

ولذلك فهو يتضمن بالأساس، أفعالاً واجبةً وأخرى محرمةً – من المعلوم من الدين بالضرورة – يلتزمها المؤمنُ فعلاً وتركاً أبداً، على أنها أذكار معنوية تُذَكِّرُهُ أبداً بالله؛ إذْ لا يصح سيره إلى الله إلا بها، كما سترى بمحله إن شاء الله. والغايةُ منه إنما هي إصلاح صورة النفس بتهذيبها وتشذيبها، وكذا تزكيتها بتغذية لطائفها؛ حتى تعود إلى أصل فِطْرَتِهَا.

وقد سمى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الاشتغال بالصلوات الخمس، وبكل ما تعلق بها من وضوء، ومشي إلى المساجد، وما انبنى عن ذلك كله من سوابق ولواحق من الاستعدادات والعبادات: "**رِبَاطاً**". ففي الحديث الصحيحِ من رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه — أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ! **فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!**))[٢٥٣].

فكون الصلاة والاشتغال بمقدماتها وتوابعها "**رباطا**"، بهذا الشمول التربوي الجامع، إنما هو باعتبارها صلةً للعبد بربه، وعاصما له من الزلات والغفلات! فهي لذلك فعلٌ وترك. وهي ذكر دائم لله. فذلك هو "الرباط". وتلك هي غاية كل فعل تربوي في الإسلام. ولذلك كانت الصلاة أعظم شعيرة عملية

[٢٥٣] رواه مالك في موطئه ومسلم في صحيحه، كما رواه أحمد والترمذي والنسائي.





في الدين! فهي أم الالتزامات والأوراد، وأساس كل الأذكار اللفظية والمعنوية جميعا. فالصلاة إذا تحقق بها العبد صدقا، وتخلق بمقاصدها الشرعية حقا — كانت عبادة جامعة مانعة! واقرأ إن شئت قوله تعالى: ((أُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ! إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ! وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ! وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ!))(العنكبوت: ٤٥). وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!**)

ومن هنا فإننا لم نعتمد في هذا المسلك سوى منهاج السنة النبوية الصحيحة. التي اشتغلت – في مجال إصلاح النفس – بالمعاني أساساً. حيث إنَّ الذِّكر على نوعين، هما: الذِّكْرُ العَدَدِيُّ والذِّكْرُ المِعْنَوِيُّ. فالعددي: هو الذي يرهن فيه المسلم نفسه بأعداد هائلة من الأذكار، تسبيحا وتهليلا واستغفارا... إلخ، بلوغا إلى الآلاف! وعلى هذا كان أغلب طرق الصوفية من المتأخرين خاصة. وتلك طريق طويلة محفوفة بالمخاطر! وقلما تصل بصاحبها إلى بر الأمان.

وأما النوع الثاني فهو: الذِّكْرُ الْمَعْنَوِيُّ.

وهو قائم أساسا على قصد ربط المؤمن بربه أبداً، بالأقوال والأفعال والتروك. حيث يجتهد العبد ليحقق في كل حركة، وفي كل كلمة، وفي كل هيأة، من سائر الأفعال والتروك التعبدية التي يدخل فيها، معناها الذي شُرعت له؛ فيكون بذلك في أعلى مقامات الذِّكْرِ. ولذلك كانت الصلاة مثلا بهذا





المعنى ذِكْراً، كما في قوله تعالى: (فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)(طه: ١٤)، وكان القرآن أيضا بهذا المعنى ذِكْراً، كما في قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(النحل: ٤٤)، كما كان ترك الكبائر والموبقات –كلما عرضت للمؤمن – ذِكْراً أيضا؛ لأن الوقوع فيها آنئذ لا يكون إلا غفلة منه عن إيمانه، وهو ضد معنى الذكر. ومثاله الواضح ما ورد في الحديث النبوي المتفق عليه، من قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن!)[٢٥٤]، وذلك لما لهذه الأفعال والتروك وأضرابها جميعا من تغذية قوية للقلب، وإمداد له بحقائق الإيمان، وهو معنى الذكر وغايته.

فإذا أُخِذَ الذِّكْرُ العددي بموازينه الثابتة في السنة الصحيحة، وطُبق على هذا الميزان، كان ذكرا معنويا أيضا، وكانت عدديته تابعة لهذا القصد. لأن الأذكار النبوية التي بنيت على أعداد معينة إنما جعلتها وسيلة لتعميق المعاني أساساً، ولضمان تغذية القلب بها. فالأعداد فيها تابعة للمعاني والعكس غير صحيح.

[٢٥٤] متفق عليه.





وذلك هو الذكر السُّني النبوي. ولذلك ما ثبت في السنة منه إلا ما يدور على المرة الواحدة والثلاث ثم العشرة حتى المائة، على أقصى تقدير. ولم يرد ما يجاوز ذلك ليبلغ المئات بله الآلاف! إذ القصد الشرعي من الذكر إنما هو ربط القلوب بالله، والترقي بها عبر مدارج الإيمان. وهذا إنما يتم بالتحقق والتخلق بالحقائق الإيمانية والصفات الربانية. ولا يكون ذلك إلا بالإبحار في سفائن المعنى، تركيزا على قليل الألفاظ، المكتنزة بالحقائق الروحية، والمتدرجة بالعبد تربيةً وتزكيةً في طريق السير إلى الله، بما تتيحه له من التدبر والتذكر، والتغذية الإيمانية المنقطعة النظير، التي تقوم بإعادة بناء عمرانه الروحي، وترميم حصنه النفسي. عسى أن ينجح في ابتلاءاتها في مجال التدافع الاجتماعي، والافتتان الدنيوي من أمور المال والأعمال، وسائر معارض الشهوات ومواطنها.

وعلى ذلك المنهاج كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدرب أصحابه ويعلمهم. وشواهده في السنة كثير، بل ذلك هو فعله - عليه الصلاة والسلام - في نفسه بنفسه. ويكفينا من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، من حديث أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنها أن النبي - صلى الله عليه وَسَلَّم - خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها – يعني وهي تُسَبِّحُ - ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة على حالها، فقال: (ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟) قالت: نعم. فقال النبي صلى الله عليه وَسَلَّم: (لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو



وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: "سبحان الله وبحمده، عددَ خلقِه، ورِضَا نفسِه، وزِنَةَ عرشِه، ومِدَادَ كلماتِه!")[٢٥٥].

ومعلوم أن الكثرة من ذلك تُفْقِدُ اللفظَ حقيقتَه في النفس، وتخرجه عن منهاج السنة النبوية؛ فتحتجب أسرارُه وتغيب أنواره! إذْ أن تضخيم جانب من جوانب الدين – بما يخرجه عن أصله المسنون – يؤدي قطعا إلى ضمور جانب آخر، ربما كان أوجب في الدين وأهم. والحكمةُ إنما هي إعطاء كل شيء قَدْرَهُ الذي أعطاه الشرع له.

وعلى هذا المنهج بنينا ما جمعناه من "**أوراد الفطرة**" للعمل اليومي، في "**رباط الفطرة**" الدائم. وهو أربعة التزامات:

– الالتزام الأول: شهود الصلوات الخمس والتزام رباطاتها

وذلك بمجاهدة النفس في كل صلاة من الصلوات الخمس؛ للتحقق من مقام العبودية خشوعاً فيها؛ حتى تجد فعلا أنك بين يدي الله جل جلاله! تناجيه ثم تركع له وتسجد، بما هو ربك ورب العالمين، وبما أنت عبده المتبتل بين يديه! فهذا جوهر هذا المسلك وحقيقته. فكل صلاة ضاع منها شهود المناجاة لله رب العالمين، فَقَدَتْ معنى كونها مسلكا تعبديا، وورِدا تربويا. بل فقدت معنى كونها صلاة على الحقيقة! فعن أنَسٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ أحَدَكُمْ إذَا قَامَ في صَلاَتِهِ فإنَّهُ يُنَاجِي

---

[٢٥٥] رواه مسلم.

رَبَّهُ!)[٢٥٦] وفي رواية أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما: (إنَّ الْمُصَلِّيَ يُنَاجِي رَبَّهُ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يُنَاجِيهِ!)[٢٥٧]. وفي صيغة لأبي هريرة خاصة: (فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيهِ!)

وإنما ذلك يكون بثلاثة أمور، أولها: تحقيق تكبيرة الإحرام ابتداءً، حيث يكون شهود العبد لحقيقتها تخلصا من مؤثرات كل الأغيار، وإشهادا للقلب مقامَ الوقوف بين يدي الواحد القهار! وأما الثاني: فهو شهود مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) - عند قراءة الفاتحة - بما هو تحقيقٌ عميقٌ لإخلاص العبادة لله رب العالمين، وحده دون سواه، وبما هو تجميعٌ للقلب على توحيد المعبودية في ذات الله جل علاه. وأما الثالث: فهو تحقيق الخضوع في هيئتي السجود والركوع؛ لتذوق مواجيد العَبْدِيَّةِ لله. وذلك مفض إلى مشاهدة معاني كل حركات الصلاة وتسبيحاتها، فإن لكل هيئة مَقَاماً ولكل عبارة حالاً. ذلك أنه إذا استقامت هذه الثلاثة للعبد في صلاته استقام له كل أفعالها وأقوالها؛ لِمَا لتلك من تأثير كبير على صلاح باقيها قولا وعملا؛ وبذلك تكون الصلاةُ وِرْداً تربويا حقيقيا، ينهى صاحبَه عن الفحشاء والمنكر فعلاً، ويعرج به عبر منازل الإيمان. ولا معراج أسرع في الوصول إلى الله من الصلاة!

---

[٢٥٦] متفق عليه.

[٢٥٧] رواه الحاكم والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير. وقد رُوي نحو ذلك بطرق شتى في الصحيحين وغيرهما.

ومما يعطي للصلاة عمقَها الروحي عُمْرَانُ سجودِها – بعد التسبيح – بخالص الدعاء! وإنه لا يذوق معنى السجود حقا، ولا يستفيد من أنواره الفياضة على القلب، إلا مَنْ وَضَعَ جبهته على الأرض خاضعا لله، ومتذللا بين يديه تعالى بِأَحَرِّ الدعواتِ وأَخْلَصِهَا! وحَرِيٌّ بالمؤمن أن يذكر هَدْيَ النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (أَقْرَبُ ما يَكُونُ العبدُ من رَبِّهِ وهو ساجدٌ؛ فأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ!)[٢٥٨] وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (فأمَّا الركوعُ فَعَظِّمُوا فيهِ الرَّبَّ! وأمَّا السُّجُودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعَاءِ؛ فَقَمَنٌ أنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ!)[٢٥٩].

وأما التزام **رباط الصلاة** فإنما القصد به المساجد حيثما كانت. وذلك ببذل غاية الوسع لأداء الصلاة المفروضة بها. قال اللهُ جَلَّ عُلاه: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)(النور:٣٦ . ٣٨). ذلك ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالرباط)، في حديثه المذكور قبل.

– الالتزام الثاني: في المختار من الذِّكْرِ العَدَدِيِّ

---

[٢٥٨] رواه مسلم.

[٢٥٩] رواه مسلم. وقوله: "قَمَنٌ"، معناه: جَدِيرٌ، وحَرِيٌّ.

صيغ الأذكار اللسانية الواردة في السنة الصحيحة كثير، وللمؤمن أن يختار منها ما يشاء، على حسب حاجته وعلته، إذ لكل داء دواء. وهذا نوع من تحقيق المناط الخاص، كما عبر عنه الإمام الشاطبي رحمه الله. إلا أنه ثبت باستقراء تلك الصيغ والأذكار، أن منها ما يمكن اعتباره أصولاً للذكر في الإسلام، مما اطرد العمل به، أو تواتر الأمر به في نصوص القرآن الكريم وبيانات السنة النبوية الصحيحة، ومما اشتهر محكيا في كتاب الله على ألسنة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومما مُدِحُوا بالتزامه والمداومة عليه بالغدو والآصال. وصيغه جميعها - باختلاف عباراتها - تدور على الإجمال حول أربعة أصول:

أولها: الاستغفار، وثانيها: التهليل، وثالثها: التسبيح، ورابعها: الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم.[٢٦٠]

ولا شك أن غيرها من الأذكار النبوية كثير، لكننا نحسب أن هذه المحاور الأربعة المذكورة – لأصليتها، ولتواتر الأمر والعمل بها - هي مما لا يجمل بالمؤمن أن تخلو أوراده منه. ومن هنا كان لك - أخي المحب في الله - أن تتوسع ما شئت في الذكر، على حسب حاجتك وطبيعة علتك؛ بشرط الالتزام بالمنهج المسنون قولاً وعملاً. عسى أن تكون على الفطرة.

[٢٦٠] ن. ذلك مفصلا بأدلته في رسالة ميثاق العهد: ١٤٥.

وعليه؛ فلك أن تختار من صيغ الأصول الأربعة الصيغ النبوية التالية، تركب منها لنفسك وردا يوميا، وذلك على نحو ما يلي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ. وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.)(الروم:٢٩-٣١).[٢٦١]

[٢٦١] يجوز للمؤمن أن يختار آية من كتاب الله، أو سورة، يلتزم قراءتها يوميا أو كثيرا؛ إذا وجد فيها مناسبة لحاله أو علاجا لدائه، أو لعصره. كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح بسورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح: "قل هو الله أحد"، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك في كل ركعة! فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذا السورة، ثم لا ترى أنك تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها! إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم! وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبروه الخبر، فقال: "يا فلان! ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، ويحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟" فقال: "إني أحبها!" فقال صلى الله عليه وسلم: "حبك إياها أدخلك الجنة!") رواه البخاري.

- اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عليَّ وأَبُوءُ بِذَنْبِي، فاغْفِرْ لي فإنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ.(1 مرة)[٢٦٢].

- أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه. (1 مرة)[٢٦٣].

- أستغفر الله وأتوب إليه. (100 مرة)[٢٦٤].

- لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (10 مرات)[٢٦٥].

---

[٢٦٢] عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سَيِّدُ الاسْتِغْفارِ أنْ يقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبّي لا إلهَ إلاَّ أنْتَ..."إلخ، (كما هو مذكور أعلاه) فقال صلى الله عليه وسلم بعدها: "مَنْ قَالَهَا بالنَّهارِ مُوقِناً بِها فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ! وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ موقِنٌ بها فَمَاتَ قَبْلَ أنْ يُصْبحَ فَهُوَ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ!"رواه البخاري.

[٢٦٣] عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه وإن كان قد فرَّ من الزحف!) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْتِّرْمِذِيُّ والحاكم وقال حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني أيضا في صحيح الترمذي: ١٧٢/٣.

[٢٦٤] عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر مِنْ سبعين مرة!) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وقال صلى الله عليه وسلم: (استغفروا ربكم إني استغفر الله و أتوب إليه كل يوم مائة مرة!). رواه البغوي، وصححه الألباني. انظر حديث رقم: ٩٤٤ في صحيح الجامع. وقال صلى الله عليه وسلم: (إنه لَيُغَانُّ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة!) رواه مسلم.



- لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ (3 مرات)[٢٦٦].

- اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالْحَمْدُ لله كَثِيراً، وَسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وأصِيلاً (3 مرات)[٢٦٧].

---

[٢٦٥] عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير الدعاء يوم عرفة. وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير". رواه الترمذي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم : ٣٢٧٤. وعن عمارة بن شبيب السبائي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (مَنْ قَالَ: "لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي ويُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"؛ عَشْرَ مراتٍ، علَى إِثْرِ الْمَغْرِبِ؛ بَعَثَ اللهُ **مَسْلَحَةً** يَحْفَظُونَهُ من الشَّيطانِ حتى يُصْبِحَ، وكَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عشرَ حسناتٍ مُوجِبَاتٍ، ومَحَا عنه عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مُوبِقَاتٍ، وكانتْ له بِعِدْلِ عشرِ رِقَابٍ مُؤمِنَاتٍ!) رواه الترمذي وحسنه. ثم حسنه الألباني في صحيح الترمذي وفي صحيح الترغيب والترهيب. وقد فصلنا في تخريج طرقه بكتابنا ميثاق العهد.

[٢٦٦] وقد ورد في فضلها العظيم أحاديث كثيرة بلغت بمجموعها حد التواتر، منها ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم). وأنا خلف دابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعني وأنا أقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، فقال لي: "يا عبد الله بن قيس!" قلت: لبيك يا رسول الله! قال: "ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟" قلت: بلى يا رسول الله! فداك أبي وأمي! قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله!") متفق عليه. وقد فصلنا في تخريج أحاديثها الأخرى في ميثاق العهد.

[٢٦٧] عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذْ قالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: "الله أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالْحَمْدُ لله كَثِيراً، وَسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وأصِيلاً". فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: مَنِ القَائِلُ كَذَا وَكَذَا؟





- سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَا نفسِه، وزِنَةَ عرشِه، ومِدادَ كلماتِه (3 مرات).[268]

- سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ. (50 + 50 = 100)[269].

- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آل سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كمَا بَارَكْتَ على سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وعلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي العَالَمِينَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.(1 مرة)[270].

فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ أَنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ! قالَ ابنُ عُمَر: مَا تَرَكْتُهُنّ مُنْذُ سَمِعْتُهن مِنْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم» رواه مسلم.

[268] سبق تخريجه.

[269] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ على اللِّسانِ، ثَقِيلَتَانِ في المِيزَانِ، حَبيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ: "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ") متفق عليه. و قال أيضا: (من قال: "سُبْحَانَ اللَّه وبحمده" في يوم مائة مرة؛ حُطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر!)(متفق عليه).

[270] هذه صيغة الصلاة الإبراهيمية، مختارة ومختصرة من عدة صيغ في الصحيحين وفي غيرهما. منها ما أخرجاه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: بلى، فأهدها لي، فقال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهلَ البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم، قال: (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ...إلخ) متفق عليه. وفضل الصلاة على سيدنا محمد عظيم جدا، وهي مفتاح خير كبير، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا)(رواه مسلم).



- اللَّهُمَّ صَلِّ وبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وسَلِّمْ تَسْلِيماً. (10 مرات).

- يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ! أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ! يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ!(3 مرات)[٢٧١].

- وَارْضَ اللَّهُمَّ عن ساداتِنا أصحابِ رسولِ الله أجمعين، خصوصاً الأنصارَ والمهاجرين، والخلفاءَ الراشدين، أُمَرَاءَ المؤمنين: أبَا بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمَانَ، وعَلِيّاً. وعلَى كُلِّ من اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، واقْتَدَى بِهَدْيِهِمْ، من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم انفعنا بمحبتهم، وثبتنا على سنتهم، ولا تخالف بنا عن نهجهم، واحشرنا في زمرتهم، مع رسولك الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم.

---

[٢٧١] عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة: (ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به: أن تقولي إذا أصبحت و إذا أمسيت: " يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ!") أخرجه الترمذي والنسائي والطبراني والحاكم وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة. وعنه رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبَهُ أَمْرٌ قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث!") رواه الترمذي بسند حسن. وبإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلِظُوا بِيَا ذَا الْجَلاَلِ والإِكْرَامِ!) وقد رواه أحمد أيضا بسند صحيح كما في صحيح الجامع. ومعنى أَلِظُوا: الزموا وداوموا. يقال: أَلِظَ يَلِظُ، إذا ثبت وثابر.



اللهم اجعلنا على هُدَاهُ ثابتين، لاَ مُبَدِّلِينَ ولاَ مُغَيِّرِينَ، حتى نلقاك مُقْبِلِينَ على وجهك الكريم، تائبينَ مُتَطَهِّرِينَ، رَاضِينَ مَرْضِيِّينَ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ يَا رَبَّ العالمينَ. آمين.

- سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك.[٢٧٢]- انتهى.

هذا، ولا تنس أخي المؤمن - في سياق الذكر - الالتزام بأدعية اليوم والليلة، كدعاء النوم والاستيقاظ منه، وأدعية الخروج والدخول والسفر، وسائر الأحوال، مما هو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما أن على المؤمن أن تكون له أوقاتٌ مع ربه؛ لمناجاته جَلَّ جَلاَلُهُ، ورفع أكف الضراعة إليه تعالى، بالأدعية التي يجد فيها العبدُ علاجا لقلبه وغذاء لروحه. ولا يجوز لأهل الدعوة خاصة، أن تخلو حياتهم من هذا! إذِ الدعاء هو من أهم الزاد اليومي للعبد السائر إلى الله، ومن أهم أسباب الفتح والنصر[٢٧٣]. وقد ثبتت في ذلك أحاديث وفيرة، منها قوله صلى الله عليه

---

[٢٧٢] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفارة المجلس أن يقول العبد: "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك") رواه الطبراني عن ابن عمرو، وعن ابن مسعود. وصححه الألباني انظر حديث رقم: ٤٤٨٧ في صحيح الجامع.

[٢٧٣] وقد جمعنا في ذلك رسالتين صغيرتين، انتقينا أدعيتهما من القرآن الكريم والسنة النبوية. الأولى: هي "ميثاق العهد"، وقد صدرت طبعتها الأولى. والثانية: هي "كاشف الأحزان"، ونحن نعدها للطبع إن شاء الله.






وسلم: (الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ!)[٢٧٤]. وقد فصلنا في تأصيل هذا – في غير هذا الموطن – بما فيه الكفاية إن شاء الله[٢٧٥].

– الالتزام الثالث: مقاطعة آلهة العصر الأربعة.

وأولها: الشركيات والخرافيات. ثانيها: المال الحرام بكل أصنافه. ثالثها: الزنى ومقدماته، وأخصها العري الفاحش، والنظر الحرام، ثم بذيء الكلام. رابعها: الخمر والمخدرات وسائر المسكرات.

وقد جعلنا الأمور الثلاثة الأخيرة (المال الحرام، والزنى، والخمر) ضمن آلهة العصر إلى جانب الشركيات، رغم أن تلك من أمور العادات والمعاملات؛ وذلك لما نعلمه من تضخم الابتلاء بها في هذا الزمان، ومن صيرورة التعاطي لها بين كثير من الناس إلى معنى الوثنية الأهوائية، بما جعلها تنتصب في الوجدان الاجتماعي آلهة معنوية، تصد الناس عن عبادة الله، وعن إخلاص الدين له، وحده دون سواه! وذلك في حقيقة الأمر ليس بجديد، بل هو مما بيَّنه النبي – صلى الله عليه وسلم – في السنة النبوية الصحيحة؛ إذ التعاطي لشرب الخمر كان عند العرب قديما عملا وثنيا، بما ذكرنا من معنى. قال عليه الصلاة والسلام: (شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ! وشَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ

---

[٢٧٤] أخرجه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم عن النعمان بن بشير مرفوعا. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: ٣٤٠٧.

[٢٧٥] ن. رسالتنا: "كاشف الأحزان".



اللاَّتِ والعُزَّى!)[٢٧٦] وهو الداء الذي صارت إليه الأحوال في انتشار الزنى والتفسخ الخلقي، وتقديس المال الحرام! حتى صار لدى كثير من الناس من الإدمان على ذلك ما يصعب الانفكاك عنه! إذْ عبدوا فيه من أهوائهم وشهواتهم أوثانا من دون الله! وبيان ذلك كما يلي:

فأما الشِّرْكِيَّاتُ والخُرَافِيَّاتُ: فهي المعتقدات الباطلة، التي تخرم إخلاص الدين لله، وتعكر صفاء التوحيد، والتي ما تزال تعم بها البلوى بين كثير من الناس اليوم، خاصتهم وعامتهم، فتخرم إخلاصهم، وتشوه فطرتهم، وتخرب دينهم، عقيدةً وعملاً.

والبراءة منها تكون بعدم اعتقاد تأثير أحد غير الله في الكون وسائر الخلائق، نفعا أو ضرا، ثم عدم التوجه إلى أحد سواه بالاستغاثة والدعاء رَغَباً أو رَهَباً. وذلك هو الإخلاص الذي أمرنا اللهُ ورسولُه - صلى الله عليه وسلم – باعتقاده، ومجاهدة النفس للتحقق بمقتضياته العملية والخلقية. وهو الحقيقة الإيمانية العظمى التي يجب أن تكون سارية في دين المسلم كله، عقيدةً وشريعةً، كسريان السمن في اللبن، وكانتشار الروح في الجسد. وذلك هو أساس معنى الفطرة التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها، والتي عليها مدار دعوة الإسلام.

---

[٢٧٦] أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم: ٣٧٠١ في صحيح الجامع.

ويتحقق ذلك بإفراد الله – جَلَّ جلالُه – بما تقتضيه ربوبيته تعالى، وعدم الإشراك به في شيء من ذلك، خَلْقاً وتقديراً ورعايةً وتدبيراً. فلا دخل لأحد من خلقه في شؤون ربوبيته تعالى. كما يتحقق ذلك بإفراده وحده سبحانه بالعبادة والاستعانة، والتوجه إليه وحده بالطَّلَبِ والرَّغَبِ، لا إلى أحد من خلقه، مهما عَلَتْ منزلته عند الله، سواء في ذلك الأنبياء والصَّدِّيقُونَ، والملائكة المقرَّبون، والأولياء الصالحون، وكذلك الأموات والأحياء، والإنس والجن، فكلهم جميعا عبيدٌ لله، فقراء إليه تعالى. ولا أحد منهم يغني عن أحد من الله شيئا! (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيئِينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً. قُلُ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً)(الإسراء: ٥٥-٥٧).

كما يتحقق ذلك أيضا بعدم تقديم شيءٍ من النُّسُكِ لأحد غير الله. ومعنى النُّسُكِ: هو الذبح المقصود به التعبد والتقرب إلى المذبوح له؛ قصد نيل رضاه على سبيل التعبد، أو لقضاء الحوائج ودفع المضار، وما شابه ذلك من معاني العبادة التي تكون بتقديم القرابين من الأنعام بين يدي المعبود، مما يعتبر اللجوء فيه إلى غير الله ضربا من ضروب الشرك المحبط للأعمال، والعياذ بالله. (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِيَ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)(الأنعام: ١٦٢-١٦٣). ولا





ينبغي أن تستهين بشيء من ذلك مهما صغر، أعني سواء كان القُرْبَانُ المذبوح طيرا أو تيسا أو ثورا، وسواء كان على أعتاب جني أو إنسي، حي أو ميت، فكل ذلك شرك خطير، مُورِدٌ لصاحبه مورد الهلاك، إلا أن يتوب توبة نصوحا.

ثم يتحقق ذلك أيضا بعدم الالتجاء إلى الدَّجَاجِلَةِ، من السَّحَرَةِ والكَهَنَةِ والعَرَّافِينَ والمشعوذين، ممن يدعي القدرة على كشف المغيَّبات، والاطلاع على المستقبليات، والأبراج الخرافيات، وسائر ضروب "المشاهدات" الشيطانية. أو ممن يدعي القدرة على التأثير السحري في الأشخاص؛ باستجلاب المحبة القهرية أو الكراهية القسرية، منهم أو إليهم. أو ممن يدعي القدرة على العلاج من الأمراض المزمنة والمستعصية بوسائل شيطانية! وكذا عدم الاغترار بالتوهمات التخييلية، التي تناقض قواطع الكتاب والسنة في الاعتقاد السليم، والتي قد تحصل لبعض المتصدرين للمجال الديني والدعوي، أو ممن اشتهروا بالتدين المزيف، من بعض جهلة العباد، الذين أوقعهم الشيطان في شِرَاكِهِ من حيث لا يعلمون! فكل شيء مما يصدر عن هؤلاء وأولئك، يجب عرضه على ميزان العلم الشرعي، ورده إلى العلماء الراسخين، والحكماء الربانيين، المتحققين بعلوم الشريعة ومقاصدها، أصولها وفروعها، وعدم المغامرة بالاستجابة في شيء من ذلك إلى نوازع الشهوات والأهواء! وإنما المؤمنُ العاقلُ، الكَيِّسُ الفَطِنُ، هو من لا يقامر بمصيره الأخروي في قضايا العقائد وأصول الإيمان والإخلاص!



فكل ذلك من الكبائر والموبقات المحبطة للأعمال والمخربة للدين! فلا يجوز الاستهانة بشيء منها أبدا! فإنما هي سُبُلُ الشيطان يُضِلُّ بها كثيرا من الخلق، وينحرف بهم عن الصراط المستقيم، ويستجلب لهم غضب الله والعياذ بالله! فسلامة الإيمان وصحة الاعتقاد، هي أولى خطوات السير إلى الله، لا يسلم ما بعدها أبداً إذا كانت هي على غير الاتجاه الصحيح! فاحرص أخي المؤمن على تصفية هذه القضية، بجعل الدين كله لله، ولله وحده دون سواه! قولاً وعملاً. ولا تغامر بالدخول في شيء من ذلك، ولا باللجوء إليه أو إلى أصحابه، ولو على سبيل التسلية أو التجريب! فالنصوص الشرعية شديدة في النهي عن كل ذلك جِدِّهِ وهَزْلِهِ! وإنما هي موبقات وظلمات، بعضها فوق بعض! ما تزال تستدرج صاحبها من الهزل إلى الجد، ومن القليل إلى الكثير، ومن التجريب إلى الإدمان، حتى تكبه على وجهه في النار! وإنما المحفوظ من حفظه الله.

وأما المال الحرام فإنه يمحق البركة ويخرب عمران الروح، ويمنع استجابة الدعاء، وتُغلق دون صاحبه أبواب السماء! ذلك أن الانطلاق في مدارج السير إلى الله مشروط بتصفية الأرزاق من شبهات الحرام! وبالتحري في تناول الطيبات من الرزق؛ لأن الطيب وحده يغذي الروح بعزائم الإقبال على الله، والتجرد للعمل الصالح. وكل لقمة من رزق حرام لا تكون في جوف صاحبها إلا مجلبة للانتكاس والارتكاس! وعُشّاً للشيطان في قلب صاحبها وتقوية لسلطانه على النفس! فلا تكون مدافعة وساوسه ونزغاته

بعدها إلا أشد على النفس وأنكى! والعمل الصالح نبات خير، لكنه لا ينبت إلا بتربة طيبة وهو الرزق الطيب الحلال! فإن وُضِعَتْ بَذْرَتُهُ فيه كان (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا!)(إبراهيم:٢٥) وإن وُضِعَتْ بذرتُه في نفس تغذت من مال خبيث لم ينتج إلا شوكا وحطبا!

تلك معالم نورانية من توجيه النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا! وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ"(المؤمنون:٥١) وَقَالَ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"(البقرة:١٧٢). ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ" يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!)[٢٧٧].

لاَ تَأْكُلِ الرِّبَا! فإِنَّهُ شَرُّ الْمَالِ الْحَرَامِ!

المال الحرام: هو كل كسب حازه الإنسان على غير وجه مشروع. مما نتج عن الغصب، والرشوة، والغبن في البيع والغش فيه، والاستفادة المالية من المحرمات المطعومة والمشروبة، والنجسات والمتنجسات، إنتاجا وبيعا

[٢٧٧] أخرجه مسلم.

وخدمات. وكذلك أكل أموال الناس بالباطل، وبيع الأعراض، وحلوان الكاهن والساحر والعراف. وسائر أنواع السحت، وكل ما لا يصح تملكه، مما حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

إلا أن شر ذلك جميعا هو الربا! فالربا إعلان للحرب على الله! ومن حَارَبَ اللهَ حَارَبَهُ اللهُ! ومن حَارَبَهُ اللهُ — يَا وَيْلَهُ! – أَهْلَكَهُ! وألحق به الخرابَ في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة والعياذ بالله! وإن المرءِ ليظن أنه بالربا قد جمع وعَمَّرَ وبَنَى! ذلك ما قد يبدو له في ظاهر الأمر، لكن الله تعالى له بالمرصاد، إذ يسلط عليه من المصائب والبلايا في نفسه وأسرته وحياته، ما يجعلُ مالَه عليه شقاءً ما بعده من شقاء! وقد يُخرج له من نفسه أو أبنائه من يخرب عليه دنياه قبل آخرته! أو يسلط عليه من الأمراض الفتاكة ما يجعله يذوي شيئا فشيئا، فلا ينفعه مالُه ولا جاهه وسلطانه! أو يجعل خاتمته إلى مهانة اجتماعية، ومذلة دنيوية، تقوده إلى السجن أو إلى أي هاوية يلقى فيها حتفه! إن من حارب اللهَ خاسرٌ لا محالة! وعجيب من لا يقدر اللهَ حق قَدْرِهِ! (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ!)(الزمر: ٦٧)

وما رأيت في كتاب الله ولا في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عقوبةً ولا نذارةً – بعد الشرك بالله – أشدَّ من عقوبة الربا! أوَ لا يكفي فيها أن يبوء صاحبُها بغضب الله ولعنته؟! فلا تستقيم له دنيا ولا يسعد بآخرة!

تتبعه اللعنة أينما حل وارتحل! لا يقوم له شيء إلا انهار! ولا يَعْلُو له عُمْرَانٌ إلا ضربه إعصار الخراب! فماذا بعد ذلك من مصيبة وبلاء!؟

وليس عبثا أن ينطق الرسول بهذا البيان الإنذاري الرهيب في حق المرابين، مبينا مَهْلَكَةَ الربا، كم هي أشد وأخطر من غيرها! وكم هي أفظع من كثير من الكبائر والموبقات! قال عليه الصلاة والسلام: (دِرْهَمٌ رِبَا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاَثِينَ زَنْيَةً!)[٢٧٨] كذا!!

وإنما العجب كل العجب! ممن يتجرؤون على الترخص - بغير موجبات شرعية - في أمْرٍ مَدَاخِلُهُ مفتوحةٌ مباشرةً على أبواب جهنم! فاقرأ هذه الآيات وتدبر! هل تجد وعيداً أشدَّ منها! قال الله جلَّ جلالُه: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ! ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا. فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ. وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ! يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ! إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ! فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ

[٢٧٨] أخرجه أحمد والطبراني عن عبدالله بن حنظلة مرفوعاً. وصححه الألباني. حديث رقم : ٣٣٧٥ في صحيح الجامع.

بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ!)(البقرة: ٢٧٥-٢٧٩).

ذلك هو الحق! (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ؟!)(يونس: ٣٢)

وكيف لا؟ وهذه لعنةُ الله تَتْرَى على لسان رسول الله، جحيماً يُلاَحِقُ المرابين أبداً، إلا أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً! يستوي في ذلك آكِلُ الرِّبَا ومَنْ أعْطَى ثَمَنَهُ، ومن ضَمِنَهُ، وكل من أعان على عقوده، كتابةً وشهادةً وإدارةً، كلهم في لعنة الله سواء! ذلك صريح حديث رسول الله! ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَهُ وشَاهِدَيْهِ وكَاتِبَهُ! هُمْ فِيهِ سَوَاءٌ!)[٢٧٩] كما يستوي في ذلك من طلب الزيادة الربوية ومن أعطاها! وهو نص الحديث الصحيح: (فَمَنْ زَادَ أوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أرْبَى! وَالآخِذُ وَالْمُعْطِي سَوَاءٌ!)[٢٨٠]

والعجيب – بعد هذا وذاك – أن تجد بعض المشتغلين في صف "العمل الإسلامي" يتطاولون على هذا الحد الرباني العظيم! لِيُحِلُّوا مَا حرم الله! فيصورون النوازل كما يشتهون للعلماء، ويخرجونها لهم إخراجا حتى تُوهم الضرورةَ إيهاما؛ لاستصدار رخصةٍ في أمر عظيم! (يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ!)(النساء:١٤٢) وكان أولى بالمحسوبين على أهل الفضل والصلاح،

---

[٢٧٩] أخرجه مسلم.
[٢٨٠] أخرجه مسلم.

أن يأخذوا لأنفسهم في مثل هذا بأصل الاحتياط في الدين، وبمقام الورع! وفي الحديث الصحيح: (خَيْرُ دِينِكُم الوَرَعُ!)[٢٨١].

ومن الأمور الربوية التي عم جهلها في هذا العصر، حتى لابسها بعض أهل الدين والصلاح! ما يعرف عند الفقهاء بـ"الربويات الستة". وهي: (الذهب والفضة، والقمح، والشعير، والتمر، والملح). وما ينوب عنها من النقديات المالية، ومن المطعومات الاقتياتية، مما هو داخل في معنى "المواد الضرورية للتغذية"، مما جرت به الأعراف والعادات في هذا الزمان، على حسب المناطق والشعوب. وهو ما ورد متواترَ المعنى في عدة أحاديث نبوية صحيحة، منها هذا النص الجامع المانع، من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الذَّهَبُ بَالذَّهَبِ، والفِضَّةُ بالفِضَّةِ، والْبُرُّ بِالْبُرِّ، والشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، والتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، والْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلاً بِمِثْلٍ، يَداً بِيَدٍ، فَمَنْ زَادَ أَوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى! وَالآخِذُ وَالْمُعْطِي سَواءٌ!)[٢٨٢].

---

[٢٨١] أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم عن حذيفة مرفوعا، كما أخرجه الحاكم عن سعد مرفوعا أيضا. وصححه الألباني، حديث رقم: ٤٢١٤ في صحيح الجامع.

[٢٨٢] أخرجه مسلم. ومعناه الإجمالي: أنه لا يجوز استبدال ذهب بذهب، ولا فضة بفضة، إلا بشرطين اثنين. الأول: أن يكونا متساويين، والثاني: أن يتم التبادل يدا بيد، أي بدون تأخير في القبض أو العطاء من أحد الطرفين. وكذلك الأمر في سائر المطعومات الأربعة، إذا كانت البضاعة من صنف واحد. ويقاس على الذهب والفضة النقود المعاصرة، فما يشترط في الصنف الواحد منهما يشترط في الصنف الواحد من العملات الآن. هذا معناه العام على الإجمال دون تفصيل. وإنما القصد ههنا التنبيه. وفيه اجتهاداتٌ مختلفةٌ تعليلاً وتنزيلاً، لدى القدماءِ والْمُحْدَثِينَ. وله نوازل لا تنحصر،

وعليه؛ فإنه لا سير إلى الله إلا بعد حسم هذا مع النفس! ولا انطلاق في مدارج التربية والتزكية إلا بعد المفاصلة القاطعة لمداخل المال الحرام أنى كان! وليكن شعارك في تحقيق هذا التحدي العظيم - تخليةً وتحليةً - قول الله تعالى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى! وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا! لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى!)(طه: ١٣١-١٣٢).

وأما الزنى والنظر الحرام فإنه يحرق الأسرار ويسلب الأنوار، ويطمس البصيرة، ويكون سببا في خراب الدنيا والدين! ولذلك فإن الله جلَّ جلالُه نهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنى بله الوقوع فيه! فالمؤمن الكيس الفطن يتجنب الزنى المعنوي قبل الزنى الحسي! وذلك بمدافعة كل الخواطر التي تزين للنفس الشهوات الحرام، وباستقذار الفاحشة أنى كان شكلها، استقذاراً يجعلها تثير الغثيان في النفس، وتنبعث بالنتانة! فلا تقع مظاهر الفسق من عري أو كلام بذيء، أو أيٍّ من خوارم الحياء، في قلب المؤمن إلا بغيضةً ممجوجةً! وذلك كله مجموع في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً!)(الإسراء:٣٢) وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معنى قرب الزنى بحديثه الحكيم الذي يرويه أَبو هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

والواجب على المؤمن أن يرجع فيما يُلِمُّ بِهِ من ذلك إلى استفتاء ثقاة العلماء. فلا يُقْدِمُ على عَمَلٍ حتى يعلم حكم الله فيه.



(إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزنى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ! فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ! وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ! وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي! وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ!)[283] وهو بيان عجيب منه – صلى الله عليه وسلم – لمسلك المجاهدة، والتزكية للنفس، فيما يتعلق بأبواب الشهوات الحرام، مما وجب على المؤمن أن يتنزه عنه ويترفع.

وَلِشِدَّةِ ما يُبغض الله الزنى وأهله فقد أعد لهم عذابا في الجحيم، ليس كأي عذابٍ والعياذ بالله! وقد عَرَضَ النبي – صلى الله عليه وسلم – لقطة واحدة من مشهد تعذيب الزناة رجالاً ونساءً! تملأ القلب هولا وفزعا! وذلك في حديث سمرة بن جندب في الرؤيا، حيث قال عليه الصلاة والسلام: (فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا! فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا! فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا! وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ!) ثم قال له الملَكان المكلفان بتطوافه: أَمَّا (الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ!)[284]

النظرة الحرام تقطع طريق الوصول:

ويعتبر النظر الحرام من أخطر مصائد الشيطان والعياذ بالله! فهو زيادة على ما يمكن أن يؤدي إليه من مهالك، يخرب الرصيد الإيماني للعبد فيما يبنيه

[283] متفق عليه.
[284] متفق عليه.



من منازل عبر سلوكه إلى الله، وما يرتيقه من مقامات عبر عروجه نحو الوصول إلى مولاه!

ثم هو يثبط المبتدئ عن الانطلاق في شق طريق الصلاح، والسير الجاد إلى الله! كلما أراد البدء وجد ثقلا، وهو لا يدري ما يثقله عن المساجد والصلوات، والتخلص من وساوس الشيطان والشهوات! ولو جاهد نفسَه على غض بصره عن محارم الله، لوجد خفة في روحه، وقوة في عزيمته، ولاَنْتَصَرَ على حبال الشيطان التي تشده إلى التراب شدّاً!

فالنظر الحرام يحرق حصائد الصلاح، ويمنع تحليق الجناح! ثم يجعل عزيمة السير إلى الله – في رمشة عين – رماداً تذروه الرياح! ومن هنا فليس عبثا أن تجد التحذير منه صريحا في القرآن الكريم وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام! قال تعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ! ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ! وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ! وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا!)(النور: ٣٠-٣١) وهذا أمر قد استهان به كثير من المسلمين، ولكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يستهن به قط! بل قال في وصيته الحكيمة لعلي



بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: (يَا عَلِيُّ! لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ! فإنَّ لَكَ الأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ!)[285]

النظرةُ الحرامُ تَحْرِمُ العَالِمَ سِرَّهُ!

ومن أجمل ما نُقِلَ عن بديع الزمان سعيد النورسي - رحمه الله - في هذا الأمر حكمةٌ رفيعةٌ، تُشَدُّ إلى مثلها الرحال! وذلك أنه - رحمه الله - كان ضيفا عند بعض الأعيان من محبي العلم والعلماء، لمدة طويلة تزيد على بضعة أشهر، وكان لذلك الرجل بنات، يدخلن ويخرجن، والنورسي آنئذ في عز شبابه! فجاء عالِمٌ آخرُ فنزل ضيفا ليومين أو ثلاث بنفس المكان، فجعل يحصي البنات ويميز الصغرى من الكبرى، فوجد بديعَ الزمان جاهلا بكل تلك التفاصيل والأوصاف، فسأله: لماذا لا تنظر إليهن؟ فأجابه النورسي بهذه الحكمة البالغة: (النظرةُ الحرامُ تَحْرِمُ العَالِمَ سِرَّهُ!)

والسبب في ذلك أن النظر الحرام في مثل هذه الأحوال خيانة! خيانة للعلم، وخيانة للدين، وخيانة للدعوة جميعا! ثم هو خيانة لأهل البيت ولأعراضهم! وما كان للخائن أن تكون له من أسرار!

---

[285] أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن بريدة مرفوعا. وحسنه الألباني. حديث رقم: ٧٩٥٣ في صحيح الجامع.



وبهذا فسر ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ!)(غافر: ١٩)[٢٨٦]

وقد ثبت – كما رأيت – بنصوص الكتاب والسنة، وكذلك بأقوال أهل العلم، وأصحاب الخبرة بمسالك التربية الإيمانية أن النظر الحرام من أخطر قُطَّاعِ الطرق على السالكين إلى الرحمن! وإنما المعصوم من عصمه الله!

وأما الخمر وما يلحق بها من مسكرات ومخدرات فإنها تمنع سير الروح أصلاً، وتحبسه ابتداءً. لأن صاحبها قد أسلم نفسَه لوثنية هواه! وما كان لمن لم يُخْلُصْ هواهُ لله الواحد القهار أن تفتح له الأبواب! فالمتلطخ بالرجس مرفوض في الملأ الأعلى! كذلك وصفها الله في محكم كتابه، ولا عبث في الدين بالتمني الكاذب على الله! قال جلَّ عُلاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ **رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ!**)(المائدة: ٩٠). وإنه والله لا فلاح ولا نجاح للمسلم إلا بالاجتناب التام للخمر، والمقاطعة الشاملة لها، ولمسالكها، ولخدماتها، ولكل ما ينتج عنها أو بسببها من أرباح وأموال! ومن عَوَّلَ على السير إلى الله والوصول إليه تعالى، وهو ما يزال متلبسا بنجاستها، فقد غره الشيطان وتمنى على الله الأماني!

---

[٢٨٦] قال ابن عباس: (في قوله تعالى: "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور": هو الرجلُ يدخل على أهل البيتِ بيتَهم، وفيهم المرأة الحسناء (...) فإذا غفلوا لحظ إليها! فإذا فطنوا غض بصره عنها! فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض!) تفسير ابن كثير: ٤/٧٦.



وقد سبق حديثُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في حق شاربها، بما وصفه من رهيب الصفات! فقال صلى الله عليه وسلم: (شَارِبُ الخمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ! وشَارِبُ الخمْرِ كَعَابِدِ اللاَّتِ والعُزَّى!)[٢٨٧] ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: (مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ!)[٢٨٨]

وقد عرض عليه الصلاة والسلام ههنا أيضا لقطة من مشهد آخر، لمآل شارب الخمر، وما يخسره من رصيده العملي، فيما قد يكون له من حسنات سابقة أو مرافقة! فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (كُلُّ مُخَمَّرٍ خَمْرٌ. وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ! وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلاَتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ! قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ! وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لاَ يَعْرِفُ حَلاَلَهُ مِنْ حَرَامِهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ!)[٢٨٩] ورُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ

---

[٢٨٧] أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو مرفوعا. وصححه الألباني، حديث رقم: ٣٧٠١ في صحيح الجامع.

[٢٨٨] أخرجه البخاري في تاريخه، والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: ٥٨٦١ في صحيح الجامع.

[٢٨٩] أخرجه أبو دود عن ابن عباس مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: ٤٥٤٨ في صحيح الجامع.





صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رَدَغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ!)[٢٩٠]

لاَ تَفُكَّ عَنِ الخمرِ حِصَارَ الشَّرِيعَةِ!

والمطلوب من المؤمن الصادق مقاطعةُ الخمر، شرباً، وإنتاجاً، وتجارةً، وزراعةً، وخدماتٍ! أنى كانت هذه الخدمات! ولو أن يكون حارسا، ليس لها فحسب، ولكن حتى لمزارعها المخصصة لها قصداً! والنصوص في ذلك كثيرة جداً! منها قوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ لَعَنَ الخمْرَ، وعَاصِرَهَا، ومُعْتَصِرَهَا، وشَارِبَهَا، وسَاقِيَهَا، وحَامِلَهَا، والْمَحْمُولَةَ إليه، وبَائِعَهَا، ومُشْتَرِيَهَا، وآكِلَ ثَمَنِهَا!)[٢٩١] فالمقصود بهذا الحديث ضرب حصار اقتصادي واجتماعي على الخمر مطلقاً! فلا يجوز للمسلم فَكُّ هذا الحصار بأي خدمة من الخدمات يقدمها لها، بَدْءاً بزراعتها وانتهاءً ببعيها، والترويج لها،

---

[٢٩٠] أخرجه ابن ماجه وأحمد والدارمي عن عبد الله بن عمرو. وصححه الألباني. حديث رقم: ٦٣١٣ في صحيح الجامع.

[٢٩١] أخرجه أبو داود. والحاكم، والبيهقي، عن عبد الله بن عمر مرفوعا. وصححه الألباني. حديث رقم: ١٨٠٢ في صحيح الجامع. كما أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي والضياء عن ابن عباس. وصححه الألباني في صحيح الجامع.



أو إشهارها، أو شراء أي شيء من المباحات أصلاً ولكن لخدمتها! ولو كان ذلك مجرد قلم أو ورقة، لضبط حسابها! أو عجلة لإصلاح شاحنتها! وقس على هذا وذاك قياسا صحيحا مليحا وَامْضِ! فلا شيء اتُّخِذَ في سبيل إنعاشها إلاَّ وهو ملعون عند الله، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم!

وما كان لمن تنزلت عليه اللعنة الإلهية أن ينطلق، ولا أن تُفتح له أبواب السماء؛ إلا أن يتوب إلى الله توبةً نصوحاً!

لا تجلس على مائدة يُدَارُ عليها خمر، ولو لم تكن لها شاربا!

والمؤمن الراغب فعلا في السير إلى الله وجب أن يتحلى بحساسية عالية جدا ضد الخمر وأهلها! فلا يجالسهم ولو مجرد مجالسة وهم على مائدة الخمر! بل ما وُضِعَتْ أُمُّ الخبائث بمكان إلا غادره المؤمن! إلا لضرورةٍ مُقَدَّرَةٍ بِقَدْرِهَا شرعا! فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي صلى الله عليه وسلم: (نَهَى عَنِ الْجُلُوسِ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ!)[٢٩٢] وقد ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بصفة الإيمان بالله واليوم الآخر! على عادته عليه الصلاة والسلام في الأمور المهمة في الدين! وهو قوله الصريح

[٢٩٢] أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عمر. وحسنه الألباني. حديث رقم: ٦٨٧٤ في صحيح الجامع.

المليح: (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلاَ يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ!)[٢٩٣]

وبعد،

فهذه أربعة أنصاب: (الخرافيات، والمال الحرام، والزنى، والخمر)، تنتصب – في هذا العصر – أوثانا في هوى الإنسان! فتخسف بإيمانه؛ ويكون من الخاسرين والعياذ بالله، إلا أن يتغمده الله برحمته! ومن هنا فإنه لا أمل في انطلاقه، ولا في استقامة سيره، وصلاح شأنه، إلا بمقاطعتها والتبرؤ منها جميعا. وإنما الموفق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

– الالتزام الرابع: إمساك اللسان عن فضول الكلام!

وهو ورد الصمت عما لا خير فيه من الكلام! وهو ملاك سائر الأعمال! إذْ بغيره لا يبقى لصاحبه دِينٌ ولا خُلُقٌ!

ولقد نَصَّ القرآنُ على أن كل ما يصدر عن الإنسان من أقوال، هي محصاة عليه إحصاءً دقيقاً! والله جلَّ جلالُه يعلم الكلمة قبل أن يتلفظ به المرء، بل يعلمها سبحانه وهي ما تزال خَطْرَةً في قلبه، أو وسوسةً في نفسه! فإذا تلفظ بها تلقفها الْمَلَكَانِ فَكُتِبَتْ له أو عليه! وذلك هو صريح قوله تعالى: (وَلَقَدْ

---

[٢٩٣] أخرجه الترمذي والحاكم عن جابر. وحسنه الألباني، حديث رقم: ٦٥٠٦ في صحيح الجامع.



خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ! إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ! مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ!)(ق: ١٦-١٨)

وتواترت السنة بالتحذير من خطورة آفة اللسان، وما تجره على المؤمن من خراب الأعمال! والارتكاس الرهيب في غيابات الجحيم! فعن بلال بن الحارث - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تعالى مَا يَظُنُّ أن تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبَ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إلى يَوْمِ القيامةِ! و إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله تعالى، مَا يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبَ اللهُ عَلَيْهِ بها سَخَطَهُ إلى يَوْمِ القيامةِ!)[٢٩٤] ومثله قوله - عليه الصلاة والسلام - في هذا النذير الرهيب: (إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لا يَرَى بها بأساً يَهْوِي بها سَبْعِينَ خَرِيفاً في النَّارِ!)[٢٩٥]

ولا أجدُ أشدَّ نذيراً ولا أَرْهَبَ تحذيراً، مما ورد في حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - في آفة اللسان! وقد أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما

---

[٢٩٤] أخرجه مالك، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، عن بلال بن الحارث. وصححه الألباني. حديث رقم : ١٦١٩ في صحيح الجامع.

[٢٩٥] أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، عن أبي هريرة. وصححه الألباني، حديث رقم : ١٦١٨ في صحيح الجامع.

يُدْخِلُهُ الجنةَ من الأعمال وما ينجيه من النار، ثم قال عليه الصلاة والسلام في خاتمته: (أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا! فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!؟)[٢٩٦]

ولذلك فقد أهدى عليه الصلاة والسلام للأمة هذه القاعدة اللسانية الاحتياطية الغالية! فقال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ!)[٢٩٧]

وهذا جامع لكل معاني النميمة، والغيبة، ونحو هذا وذاك من محرمات الأقوال، وسائر اللَّغْوِيَّاتِ الباطلة! بَلْهَ التلفظ بالشركيات! سواء كان ذلك جِدّاً أو هزلاً! ألاَ عَصَمَ اللهُ أَلْسِنَتَنا جميعا من كل سوء!

اِحْذَرِ الْكَذِبَ فإنَّه مَرَضٌ خَطِيرٌ!

والكذب - أعاذنا الله وإياكم منه - من أسوأ آفات اللسان! والمؤمن لا يكذب! أما الداعية أو الحامل لمشروع التجديد الديني فإنه إن كذب فقد خان رسالته! وقضية الصدق والكذب هي قضية "وَلاَءٍ وبَرَاءٍ" في المجال

---

[٢٩٦] رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي. وقَالَ الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". كما صححه الألباني في صحيح الجامع.

[٢٩٧] متفق عليه.



الدعوي، لا تقبل المساومة![298] ويكفينا في ذلك نذارةُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الفاصلة الحاسمة! حيث إنه توعد الكاذب بالويل المؤكَّد! ولو كان كذبه من باب إضحاك الناس والترفيه عنهم! قال عليه الصلاة والسلام: (وَيْلٌ للذي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ؛ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ! وَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَه!)[299] وقد نقلت عائشة – رضي الله عنها – موقفه الشديد من الكذب، فقالت: (كَانَ أَبْغَضُ الخُلُقِ إليهِ الكَذِبَ!)[300]

ولا وصولَ إلى الله – جلَّ جلالُه – ولا طريقَ إلى نيل رضاه إلا بالصدق. الصدق على كل حال، والصدق في كل شيء! بحيث لا يَصْدُرُ المؤمنُ في كل شأنه، كبيره وصغيره، إلا عن الصدق! قولا وفعلا، عسى أن يكون في نهاية المطاف من الصِّدِّيقِينَ! فالصِّدِّيقِيَّةُ لا تُنال بكثرة الأعمال عدداً، وإنما تنال بعمقها صدقاً، وبصفائها وِرْداً، وبإخلاصها قصداً. وذلك هو الصدق مع الله جل ثناؤه. ومن لم يصدق مع الناس لم يصدق مع الله! والعكس صحيح. فالصدقُ عُمْلَةٌ واحدةٌ، مَنْ غَشَّهَا أو دَلَّسَهَا غَشَّ في كُلِّ شيءٍ، ودَلَّسَ في كُلِّ شَيْءٍ! ولا مسلك إلى الله بغير هذا! فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ

---

[298] لا نقصد بذلك "الولاء والبراء" بالمعنى العقدي الصرف، ولكننا نقصد ولاء الثقة والتواصل أو عدمهما، في مجال العمل الإسلامي.

[299] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم، عن معاوية بن حيدة مرفوعا. وحسنه الألباني، حديث رقم : ٧١٣٦ في صحيح الجامع.

[300] أخرجه البيهقي عن عائشة. وصححه الألباني. حديث رقم : ٤٦١٨ في صحيح الجامع.



مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ! فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا! وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ! وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا!)[٣٠١]

ولنا أن نختم هذه الالتزامات بحديث نبوي عجيب، هو عبارة عن رحلة روحية - مأذونة من لدن الرحمن - في ملكوت الغيب! صُحْبَةَ المَلَكَيْنِ: جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام. وذلك خلال رؤيا نبوية، ولا تكون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إلا حقا، بل لا تكون إلا وحيا من الله جل جلاله، وحقيقةً نبوية قطعية! رؤيا كانت عبارة عن مشاهدات ذات جلال وجمال، وسياحة في ملكوت أخروي عجيب، من مشاهد العذاب ومنازل النعيم. كلُّها عِبَرٌ وحِكَمٌ ترجع على ما ذكرنا من التزامات بالترغيب والترهيب! ذِكْرَى (لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ!)(ق: ٣٧)

فَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ – رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ، قَالَ بَعْضُ

---

[٣٠١] متفق عليه.

أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ! وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا! فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ! قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ! فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ! فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ! قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ انْطَلِقْ! فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا! فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا! فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا! وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ! فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ انْطَلِقْ! فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ! فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ! فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ!

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ وَأَدْخَلاَنِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا! فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ. ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ! فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ.

قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ! قَالاَ: نَعَمْ.



أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ! يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ! فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ! يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ! وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا! وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَم، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلاَدُ النَّاسِ. وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ. وَالدَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ. وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ. فَارْفَعْ رَأْسَكَ! فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ! قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي! قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ!)[٣٠٢]

---

[٣٠٢] متفق عليه.





بصيرة في شرط الوصول

وعليه؛ فإنَّه لاَ وُصُولَ ولاَ قَبولَ في كل ذلك جميعا إلا بِشَرْطٍ أسَاسٍ، ألا وهو: مجاهدة النفس؛ للتحقق في كُلِّ مَسْلَكٍ من إخلاص القلب! وللتحقق في كل كلمة من صدق اللسان!

ذلك، وإنما الموفَّقُ مَنْ وفَّقه اللهُ، هو وحده تعالى المستعان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ــــــانتهى.





المحتويات

